د. محمد عمارة

على مبارك
مؤرخ ومهندس العمران

دار الشروق

عَلى مُبارَك

مؤرخ ومهندس العمران

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني – هاتف: ٧٧٤٨١٤ – ٧٧٤٥٧٨ – برقيا: شروق – تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ – هاتف: ٣١٥٨٥٩ – ٨١٧٧٦٥ – ٨١٧٢١٣ – برقيا: داشروق – تلكس: SHOROK 20175 LE

SHOROUK INTERNATIONAL 316/318 REGENT STREET, LONDON W1 UK TEL 037 2743/4, TELEX SHOROK 267786

تمهيد

علي مبارك باشا [١٢٣٩ - ١٣١١ هـ ١٨٢٣ - ١٨٩٣ م]

. . . .

واحد من صناع عصر نهضتنا العربية الحديث. . . وعلم من الأعلام الذين أسهموا إسهاماً ملحوظاً، فاق المعتاد، في إيقاظ العقل العربي، وتحديث مجتمع العرب وعالم الإسلام في القرن التاسع عشر. . . ورائد ارتاد لأمته ميادين جديدة، وجدد لها فنوناً عظيمة بعد أن طمسها ليل العصور المظلمة الذي صنعه المماليك والعثمانيون!. . . وحياة عظيمة، أثمرت من «الفكر» و «الانجازات» ما جعل من صاحبها واحداً من أبرز أعلام ومدن مصر في العصر الحديث. .

* * *

ولقد يحسب البعض - من فرط حسن النية - أن أهمية علي مبارك، المصلح والمفكر، لا تحتاج إلى حديث «يمهد» لدراسة حياته وفكره وإنجازاته. . . فعظمة الرجل وأياديه على أمته ووطنه لا بد وأن تجعل الدراسة له في غنى عن «التمهيد»؟!. . .

لكن الواقع شيء. . . وما يحسبه أصحاب النوايا الحسنة شيء آخر؟!. . .

فكثير من الأحاسيس العميقة، والمؤلمة التي عاشت معنا، ولا تزال... تدعونا إلى التحفظ على رأي أصحاب النوايا الحسنة هؤلاء.. وتطلب منا أن نضع القارىء العربي أمام هذه الحقائق، التي نكثفها في هذه النقاط:

● فالأمة العربية، ومن خلفها عالم الاسلام، قد عرفت طريقها إلى النهضة الحديثة في أعقاب اليقظة، التي مست عقل مصر ووجدانها بعد أن قامت بها تجربة المجتمع العصري والدولة المدنية المتمدنة تحت قيادة محمد علي [١٧٦٩ - ١٨٤٩م] في النصف الأول من القرن التاسع عشر... وكان علي مبارك واحداً من أبرز صناع تجربة المجتمع العصري هذا، على امتداد ما يقرب من خمسين عاماً...

● والتعليم المدني الحديث، كان سبيلاً من أهم السبل التي استطاعت هذه الأمة بواسطته أن تعيش قضايا عصرها، وتزيل به ركام الخرافة والشعوذة عن عقلها الذي تجمد طوال قرون الجدب والركاكة والانحطاط تحت المماليك التي انعكست على العرب والشرق فاستلهموها واتخذوها منارة في هذا الميدان..

● والهندسة والتخطيط، كانا من أهم ثمار العقلانية العربية الحديثة، جدد بهما الانسان العربي قسمة العقلانية الأصيلة في حضارته وتراثه، ثم طورها. واستبدل بهما نهج التواكل والعفوية الذي طبع حياته في عصور الظلام... وكان علي مبارك أعظم

المهندسين العرب الذين ارتادوا هذا الميدان في عصرنا الحديث. . .

كتب في تخطيط المدن وعمارتها. . وأنجز أول تنظيم للقاهرة ومدن مصر في العصر الحديث. .

وأنشأ الاستحكامات الحربية. . وأسهم في القتال. . فكان أبرز مهندسي الحرب الثلاثة والسبعين الذين درسوا فنون الحرب، بأوروبا، على عهد محمد علي:

وخطط للهندسة الزراعية. . وللنيل. . وبشر بأهمية «الميكنة» وضرورة الدخول إلى «عصر البخار». . وأنجز أعمالاً مادية ملموسة في هذه الميادين، وكتب عنها الصفحات والفصول. .

● والنثر العربي الذي كان قد توقف عند سجع «المقامة» ومحسناتها البديعية، أخذت نهضتنا الحديثة في تخليصه من هذه القيود، شيئاً فشيئاً، وبالتدريج. . . . ولكنه على يدي على مبارك ـ بعد أن تخلص من هذه القيود تماماً ـ اقتحم، في ريادة باسلة، ميداناً جديداً من ميادين التعبير. . فعرف الأدب العربي على يديه أول عمل روائي في تراثنا الحديث، عندما كتب روايته التعليمية الكبيرة [علم الدين]!

● والتأليف في [الخطط]. . . ذلك الفن الذي امتازت حضارتنا بالسبق إليه قبل غيرها من الحضارات. . هذا الفن الذي يؤرخ للحياة والمجتمع، ويعمد، قبل كل شيء، إلى رصد العوامل المؤثرة في تطور المجتمع والحاسمة في مجريات الأمور. . .

هذا الفن كان قد توقف عند تقي الدين أحمد بن علي المقريزي [٧٦٦ ـ ٨٤٥ هـ ١٣٦٤ ـ ١٤٤٢ م]. . . . . فكان علي مبارك أول مؤرخ في عصرنا الحديث يمسك بيده خيوط تراثنا في التأريخ بـ[الخطط] لينسج على المنوال، بل ويطور المنهج، بدقة العصر، وعقل المهندس، والخبرة العملية لرجل الدولة الحديث. . . بل لقد تفرد بالتأليف. في هذا الفن، من بين مؤرخي أمتنا، منذ المقريزي حتى كتابة هذه السطور! . . . وليست صدفة أن نجد المرجع الأول والأساسي، في أية دراسة جادة كتبها مستشرق أو عربي عن مجتمعنا وتطوره، هو [الخطط] التي ألفها علي مبارك!

● ودار الكتب القومية الكبرى. . . تلك المؤسسة الثقافية الهامة التي عرفها مجتمعنا العربي غنية وزاخرة ببغداد في العصر العباسي، وبالقاهرة في العصر الفاطمي. . افتقدتها عواصمنا منذ أن فرط الأيوبيون بمكتبة القاهرة ـ لدواعي مذهبية ضيقة الأفق ـ ومنذ أن دمر التتار مكتبة بغداد. . . حتى جاء علي مبارك ليعيد إلى القاهرة تلك القسمة الثقافية الحضارية الأصيلة من قسمات حضارتنا، بإنشائه دار الكتب القومية ـ الكتبخانه ـ سنة ١٨٦٩م. .

● وحركة التأليف النشطة والعملاقة، وكذلك حركة الترجمة، التي جعلت المطبعة الأميرية بمصر ـ مطبعة بولاق ـ تضع بالمكتبة العربية في أربعين عاماً فكراً مستنيراً زادت أعداد كتبه على الألفي كتاب، على حين وقفت مطابع الامبراطورية العثمانية في أكثر من قرن عند رقم الأربعين كتاباً، خرجت كلها لتكرس

الشعوذة وتنشر الخرافات!... حركة التأليف هذه أسهم فيها علي مبارك إسهاماً جعله في المقدمة، سواء جعلنا «الكم» أو «الكيف» هو المعيار في مقارنته بأقرانه من المؤلفين!...

وهكذا... وهكذا... ميادين كثيرة... وانجازات كثيرة لعلي مبارك في هذه الميادين... وبقدر كثرة هذه الميادين، وكثرة انجازاته فيها... تزداد مشاعر الألم لدى الباحث الجاد، المدرك لقيمة الفكر المستنير، وضرورة بعث القدوة الجادة والقيم المضيئة في تراثنا كي تفعل فعلها في عصرنا ومجتمعنا الذي نعيش فيه...

فالرجل الذي صنع كل ذلك، لا تجد له ذكراً يذكر لدى جمهور المتعلمين والمثقفين، فضلاً عن عامة الناس...

● صحيح إنك لا تجد باحثاً جاداً من بحاث المستشرقين وعلماء الاستشراق الذين درسوا حياتنا الاجتماعية والاقتصادية، إلا وتجد مؤلفات علي مبارك - وخاصة [الخطط] - من أهم مصادره وفي مقدمة مراجعه... ولكنك إذا طالعات العديد من المراجع الجادة التي أرخت لحياتنا في العصر الحديث، وجدتها خالية من أي ذكر لأي إنجاز من إنجازات علي مبارك، بل وخالية من ذكر اسمه بالمرة!... صنع ذلك «فيليب حتى [المولود ١٨٨٦م] في كتابه [تاريخ العرب][1].. وبوريسوفيتسن لوتسكي [١٩٠٦ - ١٩٦٢ م] في [تاريخ الأقطار العربية الحديث][2]...

---

(١) انظر طبعة بيروت، الثانية، سنة ١٩٥٣م.

(٢) انظر طبعة موسكو، العربية، سنة ١٩٧١ م.

وبروكلمان في [تاريخ الشعوب الاسلامية][1]... وقس على ذلك كثيراً من المراجع التي عرضت بالتأريخ لمجتمعنا في القرن الماضي..

● ومعظم الكتب التي أصدرتها دور النشر العربية حكومية وخاصة - عن [أعلام العرب] و[نوابغ الفكر العربي] لم يحظ علي مبارك بنصيب في واحد منها!...

● والقاهرة... العاصمة التي كانت لعلي مبارك ريادة تنظيمها وتحديثها، لا تحمل ميادينها ولا شوارعها الهامة اسمه... اللهم إلا ذلك الشارع الذي سكن الرجل فيه، وبنى به منزله في حي «الحلمية الجديدة»!... ومن باب أولى فإن ميادين هذه العاصمة قد خلت من أي تمثال يخلد ذكرى هذا المهندس الذي قاد تخطيطها الحديث ووضعه في التطبيق!...

● والجامعات - وهي التي ورثت مؤسسات التعليم العالي، وأصبحت الامتداد المتطور لها - لم تحفل بإقامة ما يخلد ذكرى الرجل الذي كان أبرز من أقام للتعليم العالي صرحاً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر... اتفقت على ذلك العقوق كل الجامعات، اللهم إلا إذا استثنينا [كلية دار العلوم] - وهي التي أنشأها علي مبارك - فتمثاله الصغير بفنائها هو الاستثناء الوحيد الذي يؤكد قاعدة العقوق!...

---

[1] انظر طبعة بيروت، الخامسة، سنة ١٩٦٨م.

● والفن القصصي والروائي والمسرحي، وما يتبعه ويستلهمه من تمثيل للمسرح وفي السينما. . على حين قد وجدناه يقيم أبطالاً من العدم ويصنع من الكذب بطولات، حتى غدت الغواني وبائعات الهوى قسمات تؤرخ للعصر ومعالم تتسابق على تخليدها أدوات التعبير الفني هذه. . . لم نجد حياة علي مبارك - وهي ملحمة بطولة صنعتها إرادة إنسانية فذة في مواجهة الصعاب والعقبات والمعوقات - لم نجد هذه الحياة موضع اهتمام فنانينا، ولم تجد بعد سبيلها إلى وجدان هذه الأمة، كي تفعل فعلها البناء عبر الفن وبواسطة أدواته في التعبير. . .

* * *

ولكل هذه الأسباب. . ولأخرى مماثلة. . . فإننا، ونحن نقدم للقارىء العربي دراستنا هذه عن علي مبارك، لا نجد أنفسنا فقط محرزين لخطوة على الدرب الذي بدأناه. . . ولا مضيفين، فحسب، حلقة جديدة في هذه السلسلة الهامة والأساسية في فكرنا وحضارتنا. . . ولا باعثين - فقط - من زوايا العدم والضياع والنسيان تلك الأعمال المضيئة التي تسد ثغرة في صرحنا الفكري وتضع في بنائه لبنات. . . وإنما - بالاضافة إلى ذلك كله - نحن نمارس، عملياً، خلق «الوفاء»، بالاسهام في تخليد ذكرى علم عملاق، كانت حياته وأعماله تجسيداً لوفاء المواطن الصالح لوطنه وأمته. . . والوفاء لعلم كهذا هو وفاء للوطن والأمة والحضارة، التي وهبتنا - بعد الله - المقدره على أن نصنع شيئاً جاداً ومفيداً على هذا الدرب الذي نسير فيه. . .

فليس أحب إلى النفس من أن تمارس خلق «الوفاء»، وخاصة إذا كان «وفاء» في ميدان الفكر، يرفع به «القلم» ظلماً شديداً وعظيماً عن هذا الرجل العظيم!...

والله نسأل أن تبلغ هذه الدراسة عن علي مبارك الهدف الذي نريد....

القاهرة

دكتور محمد عمارة

بطاقة حياة...

... وإني لمعترف بفضل هذا الوطن العزيز علي، فقد نشأت في ظله، وتقلبت في مهده، وتربيت في حجر كفالتـه وتعهده، حتى صـرت من أبنائـه المعدودين، ورجاله المعروفين، وتمتعت، صغيراً وكبيراً، بكثير من خيراته وثمراته، ولا أزال متنعماً بطيباتـه... فأجـدني، وإن استوفيت الجهـد، وقضيت العمر في خدمته، لم أقم بعشر معشار ما علي من واجباته وحقوقه!...

ولكن عرفاني لذلك واعترافي به لا يمنعني من بذل جهد المقل، والانتهاء لغاية الاستطاعة.. ولهذا التزمت، في كل ما تقلدت من الأعمال، وجميع ما تقلبت فيه من الأحوال، أن أخدم وطني بكل ما نالته يدي وبلغه إمكاني، مما أراه يعود عليه بالفائدة والنفع، قل أو جل، كالسعي في استكثار المكاتب والمدارس.. وتعميم التربية والتعليم.. ونشر الكتب المفيدة، إما بالاشتغال في تأليفها بنفسي أو الحث والتحريض عليها لمن أرى فيه أهلية القيام بها!..]

علي مبارك

- ١ -

في قرية «الكوم والخليج[١]»، إحدى القرى الواقعة على «بحر طناح»، بمحافظة الدقهلية.. نعثر على الأصول المعلومة لأسرة مفكرنا: على بن مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجي[٢].. ثم يصيب هذه الأسرة ما يصيب الكثير من الأسر المصرية في ظل مظالم الحكم «المملوكي ـ العثماني» فتحل بها لعنة

---

(١) هكذا في خطط علي مبارك، عند حديثه عن ترجمته أثناء ترجمته لبرنبال.. وفي [القاموس الجغرافي للبلاد المصرية] لمحمد رمزي، أنها من القرى القديمة، واسمها الأصلي خليج قزمان، وهي من كفور طناح من أعمال المرتاحية. انظر القسم الثاني من الجزء الأول. ص ٢١٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م. [وهو مرجعنا في التعريف بالقرى والبلاد.. بعد خطط على مبارك].

(٢) يخطىء سركيس في [معجم المطبوعات العربية والمعربة] ص ١٣٦٧ فيسميه علي مبارك، ويجعل اسم أبيه سليمان، ويجعل لقب جده ابراهيم: «الرومي»، بدلاً من: الروجي.. ويسير على منواله في هذا الخطأ: رضا كحالة في [معجم المؤلفين]. طبعة دمشق سنة ١٩٥٧م.

الشتات.. فيهاجر جزء منها إلى بلدة «دموه»[1]، حيث يكونون هناك فرعاً يتحول إلى عائلة «البحالصة»... ويهاجر جزء ثان منها إلى بلدة «الموامنة»[2].. على حين يهاجر ابراهيم الروجي إلى بلدة «برنبال»[3] الجديدة، مركز دكرنس، محافظة الدقهلية .. بينما تظل بقايا الأسرة في «الكوم والخليج»، مكونة عائلة «أولاد غيطاس»..

وكان إبراهيم الروجي، جد علي مبارك، الذي استقر به المقام في «برنبال» فقيهاً من فقهاء الريف المصري.. يحفظ القرآن الكريم، ويلم بطرف من أمور الدين وأحكامه، فتولى في موطنه الجديد منصب الامام والخطيب بمسجد القرية، وذلك بالإضافة إلى منصب «القاضي» الذي يوثّق عقود الزواج والطلاق، ويفصل بين الناس في المنازعات.. وعلى دربه هذا نشأ وسار ابنه سليمان، وحفده مبارك، حتى سميت الأسرة لذلك «بعائلة المشايخ»..

وعندما ولد علي مبارك [سنة ١٢٣٩ هـ سنة ١٨٢٣ م][4]

---

(١) من قرى مركز دكرنس، محافظة الدقهلية.. قرية قديمة، سميت في العصر العثماني: دموه السباخ، تمييزاً لها عن البلاد التي تحمل ذات الأسم.

(٢) من قرى مركز دكرنس.. واسمها الآن: ميت الخولي مؤمن. وهي من القرى القديمة.

(٣) يخطىء سركيس فيسميها: برنباك. وتسمى برنبال الصغيرة، تمييزاً لها عن برنبال الكبيرة. وكانا بلدة واحدة ثم انقسما سنة ١٢٢٨ هـ سنة ١٨١٣م.

(٤) يذكر علي مبارك، في ترجمته الذاتية، عند حديثه عن «برنبال» [بالخطط] أن ولادته كانت سنة ١٢٣٩ هـ. ولا يحدد الشهر، ومن ثم لا يحدد العام

كانت عائلة المشائخ هذه، في برنبال، كبيرة، تضم نحواً من مائتي نفس، تختص منازلهم بحارة من الحارات.. كما اجتمعت لهم ـ غير مناصب الإمامة والخطابة والقضاء وتوثيق الزواج والطلاق ـ حرف الكيل والميزان..

وكان الشيخ مبارك، والد مفكرنا الكبير، رجلاً مهيباً، تزين هيئته الجميلة ولونه الأبيض فصاحة لسان، وأدب جم، وآثار ظاهرة للتقوى والصلاح..

وعندما ولد صاحبنا كان قد سبقه إلى الميلاد إخوة كثيرون... ذكور غير أشقاء.. وسبع بنات شقيقات! ولقد أبت مظالم النظام السياسي والاجتماعي يومئذ إلا أن تلاحق الاسرة بلعنة الهجرة والاغتراب.. ففي إحدى الضائقات الاقتصادية، التي كثيراً ما كانت تصيب الفلاح المصري، عجزت الأسرة عن الوفاء بما فرض عليها من الضرائب والرسوم... وكانت أرض الشيخ مبارك «رزقة»، معفاة من الضرائب، ولكن الضائقة الاقتصادية جعلت حكام الاقليم يفرضون عليه أرضاً غير معفاة من الضريبة، ومحملة بالديون فتراكمت عليه الديون المتراكمة،

= الميلادي.. ويذكر أحمد أمين ـ في [زعماء الإصلاح] ص ١٤٨ ـ طبعة سنة ١٩٤٩م ـ أن سنة ميلاده ـ الميلادية ـ هي سنة ١٨٢٣م.. ومما يذكر أن السنة الهجرية سنة ١٢٣٩ هـ تبدأ في اليوم الموافق ٧ سبتمبر سنة ١٨٢٣م.. وقبل أحمد أمين اتخذ ذات الموقف أمين سامي في [تقويم النيل] انظر: المقدمة «هامش» ص ٩١. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٦م.

سلفاً، على هذه الأرض.. ولما عجز عن الوفاء بالمطلوب، بعد أن أعطى كل ما لديه، وباع الماشية وأثاث المنزل.. اضطر إلى الهجرة، فراراً من الملاحقة، وترك «برنبال» ورحل كي يقيم في قرية «الحمادين»[1]، من قرى محافظة الشرقية، وكانت سن ولده علي في ذلك التاريخ ست سنوات.

- ٢ -

وكان الشيخ مبارك قد عزم على أن يعد ولده علي كي يكون فقيهاً، يرث مركزه ويحيى ذكره.. فأرسله - قبل الهجرة من «برنبال» - إلى شيخ ضرير اسمه «أبو عسر» كي يحفظ القرآن.. وكانت تلك، في نظره ونظر معاصريه، خير مهنة، والوظيفة التي لا تعادلها صنعة من الصنائع أو حرفة من الحرف.. وبعبارة علي مبارك فإن ما وراء مهنة الفقيه «إن هي إلا صنائع ووظائف لقوم ليسوا من حرفتنا ولا طائفتنا وعشيرتنا، كالهندسة والحكمة - (الطب) - والجندية، ونحو ذلك من الصنائع الدنيوية.. وهي صنائع تخرج عن طريق الأهل والأجداد.. ولقد سمعت من أبي عن جدي: أن عائلتنا شريفة، ثم وجدت في أمتعة والدي رحمه الله، بعد وفاته، نسبة الشرف، فلم أجد فيها أحداً من أجدادي احترف حرفة من الحرف!...»[2]

(١) من قرى مركز فاقوس.. وكانت في الأصل تابعة لناحية دوامة، ثم انفصلت عنها سنة ١٢٢٨ هـ سنة ١٨١٣م.

(٢) علي مبارك [الأعمال الكاملة] المجلد الأول ص ١٩٥. دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.

كانت تلك هي أفكار البيئة، وعزيمة الشيخ مبارك بالنسبة لولده علي. . .

ولم يطل بهم المقام في قرية «الحمادين»، فانتقلوا إلى «السماعنة» ـ بنفس المحافظة ـ وأهلها من القبائل العربية. . ولم يكن في مضارب خيامهم فقيه، فاستقبلوا الشيخ مبارك أحسن استقبال، وأقاموا لهم مسجداً أصبح هو الإمام والخطيب فيه. .

وعندما استقرت الأسرة «بالسماعنة»، شرع الشيخ مبارك يعلم ابنه القرآن بنفسه، إذ لم يكن هناك فقيه سواه ـ ثم رأى أن يرسله إلى فقيه ببلدة «الكردى»، قرب برنبال، اسمه الشيخ أحمد أبو خضر، كي يحفظ على يديه القرآن. . فكان يقيم عند الشيخ أبو خضر، بالكردى، طوال أيام الأسبوع، ثم يزور أسرته، بالسماعنه، يوم الجمعة. .

وبعد عامين قضاهما في مكتب الشيخ أبو خضر، حفظ فيهما القرآن، أول مرة ـ بداية ـ القراءة الأولى والحفظ الأولى ـ رفض مواصلة الذهاب إلى المكتب ـ لسوء معاملة الشيخ أبو خضر له ولباقي التلاميذ، ولما كان يفرضه عليهم من إتاوات!... وكما يقول علي مبارك: «.. إني، إلى الآن، راسخ في ذهني ما كان مرتبه على مؤدبي في صغري: أن آتي له بشيء من المنزل، فكنت أتحايل تحايل اللصوص حتى أختلسه وآتيه به! وإن امتنعت أو أتيت بأقل مما طلب توعدني أو ضربني! وكان أحياناً يعاملنا معاملة الخدم، فمنا من يخدم الزوجة فيملأ لها الزير ويكنس البيت

وينفض الحصير، ومنا من يخدمه، فهذا يهيء له غذاءه ويفليه! - [ينقى جسمه وملابسة من الهوام والحشرات!] - وهذا يملأ السبيل ويوضيه!، وهذا يدق له النشوق!، وهذا يجمع له النوى من السوق!، وهذا يجمع القوالح للقهوة، وهذا يكون بيده مفاتيح السهوه!. . . وهكذا. . .»[1].

وأمام رفض الصبي الذهاب إلى مكتب الشيخ أبو خضر، أخذ والده يشرف على تعليمه بنفسه. . ولكن مشاغله منعته من العناية به، فاستحوذ اللعب على أغلب وقته. . فلما تدارك والده الأمر، وأراد إعادته إلى المكتب، رفض بعناد، وهدد بالهرب إن هم أجبروه على العودة إلى الشيخ أبو خضر من جديد!.

ثم. . سرعان ما تحول هذا الرفض العنيد إلى رفض الطريق الذي أراده له والده بالكلية. . فهو لا يريد أن يصبح فقيهاً كالشيخ أبو عسر أو الشيخ أبو خضر. . وإنما يريد أن يكون «كاتباً» ديوانياً. . يمارس الكتابة في دوائر الزراعة بجهاز الدولة الذي قام بمصر في ذلك الحين. . . فبدأت نفسه منذ تلك السن، تتطلع إلى جهاز الدولة ورجالاتها، بادئة من أول السلم. . وبعبارته: فلقد رغبت أن أكون «كاتباً. . لما كنت أرى للكتاب من حسن الهيئة، والهيبة، والقرب من الحكام!»[2].

وأمام تهديد الصبي بالهرب، نزل الوالد على رغبته. . فأرسله

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٤٧٨.

(٢) [الخطط] ترجمته الذاتية. . في الحديث عن «برنبال».

إلى صديق له يشغل وظيفة «كاتب قسم» في بلدة «الإضوة»[1] كي يعلمه فن الكُتّاب.

ولكن هذا «الكاتب» لم يكن يفضل الشيخ أبو خضر إلا قليلاً.. صحيح أنه «حسن الهيئة، نظيف الثياب، جميل الخط..» ولكن فقره، وتعدد زوجاته - (ثلاثة) - وكثرة عياله، أورثه فقراً، مما جعل النفقات التي كان الشيخ مبارك يبعث بها مع ابنه، تذوب في محيط المنزل الفقيرا.. فكان الفتى يبيت جائعاً أغلب الأيام!.. وزاد الأمر سوءاً افتقاره إلى الأهتمام في التعليم.. فكان «الكاتب» يعلمه بالمنزل، أمام النساء.. أما عند الخروج للعمل فلم يكن يستفيد شيئاً، بل كان دوره قاصراً على خدمة «الكاتب» في هذه «السرحات»!

ولما أحس «الكاتب» عدم رضاه، أخذ يسيء معاملته، ويضربه، حتى لقد شج رأسه يوماً عندما ضربه بمقلاة البن!... فاشتكى الفتى لأبيه.. فلم يسمع لشكواه.. فرفض الذهاب إلى «الكاتب»، كما رفض من قبل مكتب الشيخ أبو خضر، فأغلظ له أبوه القول، وأراد قسره على الذهاب.. فغافل الأسرة والكاتب معاً، وهرب منهما إلى بلدة «المطرية»[2].. حيث تقيم إحدى خالاته هناك!..

---

(١) من قرى مركز فاقوس، شرقية، كانت من توابع الصالحية، ثم أصبحت ناحية قائمة بذاتها سنة ٩٣٣ هـ سنة ١٥٢٧م.

(٢) بمركز المنزلة، وكانت تتبع مركز دكرنس حتى سنة ١٩٢٩م. وهي في محافظة الدقهلية.

وفي الطريق إلى «المطرية» ظهرت عليه أعراض مرض الكوليرا - (الريح الأصفر) -، فخارت قواه على الطريق، فعثر عليه رجل لا يعرفه من أهل بلدة «صان الحجر»[1]، فأخذه إلى منزله، دون أن يعرف اسمه، وعندما تماثل للشفاء، بعد أربعين يوماً، سألوه عن أهله، فأنكر أن له أهلاً، وقال لهم: إنه يتيم، حتى لا يعود، ثانية، إلى «الكاتب» أو إلى «الكتاب»!

وكان والده، بصحبة أحد إخوته، يجدون في البحث عنه بمختلف القرى، وعندما اهتدوا إليه، وأبصرهم، فر منهم، وهرب إلى قرية «منية طريف»[2].. وهناك أقام قليلاً عند رجل من الأعراب.. ثم هرب منه هو الآخر، وعاد إلى بلدته «برنبال»، ولكنه لم يذهب إلى منزل والده، بل أقام لدى أحد إخوته لأبيه.. وبعد أيام عاد أخوه الذي كان يبحث عنه، فذهب إليه، وأعاده - بالحيلة والتلطف - إلى منزل أبيه!..

وأشكل أمر الفتى على أسرته، وعميت عليهم السبل في تربيته.. فعرضوا عليه أسماء الفقهاء، وأسماء الكتاب، فوفضهم جميعاً.. لأن الفقهاء ليس عندهم سوى الضرب.. والكتاب لا يناله منهم سوى الأذى، وفرض الخدمة، وتحصيل الضياع!

---

(١) من قرى مركز فاقوس، محافظة الشرقية، وهي من القرى القديمة، كان اسمها صان، وصاني، وفي العصر العثماني أضيف إليها اسم الحجر، لما فيها من أحجار المعابد المصرية القديمة.

(٢) من قرى مركز دكرنس، دقهلية، وهي من القرى القديمة.

وبعد جهد.. قبل الفتى الالتحاق بأحد أصدقاء والده من «كتبة المساحة» الذين يقيسون الأرض ويمسحونها، كي يتعلم حرفته.. وطابت له عشرة «كاتب المساحة» هذا، لما كان يناله من قروش تأتي الكاتب من الرشا والهبات التي يدفعها الفلاحون... ولكن مقامه الطيب هذا لم يدم أكثر من ثلاثة أشهر، إذ طرده «كاتب المساحة» لأنه أفشى أسرار الرشاوى التي يحصل عليها من الفلاحين!.. فعاد مرة أخرى إلى منزل الأسرة.

ولم يجد الوالد مندوحة عن أن يتولى بنفسه تعليم ولده، فأخذ يرعى قراءته، ويستعين به في إنجاز «المهام الكتابية والحسابية» التي كان عليه أن ينهض بها في تحصيل الأموال الأميرية من الأعراب.. وهو عمل كان قد عهد به إليه، علاوة على عمل «الفقيه»..

ومضى عام، هدأت فيه نفس الفتى، فقبل نصيحة أبيه أن يذهب مساعداً لكاتب الزراعة في «مأمورية أبو كبير»[1].. وهناك زاول عمله في «تبييض الدفاتر» لقاء وعد براتب شهري قدره خمسون قرشاً.. ولكن تجربته المرة مع «كاتب قسم الإضوة» تكررت مرة أخرى.. فلم يحصل على راتبه، وساءت حاله، وخلقت ثيابه، فما كان منه إلا أن اقتطع راتبه بنفسه عندما ناب يوماً عن الكاتب في تحصيل النقود من «أبو كبير»، وقدم المتبقى،

---

(١) من قرى مركز كفر صقر، شرقية، وهي قرية قديمة، كانت قاعدة مركز يحمل اسمها من سنة ١٨٢٨م حتى سنة ١٨٧٥م.

مع بيان، في كيس إلى الكاتب الذي اغتاظ غيظاً شديداً، وأسرها في نفسه، يتحين فرصة الانتقام!..

وكانت قد مضت على الفتى، في عمله هذا، ثلاثة أشهر، عندما جاءه انتقام الكاتب قاسياً وخبيثاً.. فلقد اتفق الكاتب مع مأمور «أبو كبير» ـ عبد العال أبو سالم على الإيقاع بالفتى، وتصادف أن كانت الشرطة تبحث عن شاب هارب من الجندية، فقررا تسليمه للشرطة بدلاً من ذلك الهارب، على أنه هو!.. وساقوه إلى سجن «أبو كبير» بمحض رغبته، عندما طلبا منه الذهاب إلى السجن بحجة كتابة أسماء المساجين، حتى إذا دخل السجن فإذا ببابه يغلق دونه، وإذا بالحديد يوضع في عنقه! ليتحول إلى سجين، يعاشر الأشقياء والسفهاء، وينتظر الترحيل إلى حيث تطبق عليه عقوبة الهاربين من حمل السلاح!..

وفي السجن قضى صاحبنا أكثر من عشرين يوماً.. قضاها يبكي حتى رق لحاله قلب السجان!.. فناداه، وقربه من باب السجن، واستمع إلى قصته، ونال منه بعض النقود التي كان قد احتجزها من الكاتب!.. فأوصل خبر سجنه إلى والده في «برنبال»... وكان محمد علي باشا يزور «منيه القمح»[1] في تلك الأيام، فذهب الشيخ مبارك إليه، وتقدم بعريضه يشرح فيها

---

[1] قرية قديمة، هي الآن عاصمة مركز منية القمح، أصبحت مركزاً سنة ١٨٧٥م. وهي في محافظة الشرقية.

حال ولده والكيد الذي دبره ضده الكاتب والمأمور. . فأمر الوالي بإخلاء سبيله. .

وبينما كان الشيخ مبارك في طريقه إلى «أبو كبير» حاملاً أمر الوالي بإخلاء سبيل ابنه، حضر لزيارة السجان بالسجن صديق له يعمل بمأمورية زراعة القطن في «أبو كبير»، وأخبره أن المأمور يبحث عن كاتب حسن الخط كي يعمل بالمأمورية بمرتب حسن، فرشح السجان علي مبارك لهذا العمل، وزكاه، وناداه فكتب ورقة بخطه كي تعرض على المأمور، وحمل الرجل الورقة إلى المأمور، بعد أن منحه علي مبارك قطعة نقود ذهبية ـ «غازى ذهب قيمته عشرون قرشاً»!. . فأعجب المأمور بخطه. . وصدر الأمر بإخلاء سبيله، فغادر السجن لمقابلة المأمور. .

ودهش علي مبارك عندما دخل مكتب المأمور ـ عنبر أفندي ـ فرآه عبداً حبشياً شديد السواد، ومع ذلك فهو حاكم في بلد كان الحكم فيه حكراً على الشراكسة والأتراك!. . وأكثر من هذا، فإن عنبر أفندي مهيب. . وفصيح!. . يجلس إلى مكتبه، وبين يديه قد وقف أعيان الاقليم و«مشايخ» النواحي وحكام البلاد وعمدها، يحدثهم فيسمعون، ويأمرهم فيطيعون. . بل ويقبلون يديه!. . فأدرك علي مبارك، من هذا المشهد، أنه بإزاء سر عجيب وغريب، جعل العبد حاكماً مطاعاً في مجتمع حكامه الأتراك، وخلق من عنبر أفندي انساناً فصيحاً ومؤدباً ومهيباً. . إنه أمام «حاكم» حقيقي، لا كأولئك «الكتاب» الذين ظنهم يوماً

«حكاماً» فاشتقاق لحرفتهم، مقدماً إياها على وظيفة الفقيه!..
ومنذ تلك اللحظة قرر أن يبحث حتى يستجلي ذلك السر..
فمن يدري، ربما لو عرفه، لسلك هو الآخر ذلك الطريق الذي جعل العبد الحبشي من الحكام.. فما جاز «للحبشي» أن يستحيل على «الفلاح».. المهم أن يعرف السر، ويسلك الطريق!..

وبعد أن انصرف عمد النواحي ومشايخها وأعيانها من بين يدي عنبر أفندي، التفت إلى صاحبنا، فلاطفه في الكلام، وعرض عليه وظيفه «الكاتب» لقاء نفقات أكله اليومي - (الجراية) - وخمسة وسبعين قرشاً شهرياً، فوافق.. ثم انصرف إلى حيث خدم عنبر أفندي، كي يعيش بينهم، وكله عزم ولهفة على أن يستجلي منهم سر وصول مخدومهم إلى ما هو فيه..

وفي اليوم التالي وصل الشيخ مبارك، حاملاً أمر الإفراج عن ولده، فوجده قد أخليت سبيله وأصبح كاتباً لدى عنبر أفندي.. وأكرم المأمور لقاء الشيخ، وعرض عليه ما انتهى إليه الأمر، فوافق الشيخ على ذلك مسروراً.. وبات الشيخ مع ولده تلك الليلة، ودار بينهما حوار حاول به الفتى أن يعرف من والده سر عنبر أفندي، فسأله:

- هذا المأمور ليس من الأتراك، لأنه أسود!
- إنه يمكن أن يكون عبداً عتيقاً..
- وهل يكون العبد حاكماً؟!.. مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكاماً! فضلاً عن العبيد؟!..

ـ لعل سبب ذلك مكارم أخلاقه ومعرفته؟..

ـ وما معرفته؟..

ـ لعله جاور بالأزهر وتعلم فيه!..

ـ وهل العلم في الأزهر يؤدي إلى أن يكون الانسان حاكماً؟!..

ـ يا ولدي! كلنا عبيد الله، والله تعالى يرفع من يشاء!

ـ كل هذا، يا والدي، مسلم.. **لكن الأسباب لا بد منها؟!..**

ثم أدركهما النوم.. دون أن يصلا إلى الأسباب التي لا بد منها!.. رغم الأشعار والحكايات الكثيرة التي ألقاها الشيخ على مسامع ولده تفسيراً لظاهرة «عنبر أفندي» هذه!..

وبعد يومين عاد الشيخ مبارك إلى «برنبال».. واستعان الفتى على الوصول إلى سر عنبر أفندي بخادمه الخاص ـ [الفراش] ـ **فإذا «المدرسة» هي السر الذي انتقل بالعبد الحبشي الأسود من قاع مجتمع العبيد إلى صفوف السادة الحكام!..**

فعنبر أفندي قد نشأ عبداً رقيقاً.. اشترته سيدة من «الستات الكبار، مرعيات الخواطر»! ثم أدخلته «مدرسة قصر العين»[1]

---

(١) هي مدرسة الجهادية بالقصر العيني. أفتتحت في يوليو سنة ١٨٢٥م. انظر جدول المدارس الحربية التي انشئت في عهد محمد علي بكتاب [التعليم في مصر] لأمين سامي. ص ٥٠ من الملحق الخاص بمدارس محمد علي طبعة القاهرة سنة ١٩١٧م.

عند افتتاحها، ولم يكن يقبل على هذا اللون من التعليم أحد من المصريين، فالعلم عندهم والتعليم في الأزهر وحده، ومن ثم فلم يجد الوالي غير العبيد يتخذ من بينهم أغلب تلاميذ هذه المدرسة الجديدة. . التي تعلم فيها عنبر أفندي الخط والحساب والعربية والتركية. . إلى آخر العلوم التي تؤهل المرء كي يكون حاكماً من الحكام! . . .

إذن: لقد اكتشف السر، وأبصر حبل النجاه. . النجاة من مصير الذين أوقعتهم حظوظهم في أيدي شيوخ من أمثال «أبو العسر» و«أبو خضر»، وكتاب من نوعية: كاتب الاضوة، وكاتب أبو كبير. . بل والنجاة من الوقوع مرة أخرى سجيناً، وقد لا يجد يومها «عنبر أفندي» آخر ينقذه من القيود! . .

وسأل علي مبارك فراش عنبر أفندي:

ـ وهل يدخل المدارس أحد من الفلاحين؟!

ـ يدخلها صاحب الواسطة!

فزاد اشتغال باله أكثر وأكثر. . ثم أخذ يجمع المعلومات الدقيقة عن «القصر العيني» ومدرسته، وعن الطريق إليها، وأسماء البلاد والمعالم الواقعة على الطريق من «أبو كبير» إلى هناك! . . وعن السبيل إلى الوصول، وكيفية الإقامة بعد الوصول. وأخذ يدون، كتابة، كل ما يصل إلى سمعه من المعلومات! . . وزادت بذلك أشواقه إلى تحقيق حلمه الجديد. . . أن يدخل مدرسة القصر العين، كي يحصل على حريته وانعتاقه

من المشاق التي عاشها، كما انعتق عنبر أفندي من سلك الأرقاء! . .

وقرر علي مبارك أن يسعى إلى القاهرة، سيراً على الأقدام، كي يحقق حلمه في دخول مدرسة القصر العيني. . فطلب من عنبر أفندي إجازة من العمل، بحجة أنه يرغب في زيارة أهله في «برنبال»، فأذن له بخمسة عشر يوماً، فسافر، مهتدياً بمعالم الطريق التي دونها. . وفي يوم سبت وصل إلى قرية «بني عياض»[1]. . وهناك وجد جمعاً من الفتية الصغار قد لجأوا إلى ظل شجرة من الأشجار، يقودهم رجل خياط. . فانضم إليهم، يأتنس ويستريح. . فوجد مع كل واحد منهم دواته وأقلامه. . فهم إذن تلاميذ في «مكتب». . وأخبروه أن مكتبهم في قرية «منية العز»[2]، فتفاءل واستبشر بالاسم الذي سمعه وهو يسعى على دربه الجديد! . .

---

(١) من القرى القديمة، تتبع مركز ههيا، بمحافظة الشرقية.

(٢) انشىء مكتب «منية العز» في فبراير سنة ١٨٣٧م (ذي القعدة سنة ١٢٥٢ هـ). . وكان ناظره الشيخ محمد البغدادي. . وأغلق هذا المكتب في أكتوبر سنة ١٨٤١م (رمضان سنة ١٢٥٧ هـ). . وكان ـ مع أمثاله ـ بمثابة مدرسة أولية نظامية تؤهل التلاميذ للالتحاق بالمدارس الخاصة ـ (المتوسطة) ـ انظر: أمين سامي [التعليم في مصر] الملحق (ثالثاً) ص ٣٩ طبعة القاهرة سنة ١٩١٧م.

ومنية العز ـ أو ميت العز ـ من القرى القديمة، وهي تابعة لمركز فاقوس، محافظة الشرقية.

ولما علم الصبية منه أنه يقرأ ويكتب، استكتبوه سطوراً كي يقارنوا خطه بخطوطهم، فوجدوه متفوقاً عليهم، فقال أحدهم لآخر: «لو لحق هذا بالمكتب لكان جاويشاً! . . فطرقت سمعه، للمرة الأولى، كلمة «جاويش المكتب»! . . ولكن دهشته ازدادت وآماله نمت عندما سمع تعليق الخياط: «كلا! ذلك قليل عليه، فإن خط الباشجاويش الذي عندنا لا يساوي هذا الخط»! . . وبعد استفسارات وإجابات، علم أن مكتب «منية العز»، لأنه مدرسة أولية نظامية فالرتب فيه عسكرية ـ ككل الرتب في مصر يومئذ! ـ وإن الجاويش والباشجاويش مصطلحات حلت محل «العريف» وقائد العرفاء في «مكاتب» الأهلين. . . وبعد استفسارات أكثر وإجابات جديده أدرك أن طريقه إلى مدرسة القصر العيني سيمر عبر مكتب «منية العز»، فلقد أخبره الخياط أن نجباء تلاميذ المكاتب يدخلون المدارس دون حاجة إلى واسطة! . . فانضم إلى هؤلاء الفتية الصغار، ودخل معهم إلى المكتب. . وكان ناظر المكتب واحداً من معارف أبيه! فحاول أن يثنيه عن رغبة الانتظام فيه، فأصر على الانتظام والالتحاق، وهدد الناظر بالإبلاغ عنه إن هو حال دونه ودون التعليم النظامي. . فسكت الناظر، ولكنه بعث بخبره، سراً، إلى والده في برنبال. .

وبعد خمسة عشر يوماً من التحاقه بمكتب «منية العز» حضر إليه والده هناك. . وضم جهوده إلى جهود الناظر يحاولان إثناءه عن هذا الطريق المجهول، الذي ينتزعه من أهله وإخوته إلى لون

من التعليم غير مألوف.. ولكنه رفض توسلات والده وأعرض عن نصائحه.. فدبر والده، مستعيناً بصديقه الناظر، خطة لاختطافه أثناء استراحة الغداء، ظهراً، وهو خارج المكتب، وعاد به إلى برنبال، حيث حبسه بالمنزل عشرة أيام!.. واستعان والده على إثنائه عن مشروعه، بدموع أمه واستعطاف اخوته البنات، كي لا يبتعد عن الأسرة ولا يشذ عن مألوف الآباء والأجداد!

ولم يجد الفتى بداً من أن يعدهم بالاستجابة لما يريدون حتى يطلقوا سراحه من حبسه.. وإمعاناً منهم في الحرص على قربه منهم، استبقوه معهم في برنبال، يرعى غنيمات كانت لهم!.. وفي الوقت الذي ظنوا فيه أنه قد برىء من فكرة المدرسة، كانت الفكرة تزداد في عقله اختماراً، والرغبة إليها تزداد في قلبه اشتعالاً.. حتى إذا ناموا جميعاً، في ليلة من الليالي المقمرة، ظل وحده ساهراً، متظاهراً بالنوم.. ثم نهض متسللاً من بينهم وأخذ دواته وأدواته، وغادر المنزل، خائفاً يترقب، فقضى بقية الليل سائراً على قدميه، حتى دخل «منية العز» وقت الضحى، وفوجىء به الناظر بين الأطفال في داخل المكتب!..

وقرر الفتى أن لا يغادر المكتب ليلاً أو نهاراً، حتى لا يتمكن والده من اختطافه مرة أخرى.. ولما عاد إليه والده كي يثنيه عن عزمه لم تفلح المحاولات!..

وسافر من القاهرة عصمت أفندي، ناظر مكتب «الخانقاة»:

إلى «منية العز» كي يختار نجباء تلاميذ مكتبها، ليلتحقوا بمدرسة القصر العيني. . فكان علي مبارك واحداً من المختارين! . . ولكن والده حضر، والتقى بعصمت أفندي، ورجاه أن يترك له ولده، فترك عصمت أفندي الأمر للفتى كي يختار، فاختار المدرسة، ولم يثنه عن عزمه هذا بكاء والده، ولا استعطاف الناظر والمعلمين الذين استعان بهم أبوه كي يقنعوه. .

فسافر الفتى إلى القاهرة، ودخل مدرسة القصر العيني، وكان ذلك اخر عهده بالإقامة مع أسرته في برنبال. **وكان صاحبنا بموقفه هذا، الجديد على تقاليد الأسرة، والغريب عن مسلك الآباء والأجداد الذين احترفوا «التفقه» في حدود القرية. . كان التعبير عن مصر الحديثة التي أخذت، من خلال المصاعب والمشاق، تغير من نظرتها وتقييمها للحرف والصنائع والوظائف والعلوم، وتدرك، وهي تبني مجتمعاً مدنياً جديداً، أن شرف العلوم والصنائع مرتبط بشرف المقاصد والغايات التي تحققها هذه الحرف والعلوم للإنسان، في حياته الدنيا أيضاً، وليس فقط في الدار الآخرة كما كان الحال في مصر المملوكية العثمانية لدى الشيوخ والفقهاء!** . .

وهذا الموقف الجديد، هو الذي يسوقه علي مبارك، فيما بعد، على لسان أحد أبطال روايته [علم الدين] ـ برهان الدين ـ عندما يقول: «إني أرى بين أصحاب الوظائف الميرية رتباً عالية، ولها مرتبات كافية وافية، وليس في ما يذم، فإن جميع تلك الوظائف

منوطة بخدمة الأهالي وإعانتهم على حفظ حقوقهم، فمنهم من وظيفته إصلاح الزراعة وري الأراضي، ومنهم من هو محافظ على صحتهم.. وآخرون لسماع دعاويهم والحكم بينهم.. ولكل من أصحاب هذه الوظائف مرتبات.. فهم في أمن على معيشة عيالهم... **فإن كنت أختار صناعة لم أعد صنائع هذه الجماعة!...**[1].

- ٣ -

دخل علي مبارك مدرسة الجهادية بالقصر العيني وهو في الثانية عشرة من عمره [سنة ١٨٣٥ م - سنة ١٢٥١ هـ].. وكان مدرس فرقته يسمى: برعي أفندي!..

ولكن خيبة أمل كبرى أصابت الفتى منذ الأيام الأولى لانخراطه في سلك هذه المدرسة الجديدة.. فالنظام العسكري كان يحكم قواعد الحياة فيها.. وهي مدرسة داخلية لا تدع أية فرصة لتلاميذها كي يفلتوا أو يستريحوا من هذا النظام الذي لم يتعودوه، وهم بعد في سن صغيرة، ومن بيئات لم تألف النظام، فضلاً عن أن يكون هذا النظام نظاماً عسكرياً صارماً.. كما أن حداثة هذه المدرسة قد أضافت إلى عيوبها آفات أخرى، فلا تقاليد راسخة، ولا وضوح في الوظائف، ولا تحديد في الواجبات...

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول ص ٥٠٠، ٥٠١.

وكان التدرب على «المشي العسكري»، صباحاً، وظهراً، وبعد الأكل، وفي أماكن النوم، هـو جل اعتنـاء المدرسة والمدرسين! كما كان الضرب والسب والإهانة أموراً شائعة، كثيرة الحدوث من المدرسين للطلاب، دون حرج أو حساب!.. والإهمال في الأكل ظاهر للعيان، يترك آثاره على الصحة في سرعة وضوح. وأماكن النوم دونها خشونة أماكنه التي اعتادها الفتى في برنبال. يفترشون حصر الحلفاء، ويلتحفون «بأحرمة الصوف» الخشنة التي تصنعها «فاوريقة بولاق»!.. فتراجعت صحة الفتى مع تدهور آماله في المدرسة التي علق عليها مستقبله، خاض في سبيلها المغامرات.. فتكاثرت عليه العلل والأمراض ـ ومنها الجرب! ـ فأدخلوه المستشفى.. وهناك وجد من الجوع والإهمال أضعاف ما وجد بالمدرسة حتى كان يمص عظام اللحم التي يلقيها المرضى المقتدرون والمحظوظون!.. وحتى أشرف على الهلاك، ويئس من شفائه المعالجون!..

وحضر والده إليه، يسعى لإنقاذه والعودة به إلى برنبال، ولكن النظام العسكري للمدرسة، ومن ثم المستشفى، حال بين الوالد وبين ولده، فلم يمكنوه حتى من زيارته!.. فلم يجد سوى الرشوة سبيلاً يستعين بها لإنجاز ما يريد، فاتفق مع أحد الممرضين على تهريبه من المستشفى في مقابل «خمسين محبوباً من الذهب»[1]!..

---

(١) المحبوب الذهب يساوي أقل قليلاً من ثلاثة عشر قرشاً. انظر: أحمديك الحسين [بهجة المشتاق في بيان حكم زكاة اموال الأوراق] ص ١٢١. طبعة القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ.

فكسر الممرض حديد النافذة، وأنبأ المريض أن والده ينتظره خلف النافذة، وطلب منه الفرار. . . ومالت نفس الفتى للهرب تخلصاً من المأساة التي وقع فيها، ولكنه عاد فتذكر العقوبات القاسية المقررة على التلاميذ الهاربين. . وهي عقوبات تتعدى الهارب إلى أهله وذويه، وتشمل، ضمن ما تشمل، قيود الحديد، والسجن، ومختلف ألوان الإهانات!. . فآثر البقاء في المأساة القائمة والمعلومة، على مواجهة المآسي التي تستتبع الهروب. . فرفض الهرب، ولم تفلح معه إغراءات الممرض الحريص على قبض الخمسين محبوباً الذهبية!. .

ثم إن والده قد نجح في دخول المستشفى لزيارته. . وهناك بكيا معاً طويلاً!. . وطلب الفتى من والده أن يدعو له بالتوفيق في التغلب على صعاب طريقه الجديد. . . ثم غادر الشيخ المستشفى، وودع ولده، ولسان الحال - كما يذكر الابن - يقول:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه   يكون وراءه فرج قريب!

وشاء الله أن يسترد الفتى صحته، فعاد إلى مدرسته ودروسه من جديد. .

وفي يناير سنة ١٨٣٧ م (شوال سنة ١٢٥٢ هـ) ألغيت مدرسة الجهادية من القصر العيني، واختصت مدرسة الطب بهذا المكان. . وانتقل علي مبارك مع تلاميذ المدرسة الملغاة إلى المدرسة التجهيزية بأبي زعبل[١]. . وكان نظام التعليم بها أحسن حالاً وأكثر تقدماً وتشويقاً من مدرسة القصر العيني. . وكان ناظرها

(١) وهي التي انشئت في اكتوبر سنة ١٨٣٦م.

إبراهيم أفندي رأفت - [إبراهيم بك، فيما بعد]. . .

ولكن خُطا علي مبارك التعليمية تعثرت في مدرسة أبي زعبل، لأن مدرس الهندسة لم يكن يشرح لتلاميذه ماذا تعنى المصطلاحات والرموز التي تطلق على الأشكال والرسوم، فغدت هذه الرموز «طلاسماً» وأصبح «كلام المعلمين فيها ككلام السحرة»! - كما يقول -. . وتكرر رسوبه وتخلفه، بسبب مادة الهندسة، سنوات ثلاث. . حتى كان عام ١٨٣٩ م [سنة ١٢٥٥ هـ]، عندما جمع ناظر المدرسة، إبراهيم بك رأفت، التلامذة المتخلفين، وكون منهم فرقة خاصة، تولى بنفسه تدريس الهندسة لها، بطريقة جيدة وجديدة، شرحت المصطلحات، وربطت العلم بالتطبيق. . فلما جاء الامتحان كان علي مبارك أول نجباء هذه الفرقة، في الهندسة، بعد أن كان آخر التلاميذ المتخلفين الراسبين! وأصبح مثلاً يضرب في المدرسة على أهمية طريقة التدريس ودورها في إحداث التحولات وإحراز النتائج في العملية التعليمية. . وإن كان قد ظل ضعيفاً في مادة النحو، لبقاء طريقة تدريسه عقيمة دون تغيير. .

وبعد هذه السنوات الثلاث في مدرسة أبي زعبل اختير علي مبارك، ضمن الأوائل المختارين، للإلتحاق بمدرسة عليا، هي مدرسة المهندسخانة في بولاق[1] [سنة ١٨٣٩ م سنة

---

(١) تأسست هذه المدرسة العليا في مايو سنة ١٨٣٤ م، كامتداد وبديل لمدرسة الهندسة التي تأسست بالقلعة في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٢٠م (٤ ذي الحجة سنة ١٢٣٥ هـ).

١٢٥٥ هـ]. . وكان ناظرها مهندس فرنسي هو: يوسف لامبير بك[1]. .

وفي المهندسخانة درس علي مبارك الجبر على يدي: طائل أفندي، ومحمد بك أبو سن. . كما درس الميكانيكا، والديناميكا، وتركيب الآلات، على طائل أفندي. . ودرس حساب التفاضل، والفلك، على يدِ: محمود باشا الفلكي. . ودرس علم الأدروليك - [تطبيق قوانين السوائل على الآلات] - على: دقله أفندي. . والطبوغرافية - [مساحة الأراضي] - والثرورزيه - [النظرى] - على: إبراهيم أفندي رمضان. . والكيمياء، والطبيعة، والمعادن، والجيولوجية، وحساب الآلات على: أحمد بك فايد. . والهندسة الوصفية، وقطع الأحجار، وقطع الأخشاب والفوسموغرافية - [علم هيئة الدنيا] -، والظل، والنظر، على: إبراهيم أفندي رمضان، وسلامة باشا. .

وأعانت مطبعة الحجر طلاب المدرسة على دراستهم، فأمدتهم بالخرائط والرسوم والأشكال. .

وقضى علي مبارك سنوات دراسته الخمس في [المهندسخانة] أول فرقته - [القلفة] - باستمرار حتى تخرج منها سنة ١٨٤٤ م (سنة ١٢٦٠ هـ). .

---

(١) تولى نظارتها من سبتمبر سنة ١٨٣٨م.

- ٤ -

ظلت مصر تقاوم، تحت قيادة محمد علي، ضغوط الحلف الاستعماري الذي تزعمه ضدها الانجليز والأتراك العثمانيون، حتى بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م، وتقلص الجيش المصري في سنة ١٨٤١ م.. وإن كانت قد اتخذت طرقاً غير مباشرة لمقاومة هذه الضغوط وما نجحت في فرضه من آثار...

وكانت البعثة التعليمية التي ذهب فيها علي مبارك إلى فرنسا [سنة ١٨٤٤ م سنة ١٢٦٠ هـ] صورة من صور المقاومة هذه... فهي بعثة عسكرية، ذهبت لدراسة فنون الحرب، في فرنسا، التي كانت لا تزال على وداد نسبي مع نظام محمد علي. وكانت بالنسبة له ولقائد جيشه إبراهيم باشا [١٧٨٩ - ١٨٤٨ م]: بلاد الحرية «ومنبع الأنوار»[١]...

ولقد بلغ مجموع طلاب هذه البعثة ٧٠ طالباً... ذهبوا إلى باريس على دفعات، وكان الفوج الأول ـ وفيه علي مبارك ـ مؤلفاً من تسع وثلاثين دارساً، اختارهم أركان الحرب سليمان باشا الفرنساوي، وانتخبهم من نجباء «الطوبجية والسواري والبياده» ومتقدمي خريجي المهندسخانة، وعدد من نجباء المعلمين..

(١) من خطاب ابراهيم باشا إلى وزير الحربية الفرنسي في ١٨ أغسطس سنة ١٨٤٦م (٢٥ شعبان سنة ١٢٦٢ هـ). انظر: عمر طوسون [البعثات العلمية في عهد محمد علي، ثم في عهدي عباس الأول وسعيد] ص ٣٧٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤ م.

وضمت هذه البعثة التي سافرت في أكتوبر سنة ١٨٤٤ م أربعة من أمراء بيت محمد علي: ولداه: حسين بك، وحليم بك، وحفيداه ـ ولدى إبراهيم باشا ـ: أحمد بك، واسماعيل بك ـ [الخديوي إسماعيل فيما بعد] ـ. . ولذلك عرفت بين البعثات باسم «بعثة الأنجال»! . . وكانت البعثة الثالثة من بعثات محمد علي إلى فرنسا، ورابع البعثات إلى القارة الأوربية. . وشيخها وإمام طلابها ـ في الدين ـ العالم اللغوي الشيخ نصر أبو الوفا [المتوفى سنة ١٨٧٤ م]. . ومديرها: أصطفان بك، ومساعده خليل أفندي. . وهما أرمنيان تعلما تعليماً عالياً. . وحضر أولهما بعثة سنة ١٨٢٦ م ـ [التي ضمت رفاعة الطهطاوي] ـ.

ولقد أنشأت مصر لهذه البعثة مدرسة حربية خاصة بباريس، هي [المدرسة المصرية الحربية بباريس][1]، وهي مدرسة تحضيرية تعد خريجيها بعد ثلاث سنوات ـ هي مدة الدراسة فيها ـ للإلتحاق بالمدارس الحربية الفرنسية العليا ـ [الكليات] ـ. . أما ناظر المدرسة فهو أمير الالاي مسيو بوانسو [Poincot] وكان من ضباط فرنسا الذين خاضوا حروبها الثلاث في ذلك العصر، وامتدت خدمته بجيشها ستا وثلاثين سنة. . وكان الإشراف العام

---

(١) يخطىء أحمد امين في [زعماء الاصلاح] ص ١٩٣، ١٩٤ فيحسب هذا المكان دار سكنى للطلبة، تدار إدارة عسكرية. . والحقيقة أنها مدرسة عسكرية داخلية.

عليها لوزير الحرب الفرنسي الماريشال دوق دي دالماسي [Duc de Dalmathie] الذي كان في ذات الوقت رئيساً للوزراء.. ولقد شارك في وضع نظام هذه المدرسة، مع ناظرها، ومدير البعثة مسيو جومار [Jomard] [١٧٧٧ - ١٨٦٢ م] عالم الحملة الفرنسية، وصديق مصر، والمشرف الفخري والفني علي بعثاتها إلى باريس.. وصدق محمد علي على هذا النظام في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٤٤ م.. على حين بدأت الدراسة في هذه المدرسة، للدفعة الأولى من بعثتها، في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٤٤ م..

كانت مدرسة عسكرية داخلية، محظور أن تدخلها المواد الغذائية الخاصة، أو النبيذ والمشروبات الروحية الأخرى، أو المواد الكيماوية، ولا بد من إذن خاص لإدخال الكتب والصور والرسوم، أما لعب الورق والنرد وما ماثلهما فممنوع.. وهناك فسحتان أسبوعياً: الأحد من العاشرة صباحاً حتى العاشرة مساءً، والخميس من منتصف الثالثة مساءً حتى العاشرة مساءً، وكانت الأماكن العامة والمسارح من بين مواطن الزيارة في فترات التنزه يومي الأحد والخميس.. أما العطلة السنوية فكانت شهراً يقضيه الطلبة بين تمرينات عسكرية وتطبيقات عملية في الضواحي والأماكن الخلوية وما بين زيارة المعالم والمنشآت الهامة في عموم فرنسا..

ولأن البعثة كانت تضم عدداً من الأمراء.. وعدداً من أبناء الحكام - البكوات - ونفراً من أبناء الشعب - الأفندية - فلقد

جعلهم مديرها طبقات في غرف النوم، والطعام، والملابس، والخدم.. لكن محمد علي أصدر أمره في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٤٤ م إلى ناظر المدرسة بضرورة المساواة التامة بين أفراد البعثة في كل الأمور المعيشية والتعليمية!..

ومن بين العلوم التي درسها طلاب هذه المدرسة ـ غير اللغة الفرنسية ـ: علوم الرياضة، والجغرافيا، والتاريخ، والرسم، والطبوغرافيا، والمذاكرة، والجندية، والمسابقة ـ [اللعب بالسيف] ـ، والعلوم العسكرية، والرياضة البدنية، راستعمال السلاح الأبيض، والخط، والتحصينات، والمدفعية، والهندسة الوصفية، وهندسة الاستحكامات.. الخ... الخ... كما كانوا يتمرنون على عمل الرسوم الطبوغرافية لحقول الضواحي في أيام العطلات... وكانت الامتحانات تعقد للطلاب كل ثلاثة أشهر، ويقدم ناظر المدرسة تقريراً عنها إلى ناظر ـ [وزير] ـ الخارجية المصرية ـ أرتين بك ـ، الذي يبلغه بدوره إلى محمد علي.. كما كان وزير الحربية الفرنسية يتلقى تقريراً عن سير الدراسة والنظام بالمدرسة، من ناظرها، كل خمسة عشر يوماً!

ولقد أتيحت لطلاب هذه البعثة، في أيام العطلات، فرصة الزيارة لعدد من معالم فرنسا الحضارية ومنشآتها الكبرى، مثل: متحف الأسلحة، ومتحف التاريخ الطبيعي، وقصر التو يلليري [Châleou des Tuilleries] ومستشفى دوفال دي جراس [hôpital duval de grâce]، ورصيف بيلي، وملجأ العجزة الملي، ومركز كلامار وساتيلون.. ومعهد سيفر [Sêvres]، ومعهد الفنون

والصنائع [Conservatoire des arte et métiers]، والمطبعة الملكية [Imprimerie Royal]، ومعهـــد العميـــان [Institution des Aveugles]، ومعهد الصم والبكم [Institution des Sourds and Muets]، ومعهد جابلان [Gubelin]، ومصنع التبغ، ومصنع سك النقود، والمرصد، وجبل فالير يان [mont valérien]. . . الخ. . . الخ. . .

ذهب علي مبارك ضمن طلبة هذه البعثة ليدرس فنون الحرب في هذه المدرسة، وسنه واحد وعشرون عاماً، بعد أن تخرج من المهندسخانة، وكان الأول على الناجحين فيها. . ولقد حاول ناظر المهندسخانة يومئذٍ يوسف لامبير بك إغراءه بالبقاء مدرساً بالمهندسخانة، فهنا سيحصل على «الرتبة» و «المرتب». . أما في البعثة فسيظل تلميذاً!. . واستعان الناظر على إغرائه بعدد من المعلمين. . ولكن علي مبارك رفض، وأصر على اختيار البعثة، لأنـه ـ لما يقـول: «رأيت الكثـير الآجـل خيـراً من القليـل العاجل!». . ذهب إلى باريس، وخلف وراءه الأسرة الفقيرة في برنبال. . ولكنه لم ينس واجب النبوة حيالها. . فمرتبه الشهري، لطالب بعثة، كان ٢٥٠ (مائتان وخمسون قرشاً) فاقتسمه بالسوية مع أسرته، لها ١٢٥ وله في باريس مثلها!. .

وكانت أولى المشكلات التي واجهته في دراسته الجديدة هي جهله باللغة الفرنسية، فهو وعديد من الذين تخصصوا في الرياضة أو اختيروا من الطوبجية والسوارى والبيادة لم يتعلموا الفرنسية من قبل، على حين كانت البعثة تضم عدداً من الذين

يتقنونها، بل وسبق لهم تدريسها. . ورغم هذا التفاوت كانت الدروس الصعبة في هذه العلوم المعقدة تلقى على الجميع باللغة الفرنسية وحدها!. . ولما اشتكى مع نفر من زملائه أنهم لا يفهمون، أحال المدرسون من لا يفهم على من يفهم!. . لكن الذين يفهمون قد ضنوا بمعرفتهم حتى يحتكروا وحدهم التفوق في الامتحانات!. . فأسقط في يد علي مبارك وأمثاله، ولما لم تستجب إدارة المدرسة العسكرية لشكواهم، أعلنوا الإضراب عن تلقي الدروس، فوضعوا في السجن، وأبلغ أمرهم إلى محمد علي، الذي أرسل إليهم يهددهم بالإعادة إلى مصر إن لم يمتثلوا لما به يؤمرون!. .

وأمام هذا المأزق، استفسر علي مبارك عن السبيل لتعلم الفرنسية، فأرشدوه إلى كتاب للأطفال، فاشتراه، وحفظه بمعانيه عن ظهر قلب، ثم حفظ جزءاً عظيماً من كتاب التاريخ، بمعانيه، وصنع نفس الشيء مع أسماء الأشكال الهندسية والمصطلحات. . واستطاع في ثلاثة أشهر أن يمتلك أداة اللغة، فتابع بتفوق تلقي الدروس!. وأعانه على ذلك إصرار وعناد، سهر بهما الليالي حتى اعتاد السهر منذ ذلك التاريخ، وكما يقول: «. . فلقد لزمت السهاد، وحرمت الرقاد، فكنت لا أنام من الليل إلا قليلاً، حتى كان ذلك ديدنا لي إلى الآن!». .

وفي الامتحان احتل المركز الأول على فرقته. . ثم صار في كل الامتحانات، مع اثنين من أقرانه هما حماد أفندي عبد العاطي، وعلي أفندي إبراهيم، يتبادلون المراكز الثلاثة الأولى على

فرقتهم. . وفي امتحان ١١ يناير سنة ١٨٤٦ م كان ترتيبه الثالث، ومنح العشرة الأول رتبة «أونباشي»، مع سلطتها، وشاراتها. . وفي نفس العام طور الناظر الجديد للمدرسة نظامها الدراسي، فجعلها على نمط مدرسة «سانسير» [St. Cyr]، وأضيفت إلى علومها علوم: الميكانيكا، والأسلحة. .

وسافر إبراهيم باشا إلى فرنسا ليكرم المتفوقين من طلاب هذه البعثة، فذهب الطلاب يوم ٢٢ إبريل سنة ١٨٤٦ م لاستقباله في تور [Tours] التي وصلها يوم ٢٣، ثم عادوا جميعاً إلى باريس يوم ٢٤. . وفي اليوم التالي زارهم بالمدرسة. . . وأقيمت على شرفه مناورة عسكرية فرنسية بسان مور [St. Muurc] في الخامس من مايو سنة ١٨٤٦ م، حضرها طلاب البعثة ـ وكانت تتاح لهم مشاهدة المناورات الحربية الفرنسية كجزء من برنامجهم الدراسي ـ. .

وفي الحادي عشر من مايو سنة ١٨٤٦ م أقامت المدرسة حفلاً لتوزيع الجوائز على المتفوقين، وحضر الحفل إبراهيم باشا، وبصحبته دوق مونبنسييه [duc Montpensier] ورئيس وزراء فرنسا، وقائد الجيش الفرنسي، وابن ملك فرنسا، و«جملة من مشاهير النساء الكبار». . . وقام إبراهيم باشا بتوزيع تسع جوائز على الثلاثة الأول من فرق المدرسة الثلاث، وكانت الجائزة الثانية من نصيب علي مبارك، وهي عبارة عن كتاب الجغرافيا ـ [تقويم البلدان] ـ الذي ألفه مالطبرون «مالت بريم» [Malte Brem] في طبعته الأخيرة، مع الأطالس الخاصة به. . وكانت

الجوائز ـ حسب أوامر محمد علي ـ «مزخرفة ومجملة»! . . .
وتناولوا جميعاً طعام الغداء مع إبراهيم باشا. . وقامت بوصف الحفلة صحيفة المونيوتور أونفرسيل [le moniteur universel] وصحيفة لابرس [la Presse]. .

وفي أغسطس سنة ١٨٤٦ م خرج علي مبارك مع زملائه، بزيهم العسكري المصري، مسلحين، من مدرستهم إلى ميدان شان دي مارس [Champ de Mars] فضربوا ناراً في الميدان! . .
وفي عطلة نفس العام ذهبوا إلى خارج باريس فعملوا الرسوم الطبوغرافية للضواحي، وزاروا عدداً من المنشآت العامة. .

وفي المدة من ١ حتى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٤٦ م أقيم امتحان عام بالمدرسة، تقدم إليه من فرقة علي مبارك عشرة، بينما تخلف ستة لأسباب صحية وغيرها، فتم امتحانهم في قسم من مواد الدراسة وهي: حساب المثلثات، والهندسة الوصفية، والإحصاء، وعلم توازن القوى والآلات، والكيمياء، والطبيعة، واللغة الفرنسية، والتاريخ، والطبوغرافيا، والتحصينات المؤقتة، والمدفعية، والفنون العسكرية، والنظريات، واللوائح الخاصة بخدمة الحركة. .

ثم أخذ، مع زملائه، في استذكار العلوم المتبقية تمهيداً للامتحان فيها، وهي: الجبر، ومبادىء الهندسة، والجغرافيا، والإدارة العسكرية، ومن الحرب [أي اللوائح العسكرية، وتعليم الجندية، وفرقة الفرسان، وأقسام لائحة الحركة الخامسة بالوقائع الحربية الصغيرة، وقسم الألاى]. .

وأخيراً . . اجتاز علي مبارك الامتحان بتفوق، وكان ترتيبه الثالث، ونال جائزة في الحفل الذي أقيم لهذه المناسبة يوم الأربعاء ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٤٦ م . . واختتم بذلك دراسته في [المدرسة المصرية الحربية بباريس] . .

وفي أول يناير سنة ١٨٤٧ م التحق علي مبارك مع حماد أفندي عبد العاطي، وعلي أفندي ابراهيم - الثلاثة الأول - التحقوا بكليـة متز [école Metz] كي يتخـرجـوا منهـا ضبـاطـاً في المدفعية - [الطوبجية] - والهندسة الحربية - ومنحوا عند دخولهم لهـا رتبة «المـلازم الثاني» كي يكـونوا متسـاوين بـزمـلائهم الفرنسيين . . وكانت بالنسبة لهم مدرسة داخلية، احتفظوا فيها بزيهم المصري - [الطربـوش وحلة الجيش المصري] - وأمضوا فيهـا عامـين درسوا فيهـما: من الاستحكـامـات الخفيفـة، والاستـحكامات الثقيلة، والعمارات المائية والهوائية، عسكرية ومدنية، والألغام، ومن الحرب، وما يتعلق به . . مع استعادة ما سبقت لهم دراسته بمدرسة باريس، بإيجاز . .

وفي الامتحان النهائي بكلية «متز» كان ترتيب علي مبارك الخامس عشر من بين مجموع الناجحين الخمسة والسبعين، ثلاثة مصريون واثنان وسبعون فرنسياً . .

وفي أول سنة ١٨٤٩ م الحق علي مبارك، مع زميليه، بآلايات الجيش الفرنسي للتدريب والتطبيق . . لأن خطة القائد إبراهيم باشا كانت - كما يقول علي مبارك -: «أن تستمر إقامتنا في

العسكرية حتى نستوفي فوائدها.. ثم نسيح في الديار الأوروباوية لنشاهد الأعمال، ونطبق العلم على العمل، مع كشف حقائق أحوال تلك البلاد وأوضاعها وعاداتها.. وكان ذلك نعم المقصد!...»

ولكن هذا المقصد لم يتم على النحو الذي أراده ابراهيم باشا.. فلقد توفي إبراهيم باشا في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م (١٣ ذي الحجة سنة ١٢٦٤ هـ)، وتولى حكم مصر عباس باشا الأول في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م (٢٧ ذي الحجة سنة ١٢٦٤ هـ).. وأغلقت [المدرسة المصرية الحربية بباريس].. ثم صدرت الأوامر باستدعاء علي مبارك وزميليه من مكانهم بآلايات الجيش الفرنسي إلى مصر، قبل أن يكتمل عام على التحاقهم بهذه الآلايات[١]...

عاد إلى أرض الوطن، بعدما يقرب من ست سنوات..

ـ ٥ ـ

هناك فكرة شائعة في الأوساط الفكرية التي اهتمت بتاريخنا في القرن التاسع عشر، أشار إليها البعض من طرف خفي في الصفحات القليلة التي عرضت لعلي مبارك، ورددتها الألسن كثيراً.. ومؤداها: أن الخديوي عباس الأول [١٨١٣ ـ

(١) انظر في الحديث عن أخبار هذه البعثة ـ إلى جانب ترجمة علي مبارك لنفسه في [الخطط] ـ [البعثات العلمية] لعمر طوسون ص ١٧٢ ـ ٢٤٤.

١٨٥٤ م] ـ وهو حاكم رجعي ومتخلف ـ قد اعتمد في تصفية الإنجازات المتقدمة التي أقامها محمد علي وابنه إبراهيم باشا في الميدان التعليمي والثقافي، اعتمد على «علي مبارك».. وأنه في الوقت الذي نفى فيه «رفاعة رافع الطهطاوي» إلى السودان، وأغلق مدرسة الألسن، وصفى الكثير من المدارس وسرح تلاميذها، وأغلق صحيفة [الوقائع المصرية] وطرد الكثير من المثقفين والعلماء، ونفى بعضهم إلى الآستانة.. في الوقت الذي صنع فيه كل ذلك، كان علي مبارك مقرباً إليه، بل كان صاحب المشروع الذي خفض ميزانية التعليم وتقلص بالمدارس المصرية حتى بلغت حد الضمور والذبول!..

ويدعم أصحاب هذه الفكرة وجهة نظرهم بأن انتهاء عهد عباس، قد شهد انقلاباً.. فالخديوي سعيد [١٨٢٢ ـ ١٨٦٣ م] قد أعاد رفاعة الطهطاوي وزملاءه من المنفى، وبدأ يعتمد عليهم، على حين عزل علي مبارك، واضطهده، بل وأراد التخلص منه فأرسله مع الجيش المصري الذي ذهب يعاون العثمانيين في حرب القرم ضد قياصرة الروس؟!.

فنحن إذاً أمام حزبين.. حزب متقدم يتزعمه الطهطاوي، اضطهده عباس وقربه سعيد، وآخر محافظ، استخدمه عباس وغضب عليه سعيد..

ثم تكتمل وجهة النظر هذه عندما تعيب موقف علي مبارك، لسلوكه الطريق المعيب الذي يسلكه عدد من المثقفين والعلماء

الذين لا يجدون لأقدامهم مكاناً إلا على أشلاء نظرائهم، أو على الأقل إلا في موضع أقدام هؤلاء النظراء!.

تلك هي الفكرة الشائعة.. والتي نراها ظالمة.. ومن ثم فلا بد من التعرض لقضيتها بالبحث والجلاء.. وبادىء ذي بدء.. فلم يكن علي مبارك رجل «الانكماش» في التعليم والثقافة، على حين كان الطهطاوي رجل «التوسع» والانتشار.. فسيأتي، في دراستنا، ما يثبت أن علي مبارك هو صانع أهم إنجاز مصر في حقل التعليم على الإطلاق.. كما أن كلا من الرجلين لم يكن ممثلاً لحزب وتيار يقف من الآخر موقف العداء.. فلقد تعاونا على نحو رائع وخلاق عندما تهيأ لهما جميعاً المناخ الملائم في عهد الخديوي اسماعيل [١٨٣٠ ـ ١٨٩٥ م] وعمل الطهطاوي مع علي مبارك، وتحت قيادته، فأثمرت جهودهما في تلك الفترة أهم ما أثمرت حياتهما من جهود!..

أما علاقة علي مبارك بحركة «الانكماش» والتقلص في التعليم، ومن ثم باضطهاد رفاعة الطهطاوي ونفيه مع زملائه إلى السودان، فإننا ـ عند البحث الموضوعي ـ نضع يدنا على حكم قاطع ببراءة الرجل من تلك الظلال غير الصحيحة وغير الأخلاقية التي ظللت حياته وسيرته، فظلمته ظلماً عظيماً.. إذ لا شك أن ظلم العظيم ظلم عظيم!!..

صحيح أن علي مبارك نفسه يتحدث في سيرته الذاتية أن الخديوي عباس الأول قد رغب في تقليص المدارس وميزانيتها،

وإنه قد عهد إلى ناظر المهندسخانة يوسف لامبير بك بإعداد ميزانية انكماشية، فقدم له مشروعاً إجمالياً مبلغه ٢٠,٠٠٠ كيس - [أي ١٠٠,٠٠٠ جنيه]، وأن عباس رفضه وعهد إلى علي مبارك وزميليه: حماد عبد العاطي، وعلي إبراهيم بوضع مشروع أكثر اقتصاداً في النفقات، فعجز حماد وعلي إبراهيم عن تدبير الأمر.. ونجح علي مبارك في إعداد ميزانية مجملها ١,٠٠٠ كيس فقط! [أي ٥,٠٠٠ جنيه]... وبهذا وصل مشروع علي مبارك بميزانية التعليم إلى ٥ ٪ مما كانت عليه زمن حكم محمد علي وولده إبراهيم!.. ويعترف كذلك أنه شارك في إعادة امتحان المهندسين المصريين، بأمر من عباس، الأمر الذي أدى إلى تسريح العديد منهم!

كل ذلك صحيح... ولكن بحث القضية لا بد أن يبدأ بالحقائق والتواريخ حتى نصل فيها إلى الحكم الموضوعي الدقيق...

● فعباس الأول قد تولى الحكم في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م (٢٧ ذي الحجة سنة ١٢٦٤ هـ)... وبدأ يقود حركة الردة والانكماش في الفكر والثقافة والتعليم، ويغلق المدارس ويسرح الأساتذة والتلاميذ وينفي العلماء ويسرح المهندسين ويغلق المصانع، قبل أن يعود علي مبارك من فرنسا.. وتلك قضية لا بد من تدقيق بحثها، لأن بعض وقائعها محل نظر وموضع خلاف.. إذ يكفي أن يقرأ البعض أن تاريخ إغلاق مدرسة الألسن هو

نوفمبر سنة ١٨٤٩ م (محرم سنة ١٢٦٦ هـ) وأن نفي رفاعة وزملائه قد صدر قراره في ٣ يونيو سنة ١٨٥٠ م (٢١ رجب سنة ١٢٦١ هـ)[١].. ثم يقرأ أن علي مبارك كان ناظراً لمدرسة المهندسخانة منذ إبريل سنة ١٨٤٩[٢] م.. ليقول!! إنه في الوقت الذي كان الزمن يقبل على علي مبارك كان يدبر عن رفاعة ورفاقه، وأن علي مبارك قد حضر حدوث ذلك الجزر في حركة التعليم، وشارك في صنعه..

لكننا نبدأ تحقيق هذه القضية بالشك والتشكيك في ذلك التاريخ الأخير ـ (إبريل سنة ١٨٤٩ م) ـ الذي يبكر بعودة علي مبارك من فرنسا قبل ميعادها الحقيقي..

فعلي مبارك قد ذهب إلى فرنسا في أكتوبر سنة ١٨٤٤ م.. ودرس في مدرسة باريس ثلاث سنوات، ثم دخل مدرسة متز في أول يناير سنة ١٨٤٧ م فدرس بها سنتين، ثم التحق بآلايات الجيش الفرنسي في مطلع سنة ١٨٤٩ م لمدة عام ـ كما يقول عمر طوسون ـ ولمدة تقل عن العام كما يقول هو ـ ومن ثم فلا يمكن أن يكون ناظراً للمهندسخانة في إبريل سنة ١٨٤٩ م، لأن عودته ـ على رأي عمر طوسون ـ تاريخها آخر سنة ١٨٤٩ م، وعلى رأيه هو في أواخر سنة ١٨٤٩ م.

---

(١) د. احمد احمد سيد أحمد [رفاعة رافع الطهطاوي في السودان] ص ٦٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣.

(٢) [التعليم في مصر] الملحق (ثالثاً) المدارس في عهد محمد علي. ص ٤٧.

هذه واحدة . .

ودليل ثانٍ، وهام . . فعلي مبارك يقرر في [الخطط]، وهو يؤرخ لحياته في تلك الفترة، أنه وزميليه بعد أيام من عودتهم من فرنسا استدعاهم الكتخدا حسن باشا المناسترلي، فأحسن إليهم برتبة «يوزباشى أول» . . وعين علي مبارك مدرساً (خوجة) بمدرسة طرا . . فالعودة إذن كانت بعد تولي حسن باشا المناسترلي منصب الكتخدا . . فإذا رجعنا إلى أمين سامي في [تقويم النيل] وجدنا المناسترلي قد تولى هذا المنصب في ٢ فبراير سنة ١٨٥٠ م (١٥ ربيع الأول سنة ١٢٦٦ هـ)[١] . . فعودة علي مبارك من فرنسا لا بد وأن تكون بعد هذا التاريخ، أو حوله . . وبذلك تتسق هذه الحقيقة مع حقيقة مكثه في فرنسا قرابة الست سنوات . .

وحقيقة أخرى، ودليل ثالث . . فحركة عباس الأول لفرز المدارس وتقليص حركة التعليم قد سبقت هذه التواريخ بكثير . .

- ففي يناير سنة ١٨٤٩ م (ربيع الأول سنة ١٢٦٥ هـ) ألغى: مدرسة السوارى، ومدرسة مكتب البيادة (المشاة)، ومدرسة النواتية (البحرية).
- وفي ٢١ مارس سنة ١٨٤٩ م (٢٥ ربيع الثاني سنة ١٢٦٥ هـ) ألغى مدرسة الطب البيطري . .

---

(١) [تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٢٧.

- وفي أغسطس سنة ١٨٤٩ م (شوال سنة ١٢٦٥ هـ) ألغى المكتب العالي بالخانقاه..
- وفي أكتوبر سنة ١٨٤٩ م (ذي الحجة سنة ١٢٦٥ هـ) ألغى مدرسة المبتديان.
- وهو قد زار مدرسة الخانقاه في ١٩ إبريل سنة ١٨٤٩ م (٢٥ جمادي الأولى سنة ١٢٦٥ هـ) وتحدث عن تلاميذها باعتبارهم «التلاميذ المرسلة للخانقاه من جميع المدارس»... فقبل هذا التاريخ، إذن، تمت حركة «فرز» التلاميذ وتسريح من سرح، وانتخاب القلة النجباء[١]..

ودليل رابع يقدمه لنا تسلسل تواريخ الإجراءات التي اتخذها عباس الأول تجاه مدرسه الألسن، وناظرها رفاعة الطهطاوي..

- فهو قد بدأ بإلغاء قسم الفقه بها، وفصل أساتذته.. ثم حولها إلى مدرسة للمحاسبة!..
- ثم ثنى «بفرز» طلبتها، وفصل عدداً كبيراً منهم.
- ثم نقلها من مكانها الرحب بالأزبكية إلى مكان ضيق، ضاق بمكتبتها وأدواتها، في الناصرية.. وتم هذا النقل في ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٤٩ م (٥ ذي الحجة سنة ١٢٦٥ هـ)..
- ثم أغلقها كلية في نوفمبر سنة ١٨٤٩م (محرم سنة ١٢٦٦ هـ)[٢]..

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول من الجزء الثالث ص ١٣، ١٤، ١٩، ٢١.

(٢) [رفاعة رافع الطهطاوي في السودان] ص ٦٦. و[تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٢٥.

أي أن أزمة مدرسة الألسن قد حدثت، وتصاعدت حتى أودت بها، قبل أن يعود علي مبارك من فرنسا! وقبل أن يلي أية وظيفة في نظام الخديوي عباس!..

ودليل خامس يقدمه لنا أمر الخديوي عباس الأول الصادر في ٤ يوليو سنة ١٨٤٩ م (١٣ شعبان سنة ١٢٦٥ هـ) بالاقتصاد في مرتبات المدرسين ومصاريف التلاميذ.. بل لقد جعل، في هذا الأمر، مرتب المدرس على حسب عدد التلاميذ الذين يقوم بالتدريس لهم[١]؟!... وهذا تاريخ سابق على عودة علي مبارك من فرنسا..

ودليل خامس يقدمه لنا أمر عباس الأول الصادر إلى مدير المدارس في ٩ ديسمبر سنة ١٨٤٩ م (٢٣ محرم سنة ١٢٦٦ هـ) بامتحان المهندسين وفرزهم وفصل عدد كبير منهم. لأنهم «غير واقفين حتى على عملية ضرب الحساب... ويجرون هذه العلمية بواسطة المعلمين الأقباط الموجودين معهم... وبينما نحن منتظرون منهم الفائدة إذا هم يتسببون في خراب الأقاليم.. إن هذا الشيء يحرق القلب. بناء عليه يحق لي أن ألغي ديوان المدارس الذي اتخذناه أساساً للتعليم، وأطرد الأساتذة والمهندسين المومى إليهم!..»[٢].

فهو يفكر، ويهدد بإلغاء ديوان المدارس ـ أساس التعليم

---

(١) [تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٢٣.

(٢) المصدر السابق. المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٢٨.

ووزارته ـ وبفصل الأساتذة والمهنـدسين. . . كـل ذلك قبـل التحاق علي مبارك بجهاز حكمه، وقبل لقائه بالكتخذا المناسترلي بشهور!

أما قصة العلاقة بين علي مبارك وعباس الأول فإنها تبدأ وتتطور على النحو التالي. .

- بعد لقائه للكتخدا حسن باشا المناسترلي ـ الذي حدث بعد فبراير سنة ١٨٥٠ م ـ عين مدرساً بمدرسة طرا، وكانت المدرسة تحتضر، فلم يبق من طلابها إلا «جماعة قليلون متقدمون في السن، قد أزمنوا في المدرسة!». . وكان عدد التلاميذ الذين يدرس لهم علي مبارك، وهم المتخصصون في الهندسة الحربية، تلميذ واحد!. . في وقت كان فيه راتب المدرس مرتبطاً بعدد التلاميذ الذين يدرس لهم!. . وكان أساتذة المدرسة ـ بمن فيهم علي مبارك ـ يعيشون فيما يشبه المأتم، وهو يحكي كيف جمعهم الناظر، برنستو بك، وقال لهم: «إن التلامذة الباقين صاروا إلى ما ترون من قلة العدد، وكبر السن، وطول المدة. . وأخاف أن ذلك يدعوكم إلى التكاسل. . . وأملي أن هذه الحالة لا تدوم، وعما قليل تستقيم الأحوال!».

- بعد أن تزوج علي مبارك من فتاة فقيرة، هي ابنة مدرسه الذي درس له الرسم في المهندسخانة. . تزوجها «لما كان لوالدها عليه من حق التربية والمعروف»!. . أستأذن كي

يزور أهله في برنبال، فأخبروه أن الإجازة تعني خصم نصف مرتبه، وأخيراً دبروا إلحاقه بمأمورية يقودها سليمان باشا الفرنساوي لاستكشاف البحيرة والسواحل.. فسافر معه إلى دمياط، ثم انفصل عن المأمورية، فمسح البحيرة وأعد تقريرها ورسومها.. ثم ذهب إلى برنبال، بعد غيبة دامت أربع عشرة سنة..

ويصف علي مبارك تلك الزيارة لأسرته.. فعندما وصل إلى برنبال كان والده قد سافر إلى القاهرة كي يراه.... فطرق الباب على أمه وإخوته، فلم تصدق أمه أذنيها.. «فقامت مدهوشة إلى ما وراء الباب، وجعلت تنظر وتحد النظر - وكنت بقيافة العسكرية الفرنساوية، لابساً سيفاً وكسوه تشريف - فعانقتني، ووقعت مغشياً عليها، ثم أفاقت، وجعلت تبكي وتضحك وتزغرت!.. وجاء أهل البيت والأقارب والجيران، وامتلأ المنزل ناساً، وبقينا كذلك إلى الصباح، والناس بين ذاهب وآيب... ثم رأيت والدتي في حيرة فيما تصنع لي من الإكرام، وتريد عمل وليمة، وهي فارغة اليد! ورأيتها تبكي! ففهمت حقيقة الحال، فناولتها عشرة بنتو[1] كانت بجيبي.. ففرحت وأولمت!!..»

● وبعد يومين قضاهما في برنبال عاد إلى دمياط، وعرض تقريره ورسوماته على رئيس الأركان «سليمان باشا الفرنساوي، فحاز إعجابه، وأثنى عليه.. وأخبره أنه قد حصل له على أمر من

---

(١) البنتو يساوي ٢٠ فرنكا. وبالقرش يساوي ٤٠/٦ ٧٧ قرشاً.

الخديوي بالالتحاق بمعية جاليس بك، بالأسكندرية، فسر علي مبارك سروراً شديداً، إلى الحد الذي جعله يقبل يد سليمان باشا الفرنساوي، وشكر له هذا الصنيع الذي أنقذه من حالة البطالة في مدرسة طرا..

● ومن دمياط عاد إلى القاهرة، فاصطحب أسرته ـ الزوجة وأخاً وأختاً، صغيرين كان يربيهما ـ معه في المركب إلى الأسكندرية، ثم ترك الأسرة بالمركب وذهب للقاء جاليس بك، فوجد عنده سليمان باشا الفرنساوي.. وبينما هم يتناولون القهوة إذ وردت إشارة من الخديوي تطلب عودة علي مبارك للعاصمة فوراً، بواسطة «الوابور المتهيء للقيام»!.. ولم يكن علي مبارك قد لقي الخديوي من قبل.. ولم يكن يريد أن يلقاه، ولا أن يكون وثيق الصلة بالأسرة الحاكمة على الإطلاق.. وبعبارته بعد: «.. **فلقد داخلني ما لا مزيد عليه من الخوف، لما كنت أعلم مما كان يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الإيذاء!**» وأصاب الحزن كذلك جاليس بك.. ولكن سليمان الفرنساوي حاول إدخال الطمأنينة إلى قلب علي مبارك قائلاً: ربما يريد الخديوي أن تكون معلماً لابنه؟!.. وطلب منه السفر للعاصمة، وأن يترك له تدبير إعادة أسرته إليه بالقاهرة.. فعاد إلى العاصمة، دون أن يرى أسرته التي تنتظره بالمركب.. واتجه إلى لقاء الخديوي، وهو ـ كما يقول ـ: «بين راغب وراهب!».. فاستقبله الخديوي، مع زميليه: حماد أفندي عبد العاطي وعلي أفندي إبراهيم.. وسأله:

ـ أنت علي أفندي مبارك؟..

ـ نعم..

ـ إن أحمد باشا ـ [أخ الخديوي إسماعيل، وزميله في البعثة] ـ قد أثنى عليك.. ولقد جعلتك في معيتي.. وقد أمرت بامتحان مهندسي الأرياف ومعلمي المدارس، لأن الكثيرين منهم ليسوا على شيء، وجعلتك من أرباب الامتحان..

ثم طلب منهم القسم على الصدق وعدم الكذب، وقال لهم مهدداً: «إذا كذب أحدكم في شيء فجزاؤه سلب النعمة، وإلباسه لباس الفلاحين، وسلكه في سلكهم!»

وبعد أن أقسموا على الصدق.. أنعم الخديوي على كل منهم برتبة «الصاغقول أغاسي» ونيشاناتها: نصف هلال من الفضة، ونجمة ذهبية فيها ثلاثة أحجار من الماس!..

هكذا بدأت علاقة علي مبارك بالخديوي عباس الأول.. بعد أن قطع عباس شوطاً بعيداً في تقليص حجم التعليم والانتكاس بتجربة محمد علي وإبراهيم باشا في هذا الميدان..

● وشارك علي مبارك في امتحان مهندسي الأرياف، ومدرسي المدارس.. كما شارك في استكشاف تلال أسوان ورسم الطريق الأمثل لسير الملاحة هناك ـ وكان مع زملائه ضمن البعثة التي صحبت الخديوي في جولته ـ.. ومن أسيوط ذهبوا إلى منفلوط لاستكشاف سبل وقايتها من الغرق، بتحويل النيل

عنها. . . وذهبوا ينقبون عن الزمرد في الصحراء الشرقية!..

● وبعد العودة إلى القاهرة ذهبوا إلى القناطر الخيرية للمشاورة مع ناظرها موجيل بك في احتياجات صيانتها من مخاطر شدة التيار.. وفيما يلزم لتسهيل الملاحة عندها... وأوصت البعثة باستعمال وابورات تسحب السفن بالأرغاطات، بدلاً من إنشاء ترع خاصة لمرور المراكب ـ وهي كثيرة التكاليف ـ فوافق الخديوي على الاقتراح الجديد، ووضع موضع التنفيذ.

كل هذا.. وحتى ذلك التاريخ.. ولم يكن علي مبارك قد اقترب بعد، أو كلف بأمر يتعلق بتقليص حجم التعليم في مصر..

● وفي آخر سنة ١٢٦٦ هـ ـ كما يقول علي مبارك في [الخطط] ـ (أي أكتوبر سنة ١٨٥٠ م) ـ أراد الخديوي تقليص حجم التعليم وميزانيته أكثر وأكثر، فطلب من لامبيز بك إعداد مشروع يحقق غرضه، فعرض عليه مشروعاً لترتيب المدارس الملكية ـ [المدنية ـ غير الجهادية والعسكرية] ـ والرصدخانة بلغت جملة ميزانيته ٢٠,٠٠٠ كيس [أي ١٠٠,٠٠٠ جنيه].. فاستكثر الخديوي المبلغ!.. وأحال المشروع ـ سراً ـ إلى علي مبارك وحماد عبد العاطي وعلي إبراهيم ـ أي بعد أكتوبر سنة ١٨٥٠ م ـ فلم تتفق آراؤهم على مشروع موحد يحقق غرض الخديوي.. وخشى علي مبارك فوات الوقت، وغضب الخديوي، فأعد مشروعاً عرضه على زميليه، فرفضاه، فاتفق

معهما على الاحتفاظ به، كبديل، يتقدمون به إذا لم يصلوا إلى اتفاق على مشروع آخر.. وكان حجم الميزانية في هذا المشروع محققاً، ولا بد، سعادة الخديوي، إذ كان ألف كيس فقط (أي ٥,٠٠٠ جنيه!)..

ولما لم يتفق الثلاثة على مشروع آخر، تقدموا للخديوي بمشروع علي مبارك.. فاستحسنه.. وعقد لبحثه مجلساً من رؤساء الدواوين، حضره علي مبارك، ولمبير بك، واستمرت دراسته ثمانية أيام، ثم استحسنوه، ووافقوا عليه، وأوصوا باستحقاق واضعه رتبة «أمير ألاى»!..

وكان واضحاً أن علي مبارك قد سبح مع تيار الخديوي، حتى لا يقع به الإيذاء، وأنه وضع مشروعاً يقنن وينظم واقع الانكماش الحادث فعلاً في التعليم.. فهو يتحدث عن مشروعه هذا فيقول: لقد «جعلت أساس ذلك احتياجات القطر لا غير!، وأن جميع المدارس الملكية تكون في محل واحد، تحت إدارة ناظر واحد. وأسقطت الرصدخانة بالمرة من الترتيب، لعدم وجود من يقوم بها حق القيام إذ ذاك من أبناء الوطن - [كانت تدار بمهندسين فرنسيين] - مع احتياجها إلى كثرت المصرف. وأبديت في الترتيب: أنه يلزم توجيه جماعة إلى بلاد الإفرنج ليتعلموا فنون الرصد خانة، وبعد قدومهم يصير فتحها وإدارتها..»

وبعد أن أقر مجلس رؤساء الدواوين المشروع، استدعى الخديوي علي مبارك، وسأله عن توقعاته للمشروع في التنفيذ والتطبيق، فأجابه:

ـ إن أحسن مديره إدارته، وأجراه على فهم منه وبصيرة نجح، وإلا فلا! ـ فإن الساعة المضبوطة الدقيقة الصنعة يفسدها من لا يحسن إدارتها، من جاهل أو مفرط، وتدوم حالها إذا كانت بيد من يحسن إدارتها؟!». .

وكأنما كان علي مبارك يقدم بذلك نفسه، ويرشح ذاته ـ وليس في هذا من عيب ـ كي يضمن لمشروعه النجاح، وحتى يأمن غضب الخديوي إن أصاب مشروعه الفشل في التطبيق. .

وعجب الخديوي من جرأته. . ولكنه استحسن جوابه. . فعهد إليه بنظارة المدارس. . وأعطاه الرتبة ـ [رتبة الأمير ألاى] ـ والنيشان. . وهكذا. . ومنذ ذلك التاريخ، أصبح علي مبارك رجل التعليم الأول في عهد عباس الأول، وموضع ثقته. . ووفق عبارته هو: فلقد «كان لي عنده منزلة!»

حدث ذلك في سنة ١٨٥٠ م (سنة ١٢٦٦ هـ) أما في أي شهر من شهور تلك السنة فإن أياً من المصادر لا يسعفنا بالجواب. . ولكننا نحاول الاقتراب من الدقة والتحديد. .

● في ٩ إبريل سنة ١٨٥٠ م (٢٦ جمادي الأولى سنة ١٢٦٦ هـ) صدرت إرادة الخديوي بتعيين عبدي شكري باشا مديراً للمدارس[١]. . وهو المنصب الذي عين فيه علي مبارك أخيراً. . فهو قد تولى شئون التعليم بعد هذا التاريخ.

---

(١) [تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٢٩.

● والبعثة التي اقترحها في مشروعه كي تسافر لأوربا، حتى تتعلم علوم الفلك، ثم تعود فتدير الرصد خانة، تكونت من: محمود أحمد حمدي الفلكي، وإسماعيل مصطفى الفلكي، وحسين إبراهيم.. وسافروا إلى باريس في الثامن من أكتوبر سنة ١٨٥٠ م (أول ذي الحجة سنة ١٢٦٦ هـ)..

فبين إبريل وأكتوبر سنة ١٨٥٠ م كان تاريخ تولى علي مبارك لشئون التعليم في مصر على عهد الخديوي عباس.. وهو تاريخ لا حق على ما أصاب التعليم المصري من تقلص وانكماش، وما أصاب العلماء من نفي وتشريد... ومن ثم فإن براءة علي مبارك من أوزار عباس الأول هي حقيقة تنطق بها صراحة الوقائع والتواريخ وتؤكدها متابعة سير الأحداث!..

● وأخيراً.. فغني عن التنبيه أن التطورات الرجعية التي أحدثها عباس الأول في التعليم لا تستحق سوى النقد والإدانة.. ومن ثم فلا شبهة في أن يكون هناك مجال للدفاع عنها.. ولكن ما نريده الآن هو أن نزيل الوهم الذي علق لدى الكثيرين عن أن الخديوي سعيد ـ الذي اضطهد علي مبارك في عهده ـ كان مستنيراً ومتقدماً، على حين كان عباس هو الرجعي الوحيد ـ ذلك أننا نرى فيهما وفي عهديهما ردة رجعية توسطت بين تجربة محمد علي المزدهرة، وتجربة الخديوي اسماعيل، التي طورت أصول تجربة محمد علي في عديد من الميادين والاتجاهات..

وإلا فبماذا نفسر الأرقام التي تقول:

● إن سنة الانكماش في التعليم على عهد عباس الأول - [١٨٤٩ م] - ، كان: تلاميذ المدارس فيها ٢,٩٨٦ تلميذاً والمدرسون ٢٢٢ مدرساً والميزانية ١٦٠ ملم ٥١,٦٢٣ حسم

وعدد بعوث عهده إلى أوربا كان ١٩ مبعوثاً[١].

على حين بلغ عدد الطلاب في عهد الخديوي سعيد ٤٨٥ طالباً

وبعوثه إلى أوربا ١٤ مبعوثاً[٢].

ثم عاد في آخر حكمه فخفض عدد الطلاب إلى النصف[٣]! وكذلك الميزانية، وألغى عدداً من المدارس[٤].. لقد حدث على عهد سعيد - كما يقول علي مبارك في [الخطط] - «فتور في التعليم»، ومن ثم فلا علاقة له بالاستنارة التي ألقت التصورات الخاطئة عنها - بطريق غير مباشر - ظلالاً غير منصفة على حياة علي مبارك وسيرته في تلك الحقبة من حقب التاريخ..

* * *

---

(١) [التعليم في مصر] ص ١٥، ١٤.

(٢) المصدر السابق. ص ١٦.

(٣) [تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٤٣٨.

(٤) المصدر السابق. المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٣٧٩، ٣٨١.

ثم إن علي مبارك بعد أن تولى إدارة ديوان المدارس أعاد ترتيبها، وفق مشروعه، فعين المدرسين، ورتب الدروس، واختار الكتب، واشترك مع مجموعة من الأساتذة في تأليف عدد من الكتب المدرسية، وأنشأ لطبعها مطبعتين، واحدة تطبع بالحروف، والأخرى مطبعة حجر، وذلك غير مطبعة مدرسة المهندسخانة - [وكانت مطبعة حجر] - وباشر بنفسه رعاية شئون الطلاب، من مأكل وملبس ومسكن.. كما أسهم في التدريس لمواد: الطبيعة، والعمارة.. وألف في العمارة كتاباً درس مخطوطاً، ولم يطبع.. واهتم بتعليم اللغة الفرنسية، حتى أجادها الخريجون «كمن تعلموا في أوربا..»!

وفي تلك الفترة من حياته توفيت زوجته الأولى.. فتزوج ثانية من فتاة غِرّة يتيمة ثرية، كانت قريبة لأحمد باشا طوبصقال.. وكانت ثروتها - قبل زواجها - تحت وصاية الزوجة الجديدة لزوج أمها.. فخشيت هذه المرأة أن ينتزع علي مبارك ثروة زوجته من تحت سيطرتها.. فكادت له، واستعانت بسذاجة الفتاة.. ودست له في قصر الخديوي بواسطة نساء القصر، حتى كادت تنجح في الذهاب به منفياً إلى السودان!.. وبدلاً من أن تفيده ثروة الفتاة، استنفدت منه الراحة والهناء، بل وجلبت إليه الضائقة الاقتصادية أيضاً!..

وفي تلك الفترة، يقول علي مبارك في [الخطط]: إن الخديوي عباس الأول أنعم عليه بأبعادية - [أي أرض بعيدة عن العمران

غير مستصلحة] ـ مساحتها ثلاثمائة فدان.. ويقول إن هذه الأرض قد استنفدت منه في إصلاحها مالاً كثيراً، سبب له ـ مع نفقاته ومظهره الذي اقتضاه عمله الجديد ـ ديوناً كثيرة تراكمت عليه..

ونحن لا نعثر في وقائع عهد عباس الأول على ذكر لهذا الإنعام.. ولكنا نجد الإنعام عليه بالثلاثمائة فدان وارداً في وقائع عصر إسماعيل.. كما سيأتي التنبيه عليه فيما سيأتي من صفحات..

* * *

لكن سؤالاً هاماً يبقى قائماً يبحث عن جوابه.. وهو: إذا كان النهج الرجعي والمتخلف قد وحد بين كل من عباس وسعيد، فلماذا تنكر سعيد للذين تعاون معهم عباس؟.. قد يكون مفهوماً أن يتنكر عباس لرجالات الدولة على عهد محمد علي وإبراهيم، أولئك الذين شبوا في أتون بناء تجربة مصر العصرية المتمدنة المستنيرة، وظلوا، حتى بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م يقاومون آثارها على التجربة الوطنية، بينما جاء عباس ليمثل واقع انهيار تلك التجربة.. أما أن يكون نهج سعيد هو نهج عباس ومع ذلك تتقلب مواقفهما من رجال الدولة، فهذا ما يحتاج إلى تفسير وجواب..

ونحن نعتقد أن صراعات أمراء الأسرة الحاكمة هي الخيوط التي تقودنا إلى هذا الجواب..

فعندما توفي الوالي إبراهيم باشا في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م كانت سن الأمير محمد سعيد ـ وهو أخو إبراهيم ـ ست وعشرين سنة. . على حين كان الأمير عباس ـ وهو ابن أحمد طوسون ـ أي حفيد لمحمد علي وليس ابنه مثل سعيد ـ يبلغ من العمر سبعا وثلاثين سنة. . فهو حفيد، نعم. . ولكنه أكبر في السن. . وهكذا لعب هذا السبب، غير الجوهري، الدور الوحيد في توجه المنصب الكبير إلى عباس بدلاً من سعيد. . وبعبارة أمين سامي باشا: فلقد «ساعده الحظ وتولى أريكة الحكومة المصرية!»[1].

وكان طبيعياً أن يجد عباس معارضة من عدد من أمراء الأسرة الحاكمة، وكبار رجال الدولة الذين عملوا معهم لسنوات ومن هنا كان صراعهم معه ومواقفه ضدهم. . لقد تفجر الصراع بعد أيام من توليه للسلطة، ولقد ألمحنا إلى طرف من آثاره في دراستنا عن رفاعه الطهطاوي[2]. . وفيما تقدم من صفحات. . وأشار إسماعيل باشا سرهنك [١٨٥٢ ـ ١٩٢٤ م] إلى بدايات تفجره، وإلى عدد من أطرافه عندما قال: «إنه لم تمض على جلوس عباس باشا الأول على الأريكة المصرية أيام طويلة حتى دبت عقارب الفتن بينه وبين الأمراء من أقاربه وبعض رجال الحكومة الذين خدموا المرحوم جده محمد علي باشا الخدم الجليلة. ثم إن عباس

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٣.

انظر [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] جـ ١ ص ٥٧ ـ ٦٣. طبعة بيروت

(٢) سنة ١٩٧٣م.

لما خاف من معانديه أبعد منهم عن مصر: يوسف كامل باشا، صهر المرحوم محمد علي باشا، وكاكي باشا، وسامي باشا الكبير، وصبحي بك، وغيرهم، فسافروا إلى دار الخلافة... وكذلك استانلي خالد باشا حكمدار السودان...»[1].

بل لقد انعكس هذا الانقسام في الأسرة الحاكمة على معاملة الخديوي عباس الأول للأمير محمد سعيد، الذي شغل في ذلك الوقت منصب قائد البحرية المصرية.. فكثير من السفن عطلها عباس، وأهدى إلى السلطان العثماني بعض قطع البحرية[2]، مما أضعف البحرية وآذى مشاعر سعيد، وقلص من مظهر قوته في الدولة..

وعندما قتل عباس بواسطة خدمه في ١٥ يوليو سنة ١٨٥٤ م (١٩ شوال سنة ١٢٧٠ هـ) ـ وأسباب مقتله موطن عديد من علامات الاستفهام ـ تجدد الصراع حاداً بين أمراء الأسرة الحاكمة، ففريق منهم أراد القفز بابنه «إلهامي» إلى منصب الخديوية، والاستمرار في إبعاد سعيد عنها.. بل وقطعوا شوطاً في سبيل التنفيذ.. وكما يقول إسماعيل باشا سرهنك: «فلقد اجتمع الذين يميلون إلى المرحوم عباس باشا تحت رياسة الألفي إبراهيم بك، واتفقوا على استدعاء ولده إبراهيم إلهامي باشا،

(١) [حقائق الأخبار عن دول البحار] جـ٢ ص ٢٦١ (والنص في [تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٢٩.

(٢) [تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٢٥، ١٦، ٣٢.

وكان بأوربا، ليولوه على مصر، ويمنعوا عمه الأمير محمد سعيد باشا، أكبر أولاد المرحوم محمد علي باشا، عن الولاية، ولو بالقوة! وكتبوا، سراً، إلى إسماعيل سليم باشا، محافظ الاسكندرية وقتئذٍ، بما عزموا عليه، وأوصوه بالتيقظ والسهر على الثغر حتى يحضر إلهامي باشا. ولما وصل المكتوب إلى إسماعيل باشا خاف عاقبة الأمر، لعلمه بنص الفرمان، وقصد من ساعته محمد سعيد باشا، صاحب الحق بالولاية، لكونه أرشد العائلة، وكان بقصر القباري - [بالاسكندرية] - وأخذ معه أورطة من العساكر. ولما أخبره، شكره على صداقته، وذهب معه إلى قصر رأس التين، وأعلن الأمر رسمياً، وهناك أجريت حفلة الجلوس وأطلقت المدافع. ولما سافر سعيد باشا إلى القاهرة بصحبة أمراء عائلته، وهم الأمراء: إسماعيل باشا، وعبد الحليم باشا، ومصطفى فاضل باشا، وأحمد رفعت باشا، وغيرهم، وأرادوا الذهاب إلى القلعة بلغهم أن «برنجي» ألاى من المشاة الموجود فيها تحت قيادة المير ألاى محمد شكيب بك، الذي هو من مماليك المرحوم عباس باشا، مصمم على الممانعة حتى يحضر إلهامي باشا، كالاتفاق المعقود بين رجال حزبه، فتوجه إليه الأمير أحمد رفعت، بن إبراهيم بن محمد علي باشا، بنفسه، وأقنع رجال الآلاي المذكور بوخامة العاقبة إذا هم استمروا على عنادهم، فسلموا وفتحوا الأبواب، وصعد الوالي محمد سعيد باشا، وتمت له رسوم التولية، وانتهت الأزمة!...»[1].

(١) المصدر السابق. المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٧٢.

فنحن إذن أمام انقسام في البيت الحاكم.. عباس الأول، الذي ساعده امتياز كبر سنه عن سعيد على تولي المنصب، يتنكر لفريق آخر من الأمراء، ولمن خدم بإخلاص في تجربة محمد علي وإبراهيم باشا، خاصة من كان منهم متقدماً ومستنيراً... وهو يستدعي علي مبارك وزملاء له من فرنسا ـ ولم تكن لهم خدمة سابقة في الدولة ولا علاقات ولا ارتباطات بالأمراء ـ فيعتمد عليهم في جهاز دولته.. حتى إذا ما قتل، وفشل الأمراء من أنصاره في الاستئثار بالخديوية لابنه إلهامي، وجدنا موقف سعيد المتنكر لمن خدم عباس موقفاً طبيعياً مع منطق الأحزاب والصراعات على السلطة، لا في ذلك العصر فقط، بل وفي كل العصور!..

تلك إذن هي أسباب إبعاد الطهطاوي وتقريب علي مبارك، ثم تقريب الطهطاوي وإبعاد علي مبارك... الصراعات العلوية على السلطة.. ولا علاقة لها بالتقدم والتخلف لدى الرجلين، ولا لدى كل من عباس وسعيد.. لأن كلا من الطهطاوي وعلي مبارك قد مثل التقدم والاستنارة في يقظة الإنسان العربي في عصرنا الحديث.. وكلا من عباس وسعيد قد مثل الردة والتراجع عن الإنجاز الحضاري المتقدم الذي عرفته المنطقة على يد كل من محمد علي وإبراهيم.. ولا أدل على ذلك من أن كلا من الطهطاوي ومبارك قد عادا إلى ميدان العمل، معاً، وفي اتساق وتعاون تحت حكم الخديوي إسماعيل، وإنهما صنعا، تلك الفترة، أمجد ما صنعا من آثار وإنجازات.. بل لقد تعرض

الطهطاوي إلى الاضطهاد هو الآخر في عهد سعيد.. فرفضت له الكثير من المقترحات، وألغيت مدارس أنشأها، حتى لقد فصل من العمل، وظل عاطلاً إلى أن أعاده، مثل علي مبارك، الخديوي اسماعيل![1].

ونحسب إننا بذلك قد بدنا الظلال الظالمة.. ظلال الظلم العظيم لذلك الرجل العظيم!..

- ٦ -

تولى سعيد الحكم في ١٦ يوليو سنة ١٨٥٤ م (٢٠ شوال سنة ١٢٧٠ هـ).. وكان علي مبارك ناظر المدرسة المهندسخانة.. فعزله سعيد من مناصبه التعليمية، لأن الوشاة - كما يقول علي مبارك -: «قد رموا عنده في المدرسة بلسان الحسد والفتنة، ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة، واختلقوا لها معايب لم تكن فيها!..»

ولم يقف سعيد من علي مبارك عند هذا الحد، بل أراد التخلص منه، فانتهز فرصة الحرب القائمة بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية في القرم - ولمصر جيش يخوضها إلى جانب العثمانيين منذ عهد عباس الأول - فقرر إرسال علي مبارك - وهو مهندس الحرب - إلى ميدان القتال مع الإمداد العسكري المصري الجديد الذاهب إلى هناك!..

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] جـ١ ص ٦٣ - ٦٥.

وعلي مبارك يحدد في [الخطط] تاريخ ذلك بسنة ١٢٧٠ هـ ـ وهي تبدأ في ٤ أكتوبر سنة ١٨٥٣ م وتنتهي في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٥٤ م ـ ولا يحدد الشهور التي حدثت فيها هذه الأحداث والتحولات في موقفه والموقف منه . .

ولكن محمد مختار باشا ـ في [التوفيقات الإلهامية] ـ يذكر أن إلغاء مدرسة المهندسخانة ببولاق «وإرسال ناظرها وقتئذٍ علي بك مبارك إلى محاربة القرم» قد حدث في سنة ١٢٧١ هـ . . وكذلك حدث في نفس السنة إلغاء مدرسة المفروزة، وإرسال الأيتام والأطفال منها إلى الاسكندرية ـ وكان محمد مختار تلميذاً بها[١] ـ

ويبدو أن التعميم هو السبب في هذا الاختلاف . . فنحن عندما نعود إلى وثائق الدولة وأوامر الخديوي في كتاب [تقويم النيل] نجد أن «تفتيش المهمات والمدارس» قد أحيلت مأموريته إلى أدهم باشا مدير ديوان الخارجية في ٦ أغسطس سنة ١٨٥٤ م (١٢ ذي القعدة سنة ١٢٧٠ هـ)[٢] . . وأن إلغاء ديوان المدارس «وشطبه وإبطاله» قد صدر الأمر به في ١ ديسمبر سنة ١٨٥٤ م (١٠ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ) . . وفي هذا الأمر تحدد شهران «لحصر وجمع متأخرات الديوان المذكور وإكمال ونهي حساباته . . »[٣] .

---

(١) [التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية] ص ٦٣٦ .

(٢) [تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٨٤.

(٣) المصدر السابق. المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ١٠٤ .

أما سفر علي مبارك إلى حرب القرم - والذي يؤرخ هو له بسنة ١٢٧٠ هـ وصاحب [التوفيقات الإلهامية] بسنة ١٢٧١ هـ - فإن وثائق [تقويم النيل] تحل أيضاً إشكاله . .

ففي ٢٠ ذي القعدة سنة ١٢٧٠ هـ (٢٤ أغسطس سنة ١٨٥٤ م) صدر أمر الخديوي إلى الأمير أحمد رفعت باشا، الكتخدا، بالاستعداد لإرسال الجنود للحرب «حيث أن المسألة الحاضرة تقتضي سوق وإرسال قوة مؤلفة من عشرة آلاف جندي، خلاف الذين أرسلناهم قبلاً - [أي أرسلتهم مصر على عهد عباس الأول] - وحيث أننا حررنا وسطرنا الكيفية لصاحب السعادة الباشا ناظر الجهادية. بالتفصيل، فعندما تحيطون علماً بذلك عليكم أن تبذلوا، أنتم وأعضاء المجلس، همتكم بخصوص تسهيل وتشهيل القوة المذكورة . . »[1].

لكن يبدو أن «التسهيل والتشهيل» قد امتد حتى دخلت سنة ١٢٧١ هـ . . صحيح أن الوقائع لا تحدد بجلاء ودقة تاريخ سفر القوة التي ذهب فيها علي مبارك . . ولكننا نعلم منه أن قائدها كان أحمد باشا المناكلي . . . ونحن نلتقي بالمناكلي عضواً في المجلس الخاص الموكول إليه تصريف شئون الدولة عند سفر الخديوي إلى الآستانة، كما يتضح من أمر الخديوي بضم ناظر الجهادية إلى هذا المجلس في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٧٠ هـ (١٣ سبتمبر سنة ١٨٥٤ م) . .

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٨٤.

وهكذا . . نجد أن عداء الخديوي سعيد لعلي مبارك قد بدأ فور توليه الخديوية، أي في سنة ١٢٧٠ هـ ثم تصاعد إلى إلغاء المؤسسات التعليمية التي كان يتولى مسئوليتها، والقذف به إلى ميدان حرب القرم في سنة ١٢٧١ هـ!. .

ويصف لنا علي مبارك مشاعر حزنه التي خففت من آلامها مشاعر الحزن التي أبداها نحوه تلاميذه عندما نزل إلى الباخرة في النيل قاصداً الاسكندرية كي يبحر منها إلى ميدان القتال. . فلقد خرج كل تلاميذ المهندسخانة، كبيرهم وصغيرهم «قهراً عن ضباطهم»! ووقفوا على الشاطىء يودعون المعلم الذاهب - منفياً - إلى ميدان القتال. . «وجعلوا يبكون وينتحبون إنتحاب الولد على والده. . حتى بكيت لبكائهم. . . ولكن انشرح صدري لمشاهدة ثمرات غرسي وآثار تربيتي. فحمدت الله!».

سافر مهندس الحرب علي مبارك - بعد أن عزل من مناصبه كمهندس للتعليم - إلى ميدان القتال في حرب القرم، واستغرقت تلك السفرة من عمره ما يقرب من العامين ونصف العام. . أقام منها في القسطنطينية أربعة أشهر، تعلم فيها اللغة التركية، فكانت كسباً جديداً ومفيداً. . ثم ذهب إلى منطقة القرم فأمضى هناك عشرة أشهر، مارس فيها فنه الحربي وأيضاً كفاءته السياسية عندما كلفه مجلس العسكرية بتمثيل الدولة في مفاوضة الروس، فنهض «بشئون المحاورة بين المسكوب والدولة العثمانية» . . . ثم ذهب إلى بلاد الأناضول، حيث أقام ثمانية أشهر، أمضى

معظمها في المدينة الجبلية «كموشخانة» ـ [بيت الفضة] ـ ينظم تحريك القوات المسلحة من مدينة «طرابزان» على البحر الأسود، إلى مدينة «أرض روم».

ولقد أمضى علي مبارك في مهمته هذه فترات طويلة يمارس عمله الشاق في ظروف طبيعية قاسية لم تؤهله لها البيئة الطبيعية التي نشأ فيها. . فهو ابن البلد المنبسط ذي الجو المعتدل يجد نفسه «ما بين جبال شاهقة، وأودية منخفضة. . . وفي وقت الشتاء وشدة البرد والثلج الكثير. . . . فقاسى الشدائد المهمة والأهوال المدلهمة. . .» ولكنه نهض بمهامه بعزم صلب وروح مبدع خلاق. . . ففي مدينة «كموشخانة» شاعت في الجنود أمراض سببتها برودة الجو، وعزت وسائل العلاج، فأنشأ علي مبارك مستشفى عسكرياً بجهود الأهالي الذاتية. . ثم بحث عن طبيب فلم يجد! فاستعان برجل نشأ في مكة، كانت له خبرة في التمريض، جعله يجمع خبرات القوم في علاج مثل هذه الأمراض!. . حتى استطاعوا أن يوفروا لمستشفاهم إمكانيات النهوض برسالتها، الأمر الذي صار موضع إعجاب وتقدير من الرسميين والأهالي على السواء. . ولقد كتب أهالي المدينة وعلماؤها وأراؤها وثيقة وقعوا عليها مع قاضي المدينة يشهدون فيها بالجهد غير العادي الذي بذله علي مبارك في هذا الميدان. . ومهر هذه الوثيقة بخاتمه خالد باشا «مأمور سوق ـ (تحريك) ـ العساكر الثعمانية»!. .

ولقد استطاع علي مبارك أن يجعل لغربته هذه ومعاناته تلك

جوانب إيجابية كثيرة. . فهو قد سافر مديناً فاكتفى في الميدان «بالتعيين»، وادخر مرتبه فسدد منه ديوانه، وادخر ثلاثمائة جنيه!. . وهو قد تعلم لغة جديدة. . واكتسب بأساً ومراناً. . وكما يقول: «فلقد لطف الله بي، وأحسن إليّ، ورد كيد الحاسدين في نحورهم، فإني وإن قاسيت مشاق الأسفار، وما يلحق المجاهدين من الإرجاف والاضطرابات والحرمان من المألوفات، لكن رأيت بلاداً وعوائد كنت أجهلها، وعرفت أناساً كنت لا أعرفهم، واكتسبت معرفة اللغة التركية. .».

وفي ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ م [٢٣ رجب سنة ١٢٧٢ م] انعقد مؤتمر باريس، الذي أنهى حرب القرم[١]. . ثم عاد علي مبارك مع القوات التي سلمت من القتل في هذا القتال.

وكانت المؤامرات الصغيرة، من ذوي النفوس الصغيرة، قد استمرت تلاحق الرجل حتى وهو خارج أرض الوطن. . واستغل أصحابها سذاجة زوجته الغِرّة، ذات الثراء المسلوب، فلما عاد الرجل أنهى علاقته بها بالطلاق!. .

ووجد كذلك، بعد عودته، قصصاً تحكى عدم الوفاء. . فهو قد ترك بالقاهرة أخاً له وابن أخ، كان قد ألحقهما بالمدرسة. . فطردا منها!. . ولم يقف معهما سوى سليمان باشا الفرنساوي

---

(١) بدأت هذه الحرب في ٢ يوليو سنة ١٨٥٣ م [٢٥ رمضان سنة ١٢٦٩ هـ].
انظر الحديث عنها في: محمد فريد [تاريخ الدولة العلية العثمانية] ص ٢٦١ وما بعدها. الطبعة الأولى.

الذي أدخلهما مكتباً خاصاً كان قد افتتحه بمصر القديمة!..
وذلك قبل أن يغرق ابن الأخ في مياه النيل، وعمه في الغربة!.

ووجد أن الخديوي قد فصل زملاءه من الخدمة، ومنهم حماد بك عبد المعطي، وعلي باشا إبراهيم.. فحمد علي مبارك ربه على أنه قد ذهب إلى ميدان القتال، فمقاساة الشدائد أخف على النفس الأبية من رؤية التنكر وعدم الوفاء، ومن معاناة البطالة والفصل من الوظائف والتجريد من المسئوليات!..

ولكن الفصل لم يتمهل... فلقد سرح الخديوي الجنود العائدين من الميدان، وفصل الكثير من ضباطهم، وكان علي مبارك من الضباط المفصولين!..

ووجد البطل العائد من الميدان نفسه عاطلاً.. وفقيراً.. فاستأجر منزلاً صغيراً قليل النفقات، سكنه مع أخيه.. وتطرق إليه اليأس من حلم حياته منذ الطفولة: أن يكون رجل دولة ووصف حاله يومئذٍ فقال: «... كانت حالتي بعد سبع سنين مضت من عودي من بلاد أوربا لحالتي عند عودي منها!.. وذهب ما رأيت من الأموال والمناصب والوظائف، وجميع ما كسبت يداي. ولم يبق بالخاطر غير ما فعل الناس معي من خير وشر! وما أكسبني الزمان من صدماته وغرائب تقلباته، حتى حلى لي لتخلي عن الحكومة وخدمتها، وغضضت طرفي عن التطلع للوظائف والمناصب، وعزمت على الرجوع إلى بلدي والإقامة بالريف والاشتغال بالزرع والتعيش من جانبه، وترك الاشتغال

بالقيل والقال. وقلت: عوضنا الله خيراً في نتائج الفكر وثمرات المعارف! ولنفرض أنا ما فارقنا البلد ولا خرجنا منها؟!..»

وبينما الرجل يتجه بكيانه إلى هذا المنعطف الخطير، يريد أن يدير ظهره لنمط الحياة الذي خاض في سبيله المغامرات، وسهر من أجله الليالي، وأحرز على دربه الانتصارات.. إذا بخيط رفيع ورث يلقي إليه فيجذبه إلى الطريق.. طريق الوظيفة والدولة والحكام.. فلقد صدر الأمر باستدعاء الضباط المعزولين لحضور الفرز في القلعة، كي ينتخبوا منهم الصالح للخدمة فيعودون إليها... فحضر مع الحاضرين.. ولكنه رأى المهانة التي تلحق بمن يتقدم لعملية الفرز.. من مثل فتح فمه كي يحددوا سنه بواسطة الكشف على أسنانه، كما يفعل تجار المواشي في الأسواق مع الحيوانات!.. فعافت نفسه العودة والوظيفة إذا كانت هذه هي طريقها.. وراودته نفسه أن يعدل عن عرضها في هذا المعرض، وليكن ما يكون.. ولكن أحد أعضاء لجنة الفرز ـ أدهم باشا ـ وكانت له معرفة سابقة به ـ أنقذه من هذا المأزق، فكتبه ضمن المختارين للعودة إلى الخدمة، دون أن يدخل في الفحص لبقية المفروزين..

وبعد قليل شغل وظيفة «معاون» بديوان الجهادية ـ [الحربية] ـ ينظر القضايا القديمة المتخلفة.. قضايا الورش والجبخانات ـ [الذخيرة] ـ وغيرها.. فنهض بعمله هذا فترة من الزمن..

وعهد الخديوي سعيد إلى ناظر ديوان الجهادية - [وزير الحربية] - إسماعيل باشا الفريق بوضع رسم لبعض المناورات العسكرية، ولكنه عجز عن إنجاز الرسم، فاستعان بعلي مبارك، الذي أنجزه له في سرعة وإتقان!.. فطلب إسماعيل باشا الفريق من علي مبارك التوقيع باسمه على الرسم، ووعده بأن يذكره بالخير عند الخديوي.. ولكن الرجل رجا ناظر الجهادية أن لا يفعل ذلك، فهو لا يريد لاسمه ذكراً عند الخديوي، لأنه لا يتوقع غير الشر من هذه الأبواب!.. ولكن الفريق أنبأ أنه يتوقع له غير ذلك... فلما أطلع الخديوي على رسم المناورات، وعلم بقصته، أمر بنقل علي مبارك إلى «مستودعي الداخلية»، فمكث زمناً يحقق القضايا، كما كان يصنع بديوان الجهادية!..

ثم نقل من الداخلية ليتولى وظيفة مجلس التجار، كي يحقق قضاياهم ويبت فيها.. وخلف في هذه الوظيفة رجلاً أرمنياً، كان له نفوذ أوصله إلى الخديوي، فاستطاع به عزل علي مبارك، والعودة إلى مكانه.. ولم ينفع علي مبارك تأييد التجار الذين لمسوا عدله وسرعة إنجازه للأمور.. فعاد إلى منزله معزولاً.. ومكث هكذا لثلاثة شهور!..

ثم عين مفتش هندسة، يتولى الإشراف على نصف الوجه القبلي.. ولكنهم عادوا فعزلوه من هذه الوظيفة بعد شهرين فقط.. وعينوا مكانه زميله علي إبراهيم!..

وأراد الخديوي سعيد عمل رسومات للاستحكامات

العسكرية المزمع إقامتها في «أبو حماد» ـ قرب رشيد ـ فاستدعى علي مبارك، وعهد إليه بعمل هذه الرسومات. . فنهض بالعمل فيها، ولكن بلا مرتب وبلا وظيفة!.. ولما فرغ من عمل الرسومات حفيت أقدامه كي يتمكن من لقاء الخديوي لعرض الرسم عليه، فلم يتمكن ـ أو لم يمكن ـ من ذلك!.. ذهب إلى الخديوي في «طره»، وتردد على بابه أياماً فلم يمكنوه من لقائه... فلما ذهب إلى قصر النيل، عاد فكرر هناك المحاولات، ولكن دون جدوى... فلما سافر إلى الاسكندرية، سافر خلفه، فلاحقه الفشل في اللقاء!.. فعاد إلى مصر.. واستسلم للبطالة، ونفدت من يده النقود، فعاد يكرر محاولات لقاء الخديوي ـ بعد عودته إلى القاهرة ـ ولكن دون جدوى.. وأخيراً قال له مأمور التشريفات: «كن معنا على الدوام لعلك تجد فرصة في وقت من الأوقات!..» فلازم حاشية الخديوي ثلاثة أشهر، ولكن دون مرتب أو عمل!.. ينتقل معهم، خلف الخديوي، من بلد إلى بلد ومن موقع إلى موقع ومن قصر إلى قصر.. حتى كان يوماً، بالجيزة فوقع نظر الخديوي عليه، فناداه، وسأله عن الرسم، فقدمه إليه، فنظر فيه قليلاً، ثم قال له: «دعه، حتى نجد وقتاً لإمعان النظر فيه!..» ولم يأت هذا الوقت.. ولكنه أمر بأن يصرف له مرتب منذ ذلك اللقاء!.. لقد أصبح واحداً من رجال المعية العاطلين، إلا من قبض المرتبات!.. ولكن الرجل كانت تؤلمه البطالة كما يخيفه الفقر والإفلاس!..

وطلب الخديوي من أدهم باشا الإشراف على مشروع لمحو

أميـة الضباط وصف الضبـاط، وتعليمهم القراءة والكتـابة والحساب. . والتقى أدهم باشا في «مريوط» بعلي مبارك، فسأله عن من يعرف من المعلمين الصالحين لمشروع محو الأمية هذا؟. . ففوجىء بالرجل يرشح نفسه للعمل بهذا المشروع!. . وظن أدهم باشا أن علي مبارك يمزح، إذ كيف يشتغل رجل في مثل علمه وتخصصه - [وهو الذي تولى من سنين نظارة ديوان المدارس (وزارة المعارف) كلها] - معلماً للقراءة والكتابة والحساب؟!. . ودار بينهما هذا الحوار:

- أترضى أن تكون معلماً لهؤلاء؟!
- **وكيف لا أرغب انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن، وبث فوائد العلوم؟!. . فقد كنا مبتدئين نتعلم الهجاء، ثم وصلنا إلى ما وصلنا إليه!. .**

فعرض أدهم باشا الأمر على الخديوي. . فأسند الإشراف على المشروع إلى علي مبارك، فكون فريقاً للعمل، ورتب مواد التعليم، وطريقته، ثم شرعوا في التنفيذ. . فكان يعلم في الخيام. . ويتخذ من الأرض والبلاط أماكن للكتابة، يكتب بالفحم على البلاط أو يخط في التراب!. . فلما تخرجت منهم دفعة، جعل نجباءهم عرفاء انضموا إلى فريق المدرسين. . ثم أدخل في برنامج التدريس مادة الهندسة. . وألف لهم كتاباً يدرسون منه مواد الحساب والهندسة وطرق الاستكشافات العسكرية هو كتاب [تقريب الهندسة]. . ولما اطلع عليه

الخديوي كتب إلى راغب باشا، ناظر المالية في ٢ يناير سنة ١٨٦١ م [١٩ جمادي الآخرة سنة ١٢٧٧ هـ] يقول: «قد اطلعنا على الكتاب المسمى [تقريب الهندسة]، الذي ألفه وحرره علي مبارك بك، المهندس العسكري بمعيتنا، لتسهيل وتقريب الهندسة لأذهان المبتدئين، وحيث أنه في الواقع مؤلف مختصر مفيد في فن الهندسة، فبناء عليه قد اقتضت إرادتي طبع خمسمائة نسخة منه في مطبعة الحجر التي بمطبعة بولاق. وحيث إن الكتاب المذكور سيرسل إليكم من طرف المير الموما إليه، فبناء عليه يجب إجراء تصليح وتصحيح عباراته بمعرفة صالح مجدي أفندي مترجم الكتب العسكرية. وتجب أيضاً المبادرة بطبع النسخ المار ذكرها وإرسالها إلى هذا الجانب لتوزيعها على ضباط العساكر. وقد حررنا لكم هذا لإتباعه»[١].

فطبعته مطبعة الحجر، التي سبق أن أنشأها علي مبارك أيام الخديوي عباس الأول.. وشرع في تأليف كتاب للضباط عن فن الاستحكامات وتسيير [تحريك، وسوق] الجيوش، وترتيبها، وكيفية الحرب.. الخ.. فأنجز منه فصولاً[٢]... وفي أوقات فراغه اشتغل بالمطالعات في الهندسة، فجمع المادة التي ألف منها كتابه [تذكرة المهندسين].. وهكذا حول هذا المعلم المقتدر مشروع «محو الأمية» إلى ما يقرب من «كلية حربية» للضباط وصف الضباط؟!.

---

(١) [تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٣٦٤.

(٢) لقد ضاعت أصول الأجزاء التي ألفها من هذا الكتاب، وهي مخطوطة.

وتزوج علي مبارك.. واشترى منزلاً في «درب الجماميز» وشرع في بنائه وتعميره، بعد أن أصبح له راتب يضمن لحياته الاستقرار..

وفي مايو سنة ١٨٦٢ م [ذي القعدة سنة ١٢٧٨ هـ] اعتزم الخديوي سعيد السفر إلى أوربا، للسياحة، وقبل سفره أصدر أمره بفصل أغلب رجال معيتة ـ [حاشيته] ـ فكان علي مبارك ـ مرة أخرى ـ من المفصولين!.. فعاد إلى حياة الفقر والفاقة من جديد.. وزاد الفقر شدة هذه المرة ما اقتضاه تعمير المنزل الذي اشتراه بدرب الجماميز من نفقات!..

ولكن الصدفة جعلت الرجل الذي ارتبطت فوائده بالتوسع في الإنشاء والبناء يحقق الاستفادة من الاتجاه إلى الانكماش!.. فلقد أخذت الحكومة تبيع، في المزاد، أدوات المدارس وأثاثاتها والمكتبات وآلات المعامل وما شابهها!.. وكان المشرف على عملية البيع هذه إسماعيل باشا الفريق ـ وهو من معارف علي مبارك ـ فأغراه بالدخول في سلك التجار المشترين، كي يحقق لنفسه دخلاً يحل له ما يعاني من اختناقات في أمور العيش.. فذهب الرجل، مشترياً، إلى مواطن البيع، ببولاق وغيرها، ورأى من بين معروضات البيع الأدوات الثمينة لمدرسة المهندسخانة ـ التي كان ناظرها! ـ من الكتب والآلات.. ورأى كذلك: الفضيات، والمرايا، والساعات، والمفروشات.. الخ.. الخ.. كلها تباع بأبخس الأثمان.. وبالأجل.. والسداد على أقساط.. وعلى

أقساط تخصم من المرتبات الشهرية لمن لهم مرتبات!.. فاشتغل الرجل تاجراً، مدة شهرين.. وقادته التجارة إلى التفكير في تكوين شركة لإقامة المباني السكنية.. وكتب عن هذا الطور من أطوار حياته يقول: «لقد «عاملت التجار، وعرفتهم وعرفوني، وكثر من الشراء والبيع، فربحت، واستعنت بذلك على المصروف وأداء بعض الحقوق، فازدادت عندي دواعي التجارة، وصارت مطمح نظري، وقصرت عليها فكرتي، خصوصاً لما تقرر عندي من اضطراب الأحوال وتقلبات الأمور التي كادت تذهب مني ثمرات المعارف والأسفار! بحيث كلما تقدمت في العمر وكثرت العيال كنت أرى التقهقر ونفاد ما استحوذت عليه، فآثرت حرفة التجارة على حرفتي الأصلية، وصرفت النظر عن الخدمة الأميرية. وقام بخاطري أن أعقد شركة مع بعض المهندسين المتقاعدين مثلي على أن نبني بيوتاً للبيع والتجارة، ونستعمل فيها أفكار الهندسة، فلم أر من يوافقني، فهممت بالقيام بذلك بنفسي، وشرعت في العمل!..»

هكذا.. هم علي مبارك منذ خمس سنوات - سنة ١٨٥٧ م - أن يتحول من معلم ورجل دولة وقائد حرب إلى فلاح... وها هو الآن - سنة ١٨٦٢ م - يقرر التحول إلى ميدان التجارة وعالم المقاولات؟!..

- ٧ -

لكن الخديوي سعيد ينتقل إلى جوار ربه في ١٨ يناير سنة

١٨٦٣ م (٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ هـ) ويتولى الحكم في ذات اليوم الخديوي إسماعيل.. فتمتد إلى علي مبارك حبال متينة من الأمل الفسيح، تدعوه إلى وداع اليأس والقنوط، والدخول إلى ميدان جهاز الدولة من جديد كي يحقق به ومن خلاله أعظم الآمال التي طالما حلم بتحقيقها لوطنه وأهله في مختلف الميادين!..

فالخديوي إسماعيل هو زميل علي مبارك في بعثة الأنجال بباريس.. ويبدو أن الأمراء في تلك البعثة كانوا معجبين بالنبوغ والخلق اللذين امتاز بهما علي مبارك، فالذي سبق وحدث عباس الأول عنه هو الأمير أحمد، أخ الخديوي إسماعيل.. وفوق هذا وأهم.. فإسماعيل، مثل علي مبارك، تفتح على الحضارة الأوربية، وتحلى بعقل مستنير، وهو يتطلع لوصل ما انقطع من تجربة محمد علي وابراهيم باشا في الاستنارة والتقدم والإصلاح.. إنه يريد - كما قال - أن يجعل مصر قطعة من أوربا!.. ومن ثم فلا بد له من الاعتماد على الرجال الذين بعث بهم محمد علي كي يتعلموا في أوربا، ويصنعوا، بالعلم والعقل، مصر الحديثة ويقظة الشرق الجديد.. ومضافاً إلى ذلك أيضاً أن إسماعيل - رغم إمارته ومكانته في البيت الحاكم - قد جرب العيش مضطهداً.. فلقد وقع عليه الغبن في عهد عباس الأول، بعد إعادته من البعثة، فسافر إلى الآستانة، وعمل هناك، ونال من السلطان رتبة الباشوية، ولم يعد إلى مصر إلا في عهد سعيد.. إنه حاكم متميز، يمثل توليه السلطة علامة متميزة في

تطور مصر الوطني والديمقراطي . .

● فهي تصبح «خديوية جليلة» بعد أن كانت «ولاية» . . في ٨ يونيو سنة ١٨٦٧ م (٥ صفر سنة ١٢٨٤ هـ) . . ثم تستكمل أغلب عناصر استقلالها ومظاهرة بفرمانات سنة ١٨٧٢ م.

● وهي تنعطف إلى الحكم الديمقراطي، نسبياً، عندما يصدر إسماعيل في ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٦ م (١٢ جمادي الآخرة سنة ١٢٨٣ هـ) أمره العالي باتخاذ الإجراءات لانتخاب مجلس الشورى **« . . حيث أن مجالس الشورى شوهدت منافعها ومحسناتها الجليلة في الممالك المتمدنة . . . وما القصد من هذا إلا التشاور والتعاون على عمارية ومدنية الوطن والإقتطاف من ثمار مآثر انضمام الآراء في الأمور النافعة . . » . .** ويوضع هذا الأمر موضع التنفيذ، ويفتتح المجلس في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ م (١٧ رجب سنة ١٢٨٣ هـ) . .

● وهي تواصل جهود محمد علي وإبراهيم باشا في التوسع التعليمي، والإكثار من البعوث إلى أوربا، وتعيد فتح المؤسسات التعليمية التي أغلقها عباس الأول وسعيد . . وتزيد عليها الكثير . . وتلتفت إلى نصف شعبها ـ النساء ـ فتولى تعلم البنات عناية ارتادت بها في الشرق هذا الميدان[1] . .

---

(١) [تقويم النيل] المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٤٤٢، ٧١٢، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٧١، والمجلد الثالث من الجزء الثالث ص ١٥٧١.

ومن ثم فلقد فتح عصر إسماعيل أبواب الأمل وميدان العمل لكل عقول عصر التنوير وسواعده.. وفي مقدمتهم علي مبارك..

ولقد استدعى إسماعيل علي مبارك، فور توليه الخديوية، والحقه بحاشيته وخاصته في وظيفة «مهندس معية سنية»، وعهد إليه قيادة مشروعه المعماري العمراني: إعادة تنظيم القاهرة على نمط حديث، بشق الشوارع الواسعة، وإنشاء الميادين، وإدخال الشرائط الصحية، من حيث النور والتهوية، إلى كثير من الحارات والدروب التي قامت في العصور الوسطى كيفما اتفق أو لدواعي الأمن ضد اللصوص والمماليك!

وكانت القناطر الخيرية تعاني مشكلات فنية وعملية أدت إلى احتجاب المياه اللازمة لري الأراضي الواقعة على الفرع الشرقي من فرعي النيل، فأصدر الخديوي أمره إلى ناظر الجهادية في ١٠ يوليو سنة ١٨١٣ م (٢٣ محرم سنة ١٢٨٠ هـ) «بتعيين علي مبارك بك ناظراً للقناطر الخيرية، مع بقاء الأشغال الموجودة بيده والمتعلقة ببعض التنظيمات لبلدة مصر - [العاصمة] - في عهدته لتسويتها وإتمامها..» وأعطيت له، في هذا الأمر، صلاحيات مطلقة، يمارسها مع فريق العمل الذي كونه لإنجاز عمله هذا.. من مثل فرز عهده القناطر، وفصل من يرى فصله من العاملين بها «وتعيين وانتخاب رجال أمناء بدلهم.... وإنزال المدافع الموجودة هناك من فوق قواعدها وإجراء الترميمات اللازمة لها... والنظر في أمر المهندسين والمستخدمين الموجودين هناك، واستخدام اللازم منهم في محله وفصل الذين يتحقق

عدم لزومهم.. الخ....»[1] فكان أول مهندس مصري يتولى نظارة هذا المرفق الحيوي، الذي ظل بيد المهندسين الفرنسيين منذ إنشائه حتى ذلك التاريخ.

ودرس علي مبارك مشاكل القناطر، وقدم لها الحلول التي وافق عليها الخديوي، فتدفقت المياه إلى فرع النيل الشرقي لتحيي أرضه وزراعاته، خاصة في زمن الصيف.. ولقد كافأه الخديوي، فأنعم عليه بثلاثمائة فدان في ١٦ إبريل سنة ١٨٦٤ م (٩ ذي العقدة سنة ١٢٨٠ هـ) باعتباره ناظر القناطر الخيرية[2]..

وعندما حفر رياح المنوفية.. عهد الخديوي إلى «مهندس المعية» الإشراف على عمل قناطره ومبانيه.. فأنجزها.

وأنشأت الحكومة «قلم الهندسة»، وعينت علي مبارك ناظراً له.

ثم صدر أمر الخديوي إلى ديوان الأشغال العمومية في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٦٤ م (٢٨ رجب سنة ١٢٨١ هـ) بتأليف هيئة هذا الديوان من سبعة، كان ثانيهم علي مبارك، وكان ناظر هذا الديوان: نوبار باشا، ووكيله مظهر باشا[3]. وعندما قام هذا الديوان بمفاوضة الشركة الأوربية التي أدخلت الإنارة للقاهرة ـ «إنشاء عمارة معمل التنوير بالغاز» كان علي مبارك هو ممثل الحكومة في هذه المفاوضات،

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٥٠٢.
(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٥٤٢.
(٣) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث ص ٥٨٤.

ووقع العقد مع الشركة. في ١٥ فبراير سنة ١٨٦٥ م (٢ رمضان سنة ١٢٨١ هـ)[١]..

وفي النزاع بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس حول الأراضي التي طلبت الحكومة استرجاعها من المساحة الممنوحة للشركة في عقد الامتياز، اتفق ـ بناء على مقترحات أمبراطور فرنسا ـ على كوين هيئة ـ [قومسيون] ـ لبحث موضوع النزاع ووضع صيغة للاتفاق، وتألف القومسيون من ممثلين لمصر وفرنسا والدولة العثمانية وشركة قناة السويس.. وكان علي مبارك هو ممثل مصر في هذا القومسيون.. فأنجز مهمته، وعقد الاتفاق حول موضوع النزاع في ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ (١٢ رمضان سنة ١٢٨٢ هـ).. ومنح الخديوي عا. [illegible]، لذلك، رتبة المتمايز، والنيشان المجيدي، من الدرجة الثالثة، كما منحه أمبراطور فرنسا نيشان [أوفسيه ليجيون دونور][٢]..

ويبدو أن عمل علي مبارك في القومسيون هذا قد شغل وقته كله، أو معظمه، وهو بالقطع قد أبعده عن مكان القناطر الخيرية، ولذلك وجدنا أمراً صادراً من الخديوي إلى ناظر الجهادية بتخلي علي مبارك عن نظارة القناطر في ١٢ يناير سنة ١٨٦٦ م (٢٤ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ)، مع بقائه في وظيفة «مهندس معية سنية».. ولكن هذا

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص (أ) ملحق سنة ١٢٨١ هـ (عقب ص ٦٠٧).

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص (أ) ملحق سنة ١٢٨٢ هـ (عقب ص ٦٤٢) و[الخطط]..

الأمر يحدد أن تخليه هذا إنما هو بصورة مؤقتة. . «. . فبناء عليه. . يجب انتخاب كفء من نظارة الأشغال لاستخدامه في الوظيفة المذكورة بصورة مؤقتة بدلاً منه. . ». . ولقد اختير لنظارة القناطر المهندس إسماعيل أفندي. . ثم عاد الخديوي فرد النظارة على القناطر إلى علي مبارك في ٤ يوليو سنة ١٨٦٦ م (٢٠ صفر سنة ١٢٨٣ هـ) عندما أصدر أمره «بأقالة إسماعيل أفندي، مهندس القناطر الخيرية، وإحالة هذه المأمورية على علي مبارك بك، علاوة على مأموريته. . » في معية الخديوي[1]. .

وفي عديد من وثائق لدولة ومحاضراجتماعاتالمجلس الخصوصي [الذي كان بمثابة الحكومة] - نلمح اقتراحات علي مبارك - بصفته «مهندس المعية» - في ميادين الري والأشغال، ونلمس صداها في قرارات الخديوي وتوصيات المجلس الخصوصي[2]. .

وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٧ م (١٣ جمادي الآخرة سنة ١٢٨٤ هـ) أضيف إلى مناصب علي مبارك منصب وكيل ديوان المدارس، الذي كان يرأسه شريف باشا، وحدد الخديوي: ملاحظة المكاتب الأميرية والأهلية في القطر، وإصلاح أمرها، مجالاً لعلي مبارك في هـذا الديوان. . فعاد المعلم، مرة أخرى، إلى ميدانه الحبيب. . فوضع لائحة المدارس، التي أقرها القومسيون الذي ألفه الخديوي لذلك،

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٦٣٦، ٦٥٠.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث ص ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٩٠.

وصدر بها أمر الخديوي في ٩ مايو سنة ١٨٦٨ م (١٦ محرم سنة ١٢٨٥ هـ).. ثم لم يلبث أن أصبح رئيساً لديوان المدارس هذا - [أي ناظراً (وزيراً) للمعارف] - في ٧ نوفمبر سنة ١٨٦٧ م (١٠ رجب سنة ١٢٨٤ هـ)[١].

وانتدبه الخديوي للسفر إلى باريس في مهمة مالية، استغرقت خمسة وأربعين يوماً، فانتهز الفرصة للإطلاع على ما في باريس من نظم للمدارس، وفهارس للتعليمات واللوائح والأوامر، ومكتبات.. كما اهتم في الجانب العمراني والصحي - بما فيها من وسائل بصرف الفضلات ومياه الأمطار، إذ كان يفكر في إنشاء نظير لها في القاهرة - للمرة الأولى - حتى لقد نزل، بصحبة المهندسين الفرنسيين، في قارب خاص إلى باطن الأرض، فجال في «مجاري» باريس، ودرس مشروعها على الطبيعة[٢]!..

وفي ١٥ إبريل سنة ١٨٦٨ م (٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٨٤ هـ) أضيف إلى مناصبه منصب مدير ديوان الأشغال.. وفي ذات التاريخ (١٤ إبريل سنة ١٨٦٨ م) انفصلت من اختصاصاته إدارة المدارس الحربية، فتبعت نظارة الجهادية، واستقل هو بإدارة المدارس الملكية - (المدنية) - بعد استقلالها.

وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٨ م (٢٤ جمادي الآخرة سنة ١٢٨٥ هـ) أضيفت إلى مسئولياته مسئولية جديدة هي مأمورية إدارة «مصلحة

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٧٢٢، ٧٢٦.

(٢) [الخطط].. ترجمته الذاتية، في الحديث عن بلدة «برنبال»..

المرور» [السكة الحديد] ـ.. وتمكيناً له من الوفاء بأعباء مسئولياته العديدة، عين الخديوي لمعاونته وكيلاً للأشغال العمومية، وآخر للمدارس، وثالثاً للسكة الحديد..

وفي نفس التاريخ - [١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٨ م] - أنعم عليه الخديوي برتبة «المير ميران الرفيعة... بناءً على أهليتكم ولياقتكم المسلم بها!..».

وفي ٢٥ يناير سنة ١٨٦٩ م (١١ شوال سنة ١٢٨٥ هـ) أضيفت إليه نظارة عموم الأوقاف..

ولقد استعان الرجل على إدارة هذه المسئوليات العديدة ـ إلى جانب الجلد والمثابرة والكفاءة ـ بالنظام والتنظيم ـ فهو قد جمع مقار الدواوين المتفرقة في مبنى واحد ـ [سراي درب الجماميز] ـ ووزع وقته في هذا المبنى ـ من الصباح إلى الظهر ـ بين هذه الدواوين... ومن بعد الظهر إلى الغروب في إدارة السكة الحديد[1]..

ولقد التفت علي مبارك ـ وهو الفلاح الذي عانى من تخلف التعليم بالريف وفساده وندرته ـ التفت إلى هذا الميدان، فوضع لائحة لتنظيم المكاتب الأهلية وتطويرها، وذلك حتى تصبح على نسق المدارس المنتظمة، وأشرك في بحث مشروعه «جماعة من أعلام العلماء والأعيان النبهاء، فنظروا فيه، واستحسنوه، وصدر الأمر الخديوي» بالعمل به، وعين لرعاية العمل بموجبه مفتشون..

---

(١) المصدر السابق. و[تقويم النيل] المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٦٩٥، ٧٧٩، ٧٩٠، ٨٠٢.

ووفقاً لهذه اللائحة أنشئت المكاتب الجديدة في العاصمة والاسكندرية، والمدن الإقليمية الكبرى، كما نشأ أول مكتب لتعليم البنات في حي [الغربية] سنة ١٨٧٢ م. وآخر في حي [السيوفية]. . كما أنشئت لديوان المدارس مطبعة حروف، وأخرى حجر، لطبع الكتب المدرسية، والخرائط والخطوط والرسوم.

وفي إبريل سنة ١٨٦٩ م (ذي الحجة سنة ١٢٨٥ هـ) اكتشفت قنبلة تحت المقعد الخاص بالخديوي إسماعيل في دار «التياترو» المصري - [المسرح] - واتجهت الشبهات إلى عدد من رعايا الدول الأجنبية، ومنهم بعض اليونانيين - وكانت مصر تقف مع الدولة العثمانية ضد تمرد اليونانيين -. . فانعقد «قومسيون مخصوص» من ممثلي الدول التي حامت الشبهات القوية - بعد التحقيق - حول نفر من رعاياها لمحاكمة المتهمين، ورأس علي مبارك هذا القومسيون المخصوص. . وقرر القومسيون - الذي اجتمع من ١ حتى ٨ مايو سنة ١٨٦٩ م. قرر نفي «ميناس» ناظر التياترو، واثنين من الإيطاليين هما: زوزف قاريوتي، وأريقوزاناس. . كما قرر عدم كفاية الأدلة للحكم في الأمور الجنائية[1]. .

---

(١) [تقويم النيل] المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨١٥، ٨١٦ [ويذكر صاحب تقويم النيل - وهو ينقل عن عدد [الوقائع المصرية] ٢٩٤ الصادر في ١٣ مايو سنة ١٨٦٩ م [غرة صفر سنة ١٢٨٦ هـ] - أن اجتماع القومسيون كان في المدة من ١ حتى ٨ مارس. ونعتقد أنه خطأ، لأن الحادث وقع في إبريل، فلا يعقل أن يكون الاجتماع في مارس!.

وفي ٦ مايو سنة ١٨٦٩ م صدر أمر الخديوي إلى علي مبارك ـ ناظر الأشغال ـ بالنهوض بمهام ستة تتعلق بتنظيم العاصمة: شوارعها، وميادينها، وأسواقها. . وذلك حتى تكون مرافقها تلك على «أمثال ذلك بأوربا. .»

وفي ٩ مايو سنة ١٨٦٩ م (٢٧ محرم سنة ١٢٨٦ هـ) اعتمد الخديوي العقد ـ [القونطراتو] ـ المعقود بين علي مبارك، ممثل الحكومة ـ الأشغال ـ وبين مسيو جانجيه (وكيل شركة فيواليل) لبناء كوبري قصر النيل بمبلغ ٢,٧٥٠,٠٠٠ فرنك[1]. .

وعقب هذا التاريخ يبدو أن الخديوي نقل مسئولية نظارة الأشغال العمومية من علي مبارك إلى لينان بك ـ وإن كانت الوثائق لا تسعفنا باليوم والشهر الذي حدث فيه هذا التغيير. ولكننا نجد أمراً صادراً من الخديوي في ٢٩ يوليو سنة ١٨٦٩ م (١٩ ربيع الثاني سنة ١٢٨٦ هـ) يطلب «إحالة النظارة المذكورة إلى عهدة صاحب السعادة علي مبارك باشا كما كانت قبلاً، وإدارتها بواسطته. .» وفي نفس التاريخ نجد أمراً خديوياً صادراً لعلي مبارك باشا، «ناظر الأشغال العمومية والأوقاف والمدارس»، يقول: «إننا قد استحسنا إحالة مأمورية الأشغال العمومية إلى عـهدتكم، كما كانت قبلاً. . . فيجب أن تظهروا الهمة والغيرة في رؤية وتسوية أمور المأمورية المذكورة وحسن إدارتها بمقتضى أهليتكم ودرايتكم المعلومة والمجربة. . .».

وفي نفس الأمر الخديوي تقرر فصل إدارة السكة الحديد عن

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨١٣ ـ ٨١٥.

مسئوليات علي مبارك، وإسنادها إلى عمر لطفي باشا.. «لأن بقاء مصلحة السكة الحديدية، المهمة والجسيمة، في عهدتكم، فوق الأمور والمصالح الهامة المعهودة إليكم، أمر صعب....»[1].

ولكن الخديوي عاد، بعد أقل من شهر - [في ٢٢ أغسطس سنة ١٨٦٩ م - ١٤ جمادي الأولى سنة ١٢٨٦ هـ] - فأسند إدارة السكة الحديدية مرة أخرى إلى علي مبارك، لأنها «على جانب عظيم من الأهمية والجسامة، ولأن حسن إدارتكم وتصرفكم مشهور في هذا الباب. فبناءً عليه قد استصوبنا إحالة إدارة السكك الحديدية إلى عهدتكم، كما كانت قبلاً. فالمنتظر أن تقوموا بإدارتها وحسن تنظيمها لتكللوا خدماتكم المشكورة السابقة..»[2].

وفي ١٤ أغسطس سنة ١٨٦٩ م [٦ جمادي الأولى سنة ١٢٨٦ هـ] استصدر علي مبارك أمراً من الخديوي بإنشاء دار الكتب القومية، فقامت، بالقاهرة، مرة ثانية، تلك المؤسسة الفكرية - العامة والهامة التي افتقدتها البلاد منذ زوال الدولة الفاطمية، وجمع فيها التراث الفكري الذي كان مبعثراً في المساجد والمكاتب والمدارس والمكتبة الخديوية.

وفي ٢٨ أغسطس سنة ١٨٦٩م [٢٠ جمادي الأولى سنة ١٢٨٦ هـ] أصدر الخديوي أمره إلى نظارة المالية باعتماد المبالغ اللازمة

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٢٤.
(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٢٦.

لتنفيذ مشروع علي مبارك الخاص بطبع خريطة السودان في باريس[1]. .

ومرة أخرى توحي الوثائق ـ رغم غيبتها ـ بأن نظارة الأشغال قد أخذت من علي مبارك عقب هذا التاريخ ـ أما متى فلا ندري ـ لأننا نجد هذه النظارة تعود إليه مرة أخرى ـ منضمة إلى الأوقاف والمدارس ـ في ٩ يناير سنة ١٨٧٠ م [٦ شوال سنة ١٢٨٦ هـ][2]. . . وهناك احتمال أن يكون سبب تخلي علي مبارك عن الأشغال في تلك الفترة هو تفرغه لترتيب لوازم الاحتفال العالمي الذي إقامته مصر في نوفمبر سنة ١٨٦٩ م [شعبان سنة ١٢٨٦ هـ] بمناسبة افتتاح قناة السويس. . فعلي مبارك يحكي لنا في [الخطط] أن الخديوي قد أسند إليه تلك المهمة، بما اقتضت من تهيئة الطرق والقصور والفنادق والحدائق وسبل المواصلات ـ وخاصة السكك الحديدية ـ كي تبدو مصر أمام الملوك والأباطرة والعظماء الذين دعوا إلى هذا المهرجان الدولي جديرة بالطريق العصري الذي سلكته تحت قيادة إسماعيل. . ولقد أنجز علي مبارك مهمته هذه على نحو رائع، حتى لقد استحق ثناء الجميع. . وأنعم عليه الخديوي بالنيشان المجيدي، من الطبقة الأولى. . كما منحه أمبراطور النمسا نيشان «غرانقوردون». . أما أمبراطور فرنسا فإنه أهداه نيشان «كماندور»، وأهدت إليه الدولة البروسية نيشان «غرانقوردون». . كل ذلك إعجاباً وتقديراً لوجه مصر

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٢٧.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٠٨.

المشرق والمشرف الذي جلاه أمام ضيوفها في هذا المهرجان.

ومن أمر صادر من الخديوي إلى ناظر الداخلية في ٣١ يناير سنة ١٨٧٠ م [٢٨ شوال سنة ١٢٨٦ هـ] نفهم أن علي مبارك كان مصاحباً في تلك الفترة «لسفير دولة أنجلترة، بصفة مهمندار...» وأن عليه ـ بصفته «المأمور لتقدير وتثمين الأملاك والأماكن المتعلقة بالحكومة المصرية في طرفي القنال وفي بور سعيد والإسماعيلية» ـ وهي الأرض التي كانت موطن نزاع بين الحكومة وبين شركة قناة السويس، والتي اتفق على حسم نزاعها في العام الماضي...

لقد كان على علي مبارك أن يتوجه، بعد انتهاء مأمورية صحبته للسفير الإنجليزي «ليقوم بتقدير وتثمين الأملاك المذكورة.... بصورة لا تبقى مجالاً للتنازع بين الطرفين في المستقبل، ومطابقة لأحكام الاتفاق....»[1].

ولقد أعطى علي مبارك اهتماماً خاصاً لإصدار مجلة علمية وفكرية، تكون ميداناً لفكر الأساتذة والعلماء ـ المصريين والأجانب ـ الذين يخدمون مصر، وتكون مركز جذب لنجباء الطلاب والمتأدبين... وعهد بالإشراف عليها إلى رفاعة رافع الطهطاوي... فصدرت باسم [روضة المدارس] في ١٧ إبريل سنة ١٨٧٠ م [منتصف المحرم سنة ١٢٨٧ هـ].. وتكونت لإصدارها هيئة هي أشبه ما تكون «بالمجمع العلمي والفكري»، وزعت فيه المسئوليات على أساس التخصص

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٤٩.

العلمي والفكري، ورأس كل فن أكبر علماء مصر به في ذلك التاريخ . . ولقد استمر صدور هذه المجلة العملاقة مدة ثمان سنوات . .

وظهرت آثار الإدارة الحسنة من قبل علي مبارك لمصلحة السكة الحديدية، فزادت ، إيراداتها وكثرت أرباحها . . فصدر أمر الخديوي بمكافأته في ٢٢ إبريل سنة ١٨٧٠ م (٢٠ محرم سنة ١٢٨٧ هـ) قائلاً: « . . حيث صرنا ممنونين من مساعيكم الجميلة، خصوصاً في إصلاح إدارة السكة الحديد، حتى ظهرت مزايا ذلك الإصلاح بتكثير الإيراد والأرياح، فقد أحسنا إليكم بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه تأخذوه من إيراد السكة الحديد! . . . »[١].

ولكن زيادة إيرادات السكة الحديدية قد أغرت ناظر المالية إسماعيل صديق باشا (المفتش) ـ وكان الرجل الثاني في الدولة بعد الخديوي، من حيث النفوذ[٢] ـ بأن يضم إيراداتها إلى ديوان المالية،

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٦٠.

(٢) كان اسماعيل صديق [١٨٧٦م] رجلاً نبيهاً، وإن لم يكن على درجة عالية من التعليم. . وكان حزبه يضم كثرة من رجال الدولة الذين لم يحصلوا قدراً كبيراً من التعليم ـ على عكس علي مبارك وأمثاله ـ كما اشتهر ببيع المناصب الادارية ـ خصوصاً أيام كان مفتشاً لعموم القطر ـ لقاء الرشا والاتاوات. . ولقد بلغ ثراؤه حداً فاق الخيال. . وعند نكبته واغراقه في النيل ـ عندما اختلف مع الخديوي ـ قدرت ممتلكاته بأكثر من ٣٠,٠٠٠ فدان من أخصب أراضي مصر، وثلاثة قصور بالقاهرة يحيط بها سور يحتوي مساحة تناهز مساحة الأهرامات الثلاثة. . وقصر على تراعة المحمودية. . ومجوهرات قيمتها =

على أن تظل إدارتها بيد علي مبارك!.. فرفض علي مبارك ذلك، وطلب أن تكون الإيرادات تابعة لمن تتبعه الإدارة، فسعى ضده إسماعيل صديق، بنفوذه الطاغي، لدى الخديوي، فبدأت حركة عزل علي مبارك من مناصبه بالتدريج، حتى جرد منها، وعاد إلى بيته عاطلاً!..

ويذكر علي مبارك ـ وهو يؤرخ لنفسه في [الخطط] ـ أن هذا الخلاف قد حدث في سنة ١٢٨٨ هـ.. ولكن، يبدو أن الرجل كان يؤرخ من الذاكرة أحياناً، وخاصة فيما يتعلق بالتواريخ، لأن الوثائق الرسمية، كما وردت في [تقويم النيل]، ترصد تطورات هذا الخلاف وتلك الأزمة على النحو التالي:

في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ م (٢٣ جمادي الآخرة سنة ١٢٨٧ هـ) صدر أمر من الخديوي إلى علي مبارك بفصل إدارة السكة الحديدية من عهدته وإسنادها إلى عمر لطفي.. «حيث كان لا يخفاكم أن مصلحة

= ٦٥,٠٠٠ جنيه انجليزي.. وأسهم وأوراق مالية تربوا على ٥٠٠,٠٠٠ جنيه.. وجواري يزدن في العدد عن ٧٠٠ «ما بين حورية شركسية بيضاء، ذات ثمن يفوق كل تقدير، وخمرية مسكرة، وسمراء غانجة، وحبشية. شعرية ذات أعين بقرية، وبرنزية موشومة ذات نهود سفر جلية، وسوداء فحماء متقدة الدم الهائج!!..» أما زوجاته فكانت تجسدهن أميرات بيت الخديوي، فلقد بلغ ثمن مروحة لاحدى زوجاته ٣٧٥,٠٠٠ فرنك، وثمن مظلتها ٦٠٠,٠٠٠ فرنك.. ولقد تزوج ابنه بفتاة تربت في قصر الخديوي، ربتها والدته مع ابنة الخديوي! انظر [تقويم النيل] المجلد الثالث من الجزء الثالث ص ١٤٤٥، ١٤٥٢ ـ ١٤٥٤.

السكة الحديد هي من المصالح المهمة، ويستلزم التفرغ لإدارتها وحسن تسوية مصالحها، ومما هو محول على عهدتكم من المصالح خلافها فإنه يستصعب عليكم التفرغ للقيام بمباشرة أشغالها. .» ويحدد الأمر أن نظاره عموم الأوقاف، ونظارة ديوان عموم الأشغال، وديوان المدارس، لا زالت تابعة لعلي مبارك. . ويحرص الأمر على أن ينفي وجود تغير في موقف الخديوي من علي مبارك ـ مما يوحي بأن في الباطن شيئاً! ـ فيقول: «. . ويكون مؤكد عندكم أن الإجرى هذا ـ [أي هذا الإجراء] ـ لم يكن إلا بالنظر لكثرة واختلاف المصالح التي في عهدتكم، وإلا فإنه من المؤكد عندنا حسن إدارتكم! . .».

ولكن اليوم التالي مباشرة لصدور هذا الأمر ـ ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٠ م (٢٤ جمادي الآخرة سنة ١٢٨٧ هـ) ـ يشهد أمراً ثانياً صادراً من الخديوي إلى سعادة بهجت باشا يعهد إليه فيه بنظارة الأشغال العمومية، ونظارة ديوان عموم المدارس! . . ويصدر الأمر، في نفس اليوم، بذات المعنى إلى علي مبارك، محدداً أن الباقي من المناصب في عهدته هو منصب ناظر الأوقاف. . ويطلب منه فيه «أن يجري نقل ديوان الأوقاف ـ [من مجمع النظارات الذي أنشأه علي مبارك في سراي درب الجماميز] ـ إلى المحل الذي كان مقيماً به قديماً بالقلعة العامرة، وتداوموا على رؤية أشغاله كالأصول!»

ويصدر الأمر إلى ديوان الداخلية في أول يناير سنة ١٨٧١ م (٨ شوال سنة ١٢٨٧ هـ) بأن تكون الأوقاف هي مصدر صرف ماهية ـ [مرتب] ـ رتبة علي مبارك، بعد أن كان يتقاضاها من مصلحة السكة الحديدية، لأنه قد «صار رفتة» من السكة الحديد. .

وبعد أيام ثلاثة من تاريخ هذا الأمر الأخير ـ أي في ٤ يناير سنة ١٨٧١ م (١١ شوال سنة ١٢٨٧ هـ) ـ يجرد علي مبارك من منصب ناظر الأوقاف، ويعهد به إلى أمين بيت المال السابق: حسين باشا![1]

وهنا نلاحظ أمرين يجب التنبه لهما والتنبيه عليهما:

أولهما: إن تصاعد الغضب الذي أدى إلى عزل علي مبارك من مناصبه قد حدث في الوقت الذي كان فيه الخديوي إسماعيل يسيح مسافراً إلى الآستانة.. وكانت قيادة الدولة بيد ولي العهد الأمير محمد توفيق ـ [الخديوي توفيق فيما بعد] ـ تحت الهيمنة المطلقة لإسماعيل صديق..

وثانيهما: أن منصباً واحداً قد ظل لعلي مبارك، وهو عضوية المجلس الخصوصي، لكنه لم يكن يمارس من خلاله أي نشاط.. فلقد اعتكف بمنزله بعيداً عن السلطة مدة شهرين..

ولقد عبر علي مبارك عن امتعاضه من هذا الموقف الذي اتخذ حياله، عندما أبلغه البعض أن الخديوي قد أظهر السرور لأن الكثيرين من المديرين الذين ذهبوا إلى قصر عابدين لتهنئته بعيد الأضحى هم من المصريين ذوي اللون الأسمر!.. عبر عن غضبه، لأنه مصري، ولكنه متعلم، وليس كمثل أعوان إسماعيل صديق

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٧١، ٨٧٣، ٨٨٤، ٨٨٥.

الجهلاء، فقال: «أنا مصري مثلهم،وأسمر منهم، ولكني أعرف القراءة والكتابة وغيرها؟!..»[1].

ولكن ذات اليوم - يوم عيد الأضحى (١٠ ذي الحجة سنة ١٢٨٧ هـ ٣ مارس سنة ١٨٧١ م) - قد شهد انحسار موجة الغضب والعزل لعلي مبارك.. ففيه صدر أمر الخديوي إلى ناظر المالية بتعيين علي مبارك مديراً لعموم المكاتب الأهلية..

وفي ١٣ مايو سنة ١٨٧١ م (٢٢ صفر سنة ١٢٨٨ هـ) عادت إليه نظارة المدارس.

وفي ١٥ مايو سنة ١٨٧١ م (٢٤ صفر سنة ١٢٨٨ هـ) أعيدت إليه نظارة الأوقاف..

وفي ٣٠ يونيو سنة ١٨٧١ م (١١ ربيع الثاني سنة ١٢٨٨ هـ) أضيفت إليه نظارة الأشغال[2].. ولكن مع استبعاد الأوقاف من مسئولياته وإحالتها إلى بهجت باشا[3].. أي بعد خمسة عشر يوماً من توليه لها!.. ثم أعيدت إليه الأوقاف مرة أخرى بعد نحو عام من هذا التاريخ - أي في ٢٢ مايو سنة ١٨٧٢ م (١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٩ هـ).. فأصبح ناظراً لها، علاوة على نظارته لديوان المدارس[4] وفي يوليو سنة ١٨٧١ م أنشأ علي مبارك [دار العلوم..

(١) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٤٥٢.
(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٩٠٥،٩٠٨.
(٣) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٩٣٢.
(٤) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٩٩٦

أنشأها أولاً كمنتدي ثقافي، رفيع وعام، ثم أنشأ مع هذا المنتدى، بعد عام من افتتاحه، قسماً لإعداد المدرسين، كان نواة تلك المدرسة العليا التي استهدف من ورائها إقامة مؤسسة تعليمية علياً تجمع في منهجها علوم التراث مع علوم العصر الحديث.

وفي ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٢ م [٢١ جمادي الآخرة سنة ١٢٨٩ هـ] تحول علي مبارك من ناظر - [وزير] لكل هذه النظارات - المدارس، والأوقاف، والأشغال - إلى مجرد مستشار لها! . . . فلقد أصدر الخديوي أمره بضم «دواوين الأشغال العمومية والمدارس والمكاتب الأهلية والأوقاف بعضها إلى بعض، واعتبارها نظارة واحدة، وإحالة إدارتها إلى مخدومنا صاحب الدولة حسين باشا» كامل - وهو نجل الخديوي - «وقد عينا علي مبارك باشا مستشاراً لهذه النظارة. .»[1]. . ولكن المستشار ظل هو الرجل الأول والعقل والساعد في هذه الميادين! . .

وعندما أسندت نظارة الداخلية إلى الأمير حسين كامل باشا - في ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٣ م (٢٢ جمادي الآخرة سنة ١٢٩٠ هـ) - تحولت معه الأشغال العمومية فألحقت بالداخلية، وظل علي مبارك وكيلاً لها[2]. . .

ولكن الشهر التالي - في ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٣ م (٩ شعبان سنة ١٢٩٠ هـ) - يشهد تعديلاً جديداً في سلسلة التعديلات الكثيرة التي

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ١٠١٥.
(٢) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٠٨٥.

تميز بها جهاز الدولة في تلك الحقبة، فينتقل الأمير حسين كامل باشا ليتولى نظارة الجهادية، مع تبعية الأشغال لها وله، ويتولى الداخلية الأمير محمد توفيق باشا[1]. . ويشهد نفس التاريخ عزل علي مبارك من منصب وكيل ديوان الأشغال، وتعيينه عضواً بالمجلس الخصوصي، فقط[2]. .

ونستشف من وثائق الدولة وأوامر الخديوي ومحاضر اجتماعات المجلس الخصوصي، منذ ذلك التاريخ، وحتى شهر سبتمبر سنة ١٨٧٥ م ـ أي لحوالي عام ـ أن مناصب علي مبارك قد وقفت عند عضويته للمجلس الخصوصي، الذي كان بمثابة الحكومة الاستشارية للخديوي، والهيئة، الغيرمتضامنة، والمسئول كل عضو فيها، على حدة، أمام الخديوي. . ونجد أحياناً أوامر خديوية تنبه على ضرورة حضور علي مبارك اجتاعات المجلس للمداولة حول تقارير وخطط كان قد سبق ووضعها لتوفير مياه الري لبعض المديريات. . الخ . . . الخ [3]. .

وفي ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٥ م (٧ شعبان سنة ١٢٩٢ هـ) ينفصل ديوان الأشغال العمومية عن نظارة الجهادية. . وفي ٣٠ من نفس الشهر ـ (٢٩ شعبان) ـ تضم نظارة الأشغال إلى مسئوليات الأمير

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث، ص ١٠٩٦.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٠٩٧.

(٣) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٩٧، ١١٣٠، ١٢٤٤، ١٢٤٥.

إبراهيم باشا ـ أخ الخديوي ـ وتتقرر عودة علي مبارك وكيلاً لهذه النظارة مرة أخرى[1]. . وكان مرتب علي مبارك في تلك الفترة ـ وهو مرتب رتبة الباشوية ـ ١٢,٥٠٠ قرشاً في الشهر[2]! . . ويبقى علي مبارك، إلى جانب وكالته للأشغال، عضواً بالمجلس الخصوصي، تعكس محاضر الاجتماعات نشاطه وجهوده[3]. .

وفي ١١ سبتمبر سنة ١٨٧٦ م (٢١ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ) يصدر أمر الخديوي بالموافقة على اقتراحات علي مبارك ـ مستشار الأشغال ـ حول ترميم وإصلاح الهويس الخلفي لمدينة الإسماعيلية. . كما تصدر إليه أوامر الخديوي في ١٥ سبتمبر من نفس العام ـ (٢٥ شعبان) ـ كي يتولى إجراء الاحتياطات اللازمة للجسور والقناطر وقاية من أخطار الفيضان[4]. . فهو هنا رجل الأشغال الأول، على الرغم من كونه مستشاراً لنظارتها ووكيلاً لها، وليس ناظرها. .

وفي ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٦ م (يوم عيد الأضحى سنة ١٢٩٣ هـ) ينعم الخديوي على علي مبارك بنيشان مجيدي (غرانقوردون]. .

ويظل علي مبارك في وظيفته، مستشاراً للأشغال، عندما تعود

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٢٦٤، ١٢٧١.
(٢) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٣٠٢.
(٣) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٣٧٦، ١٣٨٣، ١٤٦١، ١٤٨٠، ١٤٨٣، ١٤٨٥، ١٤٩٥، ١٥٠٧، ١٥٣٦، ١٥٣٨.
(٤) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٣٨٦، ١٣٩٢، ١٣٩٣.

النظارة مرة أخرى فتتبع نظارة الداخلية، وناظرها محمد توفيق باشا، في ١٥ يونيو سنة ١٨٧٧ م (٣ جمادي الآخرة سنة ١٢٩٤ هـ)، عندما يقتصر أخ الخديوي - إبراهيم باشا - على منصب عضوية المجلس الخصوصي[1]..

وفي نفس التاريخ الأخير - ١٥ يونيو سنة ١٨٧٧ م - عين علي مبارك عضواً بمجلس القومسيون، الذي رأسه راغب باشا، ناظر التجارة والزراعة، لمفاوضة شركة - قناة السويس حول الأموال المطلوبة من الحكومة نظير الأشغال التي قامت بها الشركة، بواسطة أحد المقاولين - موسيو فلكس بابونوه - في الترعة الإسماعيلية.. ونلاحظ أن أعضاء القومسيون - باستثناء علي مبارك - هم من غير المصريين، فثانيهم هو: موسيو أكتون، والثالث: موسيو بيلن[2]!.. فعلي مبارك، في مثل هذه الأشغال، أهم رجالات مصر الوطنيين.. وهو في كثير من المناسبات المماثلة رجل الحكومة في مثل هذه المفاوضات..

وفي أول يوليو سنة ١٨٧٧ م (١٩ جمادي الآخرة سنة ١٢٩٤ هـ) أصدر الخديوي موافقته على التخطيط الذي وضعه علي مبارك واللائحة التي أعدها للعمل في الري، وصيانة جسور النيل، ومقايسات الأعمال ورسوماتها، وتوزيع المصاريف وتحصيلها، وتحرير

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٤٩٢، ١٤٩٣.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٤٩٢ (وانظر وثائق هذه المفاوضات ونتائجها في ص ١٥٣٧ - ١٥٣٩)

الموازنات النهائية لهذه الأنشطة كلها. . ومن هذه الصفحات التي تسجل مشروعاته، نقف على فكره في هذه الميادين ونشاطه العملي في حقل الأشغال[1]. .

وفي أغسطس سنة ١٨٧٨ م خطت مصر على درب الديمقراطية وتحديث جهاز الدولة خطوة هامة، عندما استبدلت بالمجلس الخصوصي، ذي الطابع الإستشاري، وبالنظارات التي لا تؤلف بين نظارها المسئولية التضامنية المتحدة، النظارة - [الوزارة] - المتضامنة والمسئولة مسئولية جماعية عن تسيير دقة الأمور. . فتقلص إلى حد ما حكم الفرد - [الخديوي] - وبرز دور الوزارة كمؤسسة هامة في حكم البلاد. . ولقد صدرت بذلك إرادة الخديوي إلى نوبار باشا في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ م (٢٤ شعبان سنة ١٢٩٥ هـ) تقول: «لقد صممنا على تفويض إدارة الحكومة إلى هيئة تكون مسئولة في كافة الأمور والإجراءات وهذا بقصد تنظيم وترتيب أصول إدارة حكومتنا الخديوية على الأسس والقواعد المتخذة حديثاً»[2]. .

ولقد وقفت خلف هذا التطور الدستوري والسياسي الهام أمور عدة، أملتها رغبات وطموحات تناقض أصحابها في المواقف والغايات! . .

● فالتيار الشعبي الوطني الذي بثه ورعاه وقاده جمال الدين

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٤٩٦- ١٤٩٩.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٥٣٩.

الأفغاني منذ سنة ١٨٧١ م، والذي تبلور في [الحزب الوطني] السري، قد بدأت آثاره وضغوطه تدفع السلطة في هذا الاتجاه.. وشدت من أزره الصحافة الأهلية، غير الحكومية، التي نشطت بمصر في السبعينات.

● والدائنون الأوربيون، الذين تراكمت على الحكومة ديونهم، ومن ورائهم وأمامهم القوى الاستعمارية الطامحة لالتهام مصر ـ وخاصة انجلترا وفرنسا ـ رأوا في الوزارة المتضامنة المسئولة فرصة يستطيع من خلالها الوزيران الأجنبيان المفروضان على مصر لمراقبة المالية ممارسة صلاحيات فعالة، على عكس الحال إذا ما كانت سلطة الخديوي الفردية هي جهة الحسم الوحيدة للأمور. خصوصاً وأن المرشح برئاسة الوزارة هو رجلهم نوبار باشا [١٨٢٥ ـ ١٨٩٩ م]..

● وحتى الخديوي إسماعيل.. فإنه كانت تراوده أحياناً أفكار ترى في الاعتماد على الرأي العام، الذي تنميه الإصلاحات الدستورية وتحديث الإدارة الحكومية، سبيلاً لمقاومة النفوذ السياسي الأجنبي الزاحف في ركاب صكوك الدين وفوائد القروض!..

هكذا.. ولهذه الأسباب ـ ومثلها غيرها ـ دخلت مصر عصر الوزارة المسئولة، بمعناها الحديث ـ. وصدرت إرادة الخديوي إلى نوبار باشا في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ م (٢٩ شعبان سنة ١٢٩٥ هـ) بتشكيل هيئة «النظارة» الجديدة.. وفيها تولى علي

مبارك ثلاث وزارات، اثنتان منها بالأصالة، وهما: الأوقاف، والمعارف.. والثالثة، وهي الأشغال العمومية. بالوكالة[1].. لأن الاتجاه كان يسير نحو إعطاء هذه الوزارة لأحد الوزيرين الأجنبيين اللذين فرضهما على مصر أرباب الديون!.. وبالفعل تولى موسيو بلينير ـ وهو فرنسي ـ نظاره الأشغال العمومية، بدلاً من علي مبارك، في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٨ م.. على حين تولى ريفرز ويلسون ـ وهو انجليزي ـ نظارة المالية في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٧٨ م.. وظل علي مبارك شاغلاً لنظارة النظارتين، الأوقاف والمعارف، حتى استعفاء الوزارة في ٢٣ فبراير سنة ١٨٧٩ م[2]..

وفي ١٠ يناير سنة ١٨٧٩ م (١٦ محرم سنة ١٢٩٦ هـ) استجاب الخديوي لطلب وزير الأوقاف ـ علي مبارك ـ فأعطاه توكيلاً كي ينوب عنه في «مبيع ما يلزم مبيعه من بعض الأملاك والأطيان المسبوق الإحسان بها من لدنا على المكاتب الأهلية، بحسب ما ينظر فيه صالح المصلحة...»[3].

وبعد أن استعفت وزارة نوبار في ٢٣ فبراير سنة ١٨٧٩ م.. عهد الخديوي إلى ابنه توفيق بتأليف وزارة جديدة، تألفت في ١٠

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٥٤٠.

(٢) د. يونان حبيب رزق [تاريخ الوزارات المصرية] ص ٥٨، ٦٠. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

(٣) [تقويم النيل] المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٥٥١.

مارس سنة ١٨٧٩ م. . ولم يشترك فيها علي مبارك. . وبعد نحو شهر استقالت هذه الوزارة في ٧ إبريل سنة ١٨٧٩ م. . وخلفتها وزارة محمد شريف باشا ـ الأولى ـ في نفس اليوم. . ولم يشترك فيها علي مبارك. . وظلت هذه الوزارة حتى عزل الخديوي إسماعيل من منصب الخديوية في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ م، بعد موافقة السلطان العثماني واستجابته لرغبة كل من انجلترا وفرنسا. . وصعد إلى كرسي الخديوية بدلاً منه ابنه توفيق [١٨٥٢ ـ ١٨٩٢ م]. . فعهد إلى شريف باشا بتكشيل الوزارة ـ الثانية من وزاراته ـ فشكلها في ٥ يوليو سنة ١٨٧٩ م. . ولم يشترك فيها علي مبارك. . واستمرت هذه الوزارة حتى ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ م. . ثم عن للخديوي توفيق أن يتولى بنفسه رئاسة الوزارة، فألفها في ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ م، وضعفت في ظل رئاسته المسئولية التضامنية للوزارة، وعاد الوزراء مسئولين، كل على حدة، أمام الخديوي. . ولم يشارك علي مبارك في هذه الوزارة. . وكان مصطفى رياض باشا وزيراً للداخلية فيها. . واستمرت هذه الوزارة حتى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ م. .

وفي ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ م عادت البلاد، ثانية إلى الوزارة المسئولة، وذلك عندما عهد الخديوي إلى رياض باشا بتشكيل وزارته ـ الأولى ـ. . وشارك علي مبارك في هذه الوزارة فتولى نظارة الأشغال. . واستمرت هذه الوزارة حتى سقطت في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١ م استجابة لمطالب الأمة والجيش التي قدمها

أحمد عرابي [١٨٤١ - ١٩١١ م] للخديوي توفيق في المظاهرة العسكرية والشعبية التي أحاطت بقصر عابدين في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م.

وتعاقبت على مصر منذ ذلك التاريخ ثلاث وزارات لم يشترك فيها علي مبارك، وهي الوزارات التي عاصرت أحداث الثورة الوطنية الديمقراطية - [الثورة العرابية] -:

وزارة شريف باشا - الثالثة - [١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ م - ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ م]..

- ووزارة محمود سامي البارودي باشا [٤ فبراير سنة ١٨٨٢ م - ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢ م]..
- ووزارة إسماعيل راغب باشا [١٧ يونيو سنة ١٨٨٢ م(١) - ٢١ أغسطس سنة ١٨٨٢ م] - وهي التي تكونت بعد أسابيع - من ٢٦ مايو حتى ١٧ يونيو حكمت فيها مصر بواسطة وكلاء الوزارات، وفي ظل وزير وحيد هو ناظر الجهادية: أحمد عرابي..

ثم عاد علي مبارك ليتولى نظارة الأشغال العمومية في الوزارة

---

(١) في [مصر للمصريين] لسليم النقاش (جـ ٥ ص ٢١) أن وزارة اسماعيل راغب تألفت في ٣٠ يونيو سنة ١٨٨٢ م، وليس في ١٧ يونيو - واختلاف المصادر في مثل هذه التواريخ مرجعه، في الأغلب، أن محاولات تشكيل الوزارة كانت تبدأ في تاريخ، ثم تصدر مراسيم تشكيلها في تاريخ لاحق. انظر [مصر للمصريين]. طبعة الاسكندرية سنة ١٨٨٤م.

التي رأسها شريف باشا ـ وزارة الرابعة ـ وهي الوزارة التي تشكلت عندما بدأت أحداث التدخل الاستعماري الأنجليزي المسلح تحسم الموقف لصالح الخديوي والاحتلال ضد الثورة بقيادة عرابي . . ولقد بدأ السعي لتشكيل هذه الوزارة في ٢١ أغسطس سنة ١٨٨٢ م، وصدر أمر تشنكيلها في ٢٨ من نفس الشهر . . واستمرت تحكم عقب هزيمة الثورة، وحتى نشأت بينها وبين الاستعمار الأنجليزي الأزمة الشهيرة حول طلب إخلاء السودان . . فلقد أراد الإنجليز من الوزارة أن توافق على إخلاء مصر للسودان، كي ينفردوا بإعادة فتحه، فاستعماره وامتنعت الوزارة، فنشأت الأزمة التي جعلت الوزارة تستقيل في ١٠ يناير سنة ١٨٨٤ م[١] . .

وفي سنة ١٨٨٣ م أنعم الخديوي توفيق على علي مبارك برتبة «روملى بيكلربيك» .

وفي ١٠ يناير سنة ١٨٨٤ م تألفت وزارة نوبار باشا ـ الثانية ـ وهي الوزارة التي استجابت لرغبة الاستعمار الانجليزي في إخلاء السودان . . ولم يشترك علي مبارك في هذه الوزارة . . التي سقطت في ٩ يونيو سنة ١٨٨٨ م . وذهب إلى

(١) [تاريخ الوزارات المصرية] ص ٦٧، ٧٤، ٧٨، ٨٢، ٩٢، ١٠٣، ١١١، ١١٢، ١١٥، ١١٧ . وانظر كذلك: سليم النقاش [مصر للمصريين] جـ ٤ ص ١٠، ٢٠، ٢١، ٢٣، ١٠٩، ٢٢٣ .

بلده برنبال، يمارس الزراعة، بعد أن غاب عنها نحواً من ثلاثين عاماً.

وفي وزارة مصطفى رياض باشا ـ الثانية ـ التي تألفت في ٩ يونيو سنة ١٨٨٨ م شارك علي مبارك، فتولى نظارة المعارف العمومية، في آخر وزارة نهض فيها بعبء منصب الوزير، وظل يمارس تلك المسئولية حتى استقالت الوزارة في ١٢ مايو سنة ١٨٩١ م[1] (٤ شوال سنة ١٣٠٨ هـ).

* * *

تلك هي مسيرة علي مبارك، رجل الدولة، كما ترصدها وتحكيها الوثائق التي سجلت تلك الحقبة من حياته.. منذ أن تطلع، صغيراً، كي يكون واحداً من الحكام، وحتى آخر وزارة شارك فيها.. وهي مسيرة شهدت الصعود والهبوط، وكثرت فيها التغيرات والتقلبات والمفاجآت ـ ولكنها تميزت بموقف ثابت للرجل: **أن يبني لبلده ويعطي لأمته كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وبالذات من خلال جهاز الدولة، الأداة الأولى للتمدن والتحديث التي عرفتها مصر في ذلك التاريخ، وأن يستفيد من غضب الحاكم عليه في فترات عزله إياه فيعكف على تأليف الكتب! فكانت حياته عطاءً دائماً، في الرضا وفي الغضب، في السراء وفي الضراء!..**

ـ ٨ ـ

بقدر العظم والغنى الذي تمثل في علي مبارك رجل الدولة

---

(١) [تاريخ الوزارات المصرية] ص ١١٧، ١٢٣.

وصانع التحولات الجذرية في ميادين التعليم والمعرفة والهندسة والزراعة والري والعمارة، كانت العظمة والغنى في العطاء الفكري الذي تمثل في المؤلفات العديدة التي خطها قلمه، وهي المؤلفات التي جعلته في مقدمة مؤلفي عصره، حتى بمقياس الكم وعدد المؤلفات!..

ولقد تنوعت الأعمال الفكرية لعلي مبارك، ولكنها جاءت لتندرج في حقلين وفنين من فنون التأليف وحقوله..

فأولها: تلك المؤلفات ذات الطابع الفكري التي تناولت فنون الحضارة والثقافة، في التاريخ - كما في [الخطط] -.. وفي الاجتماع والاقتصاد والتنمية والتخطيط - كما في [نخبة الفكر في تدبير نيل مصر] -.. وفي الفكر الموسوعي - كما في رواية [علم الدين] -

وهذا اللون من التأليف، وهذه المجموعة من المؤلفات، كان علي مبارك ينتهز لتأليفها - غالباً - فرصة ابتعاده، وبالأحرى إبعاده عن جهاز الدولة ومجالات العمل التنفيذي.. وكما يقول الدكتور دري: «... فلقد جرت عادة علي مبارك أنه عند إقالته من مثل هذه المناصب يشتغل بإكمال التآليف!..»[1].

وثانيها: تلك الكتب المدرسية التي نهض علي مبارك بمهمة تأليفها، أو اقتباس مادتها من المؤلفات الأوربية، أو قام

(1) دكتور محمد بك دري الحكيم [تاريخ حياة المغفور له علي مبارك باشا] ص ٦٠. طبعة القاهرة سنة ١٨٩٤م.

«بإعدادها».. وهي كتب وضعها أثناء ممارسته للوظائف التعليمية ونهوضه بمسؤوليات التربية والتعليم، فلقد كان الرجل، مثله مثل التجربة الأنشائية التي بدأت في عصر محمد علي، يقيم بناءً تعليمياً مدنياً وعصرياً من لا شيء.. كانت فكرية العصور الوسطى قد وقفت بالتعليم عند أروقة الأزهر وساحته، وذلك بعد أن عزلت هذا اللون من التعليم عن شئون المجتمع وعلوم بناء الحياة العملية، فلما كانت تجربة مصر الحديثة التي قادها محمد علي، وتفتحت مصر على أوربا، نهضت كوادر هذه التجربة، وفي مقدمتهم علي مبارك، بمهمة إقامة المؤسسة التعليمية المدنية العصرية، بما استلزمت من تأليف وترجمة وإعداد في مجال كتب الدراسة والتدريس.. ومن هنا وجدنا علي مبارك ينهض بتأليف العديد من هذه الكتب كلما خطط لمشروع دراسي ووجد المنهج الذي وضعه يتطلب كتاباً للطلاب أو مرجعاً للمدرسين..

ولقد اختلف الذين أشاروا إلى حصر مؤلفات علي مبارك وكتبه في عددها.. فمنهم من يقول إنها إثنا عشر كتاباً علمياً[1]..

---

(١) قاسم أمين [الأعمال الكاملة] جـ ١ ص ٣٣٥. دراسة وتحقيق دكتور محمد عماره. طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م.

ومنهم من يذكر أنها ثلاثة عشر[1].. ومنهم من يضيف إلى هذا العدد آثاراً فكرية لم تطبع، ولا زال العثور عليها، من جانبنا، مجالاً للبحث والتنقيب، نرجو أن يحالفنا فيه التوفيق[2]..

ونحـن نعتقد أن السبيل لتحديد عدد هذه المؤلفات، وأيضاً تعريف القارىء بها، هو تناولها بالوصف، من خلال سطور توجز موقعها من الفكر ومكانها من باقي المؤلفات التي خطها هذا الرائد العظيم..

١ ـ [علم الدين]:

وهي رواية تعليمية موسوعية، جاءت طليعة التأليف الروائي في تراثنا الأدبي الحديث ـ كما سنتحدث في فصل قادم من فصول هذه الدراسة ـ كما جاءت موسوعة فكرية وعلمية وتاريخية وأدبية عرضت مواد العلوم والفنون وحقائقها من خلال الحوار والسياحة في الزمان والمكان والحضارات..

والفصول في هذه الرواية تسمى [المسامرات].. وهي تضم، في الأجزاء الأربعة التي كتبها المؤلف وضمنتها طبعة الأصل، مائة، وخمسا وعشرين مسامرة..

ونحن نعتقد أن مسامرات هذه الرواية لم تصل بها إلى النهاية

---

(١) سركيس [معجم المطبوعات العربية والمعربة] ص ١٣٦٨.

(٢) [تاريخ حياةالمغفور له علي مبارك باشا] ص ٦١.

الطبيعية التي كانت في تخطيط مؤلفها. . لأن الرحلة التي بدأها بطل هذه الرواية. وهو الشيخ الأزهري: «علم الدين»، مع المستشرق الإنجليزي، إلى فرنسا[1] ـ والتي صحبا فيها ابن «علم الدين»: «برهان الدين». . كان مخططاً لها، كما تذكر الرواية أن يسيحا زمناً ثم يعودا إلى مصر ثانية. . ولكنهم ساحوا في فرنسا. . ومن خلال سياحتهم تعدد الأبطال، وتمت الأحداث، وانبسطت الحقائق والمعارف والمعلومات. . ولكن المسامرة الأخيرة (١٢٥) تنتهي و«علم الدين» و«برهان الدين» في بستان بضاحية من ضواحي باريس، يتحدثان عن الزهور. . فسياحتهم لم تكتمل في فرنسا، فضلاً عن أنهم لم يعودوا ـ كما كان مقرراً ـ إلى مصر. .

وهذه الحقيقة تقودنا إلى رأي نعتقده فيما يتعلق بملابسات تأليف علي مبارك لهذه الرواية، وتاريخ هذا التأليف. .

فنحن نعتقد أن الرجل قد استثمر وقت فراغه، عندما فرض عليه هذا الفراغ أيام عزله من مناصبه على عهد الخديوي سعيد،

---

(١) يخطىء أحمد أمين في [زعماء الاصلاح] ص١٩٧ فيذكر أن السياحة كانت في انجلترا. . ويسير خلفه في هذا الخطأ أصحاب كتاب [روضة المدارس ـ نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعلمية] ـ محمد عبد الغنى حسن، و د. عبد العزيز الدسوقي ـ ص ٣٣٠، ٣٣١. . ويتفق المرجعان على خطأ القول بأن المستشرق قد تعلم العربية من «علم الدين». . والحقيقة التي تذكرها الرواية أن المستشرق كان عالماً بالعربية قبل لقائه لعلم الدين، وأنه كان يعتزم نشر كتاب [لسان العرب] فرغب في مساعدة «علم الدين».

وبالذات حوالي سنة ١٨٥٨ م، لتأليف هذه الرواية، فكما صنع الطهطاوي في السودان عندما عرب [تليماك] ليقهر الملل والموات بعمل أدبي ينتقد طغيان الحاكم واستبداد الفرد، اشتغل علي مبارك عندما عزله سعيد بتأليف ذلك العمل الروائي الموسوعي الذي جاء ديواناً للفكر والحضارة والاستنارة والآداب.. فلما أن عاد الرجل إلى ميدان الحياة العملية، شغلته المسئوليات عن استكمال رحلة «علم الدين»، فترك أبطاله في ذلك البستان بضاحية باريس!..

- ويرشح تلك الفترة تاريخاً لتأليف [علم الدين] مجموعة من القرائن والشواهد، ترقى، عندما تجتمع إلى مستوى الدليل:

● ففي المسامرة (١١٩) [القطن] يتتبع المؤلف إحصاءات إنتاج القطن العالمي، حتى يقف عند معلومات دفاتر الإحصاء في سنة ١٨٥٨ م.. وفي نفس المسامرة يتحدث المستشرق - [الخواجا] - في الإحصاء فيقف بالأرقام عند أرقام سنة ١٨٥٨ م.

● وفي المسامرة (١٠٩) [نور الغاز] يتحدث المؤلف واصفاً مدينة باريس.. ثم يحدد لنا أن وصفه هذا يتميز بذكر التفاصيل، على عكس الإجمال الذي كان طابع وصف رفاعة الطهطاوي منذ نحو ثلاثين سنة.. فهو يحدد أن [تخليص الإبريز] قد سبق، في تاريخ التأليف، [علم الدين] بنحو ثلاثين سنة.. وتخليص الإبرير هو الأطروحة التي تقدم بها رفاعة للأمتحان في

١٩ أكتوبر سنة ١٨٣٠ م أثناء بعثته في باريس[١].. وهو ثمرة رحلته التي بدأت في سنة ١٨٢٦ م وانتهت في سنة ١٨٣١ م.. وإضافة نحو ثلاثين عاماً إلى هذا التاريخ يقف بنا عند الفترة التي عزل فيها علي مبارك من مناصبه في نهاية خمسينات القرن التاسع عشر..

وإذا كان هذا هو التاريخ الذي نعتقد أن علي مبارك قد كتب فيه روايته هذه، فإننا ننبه إلى أن الدلائل قائمة على أنه قد أدخل عليها عدداً من التنقيحات والإضافات والتعديلات قبل أن تطبع في سنة ١٨٨٢ م..

● فهو يذكر لنا، في مقدمتها، إنه قد عهد بها إلى عبد الله فكري، وكيل ديوان المدارس، كي يراجع لغتها وأسلوبها.. وعبد الله فكري قد تولى منصب وكيل إدارة المكاتب الأهلية بديوان المدارس في ٢٣ مارس سنة ١٨٧١ م (أول محرم سنة ١٢٨٨ هـ)[٢].

● وأيضاً يذكر لنا في [المقدمة] أنه قد عن له تأليف هذا الكتاب أيام كان ناظراً للمعارف.. أي في عصر إسماعيل!..

● كما يتحدث المؤلف في المسامرة التاسعة عشرة [شذور] عن

---

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] جـ ١ ص ٧٨. دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

(٢) [تقويم النيل] المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٩١٠.

أن «من يرى مصر الآن: . . ورآها من منذ عشرين سنة. . . لا يجد بها مما نظره شيئاً، ويرى أنها انقلبت وصارت كبقعة من أوربا، مع أن ما جاورها من الأقطار لم يتغير عما كان عليه، فهل لذلك سبب غير إدارة. وتدبير صاحب الوقت - [الخديوي] - ومشاورته لجمهور رجالة؟ . . »

فهذا النص لا بد أن يكون قد أضيف في عصر إسماعيل، بعد أن أخذت مصر تسير كي تلحق بالتمدن الأوربي، لتصبح - كما أراد إسماعيل وقال - قطعة من أوربا، وبعد أن عرفت الشورى بمجلسها، والوزارة المقيدة والمتضامنة التي تكونت منذ سنة ١٨٧٨ م.

فإذا صح هذا التحديد، ونعتقد أنه صحيح، فإن عشرين عاماً سابقة على هذا التاريخ تقف بنا عند تلك الفترة من عهد سعيد، التي عزل فيها علي مبارك من مناصبه، حول سنة ١٨٥٨ م، وهي الفترة التي نعتقد - كما قلنا - أنها الفترة التي ألف فيها [علم الدين]. .

● وفي نهاية الجزء الأول من طبعة [علم الدين] نطالع «تقريظاً» لها كتبه عبد الجليل بن عبد السلام زاده، المدني، تاريخ كتابته أواسط شعبان سنة ١٢٩٤ هـ [أي أواخر أغسطس سنة ١٨٧٧ م]. . وهو دليل على أن المؤلف كان يعد روايته للطبع في تلك الفترة، ويعرضها على نفر من أهل الثقة والدراية للنقد والتقريظ. .

ويبدو أن رواية [علم الدين]، لطابعها الموسوعي، قد أصبحت مصدراً للخلاف حول عدد مؤلفات علي مبارك.[1] فهو فيها يشير إلى سعيه وعزمه على جمع مادة لكتاب يسميه [غرائب الأخبار وعجائب الأمصار].. وهو عنوان ينم عن أن مضمون الكتاب هو [الرحلة].. ورحلة علي مبارك هي [علم الدين] وليس كتاباً آخر سواها..

كما نراه يشير في [الخطط] عند حديثه عن مكاتب الاسكندرية ومدارسها إلى أن له كتاباً وضعه، وبسط فيه «الكلام على كيفية التربية في الديار المصرية والأقطار الأورباوية، فليرجع إليه من أراد الإطلاع عليه...».

وهذا النص يقطع بأن هذا الكتاب مطبوع، لأن من يريد الإطلاع عليه يستطيع ذلك، ولم يذكر مصدر من المصادر أن لعلي مبارك كتاباً في هذا الفن قد طبع قبل تأليفه [الخطط] ـ التي أنجزها في الثمانينيات ـ.. وبما أن موسوعة [علم الدين] قد عرضت لمختلف أوجه الحياة والثقافات والفنون بمصر والشرق، وقارنت كل ذلك بمثيله في أوربا، فنحن نعتقد أن الكتاب المشار إليه ليس إلا [علم الدين] التي كانت قد طبعت في سنة ١٨٨٢ م[2].

---

(١) [الأعمال الكاملة لعلي مبارك] المجلد الأول ص ٦٧٥.

(٢) في فصل قادم سنتناول بالدراسة الدلالة الأدبية [لعلم الدين] ومكانها، ومكان علي مبارك في نشأة فن الرواية، العربية في غصرنا الحديث.

٢ - [نخبة الفكر في تدبير نيل مصر]:

وهو كتاب متوسط الحجم، تتجلى فيه العقلية العلمية لعلي مبارك في كتابة التاريخ، وتبدو من خلاله أهم قسمات منهجه كمؤرخ، لأنه قد اهتم في هذا الكتاب بفلسفة تاريخ مصر على ضوء علاقة وجودها بالنيل، وارتباط أبنيتها وأنظمتها وأحوالها السياسية والفكرية والحضارية بالاقتصاد والعمران ووسائل عيش الشعب الذي عمر تلك البلاد..

ولقد بدأ طبع هذا الكتاب، طبعته الوحيدة، في سنة ١٢٩٧ هـ وانتهى طبعه في العام التالي - [سنة ١٨٨٠ م]، أي في بدايات عهد الخديوي توفيق - ولكن يبدو أن فكر علي مبارك فيه، وفصوله وصفحاته - قبل الطبع - كانت موضع تداول وأخذ وعطاء قبل ذلك التاريخ، لأن على مبارك يحكي لنا في [الخطط] أن خصومه، بقيادة إسماعيل صديق «المفتش»، قد سعوا إلى الخديوي إسماعيل فأقنعوه أن كتاب [نخبة الفكر] «مشتمل على ذم الحكومة الخديوية، وتقبيح سياستها!».. وأن ذلك قد تسبب في غضب الخديوي، فعزل علي مبارك من مناصبه، فأقام بمنزله، معزولاً، مع صرف مرتبه!

وهذه الواقعة تعني أن الكتاب قد ألف قبل نكبة إسماعيل صديق [١٨٧٦ م - ١٢٩٣ هـ].. ونحن نقرأ في [تقويم النيل] أن علي مبارك قد ألف [نخبة الفكر] حينما كان ناظراً للأشغال[1].. وعلى ذلك فلا بد أن يكون تأليف هذا الكتاب قد

(١) المقدمة. ص ٩٤ «هامش».

تم في عصر إسماعيل، وقبل نكبة إسماعيل صديق، وقبل المسعى الذي قام به إسماعيل صديق ضد علي مبارك إلى الخديوي بسبب هذا الكتاب فأدى إلى عزله من مناصبه..

ونحن إذا استعنا بما قدمناه من الرصد الذي استقيناه من وثائق الدولة لعلاقة علي مبارك بنظارة الأشغال، وتأملنا المد والجزر الذي حكم علاقاته بالخديوي، فإننا نستطيع بلوغ التحديد الأدق لتاريخ تأليف هذا الكتاب..

فنظارة الأشغال عادت إلى علي مبارك في ٩ يناير سنة ١٨٧٠ م (٦ شوال سنة ١٢٨٦ هـ)، منضمة بذلك ألى نظارتي الأوقاف، والمدارس، وإدارة السكة الحديدية... ثم نجد إدارة السكة الحديدية تنزع منه في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ م (٢٣ جمادي الآخرة سنة ١٢٨٧ هـ) لخلاف بينه وبين إسماعيل صديق!.. وفي اليوم التالي يعزل من نظارة الأشغال، ومن نظارة ديوان المدارس.. وفي ٤ يناير سنة ١٨٧١ م (١١ شوال سنة ١٢٨٧ هـ) يعزل من آخر مناصبه، وهو نظارة الأوقاف..

ومن ثم فإننا نستطيع أن نرشح سنة ١٨٧٠ م، التي تولى علي مبارك نظارة الأشغال في مطلعها، تاريخاً لتأليفه كتاب [نخبة الفكر].. وأن نقول إن عزله من مناصبه الذي بدأ في سبتمبر من تلك السنة وبلغ الذروة والتمام في يناير سنة ١٨٧١ م، كان ثمرة المسعى الذي قام به إسماعيل صديق، ضد علي مبارك، لدى الخديوي، مستغلاً الجرأة والنقد الذي ضمنه علي مبارك كتابه

هذا للولاة والحكام الذين تعاقبوا على مصر بعد محمد علي وابنه إبراهيم. . **وهي جرأة يندر أن تراها في كتابات أحد من الأعلام الذين نشأوا في حضن جهاز الدولة المصرية، واتخذوه سبيلاً لعطائهم وإصلاحاتهم، ومن ثم منحوه ومنحوا رأسه الولاء!. .**

٣ ـ [الخطط الجديدة]:

وهو مؤلف نادر في فنه، وفي حجمه، يقف فريداً لا مثيل له منذ أن كتب المقريـزي [٧٦٦ ـ ٨٤٥ هـ ١٣٦٤ ـ ١٤٤٢ م] خططه حتى الآن!. .

ولقد كتبه علي مبارك في عشرين جزءاً، واستعان على إنجازه بما كتب القدماء، وما أضاف المحدثون والمعاصرون، وما امتلك هو من إضافة عقلية وعلمية، بوصفه مهندساً يجيد استقراء الأرقام ويحسن استخدام المنهج الرياضي في النقد والمقارنات.

ففيه نطالع ما كتب الأقدمون، مع النقد والتفسير، ونقف على خلاصة آراء علماء الحملة الفرنسية ورسوماتهم التي تضمنها أثرهم العملاق [وصف مصر]. . والذي يسميه علي مبارك «خارطة الفرنساوية»!. .

وفيه كذلك تتجلى، متناثرة، عناصر منهج علي مبارك في كتابة التاريخ، وأهمية هذا الفن في التأريخ لحياة المجتمع، ورصد المكونات الأساسية والقاعدة المادية التي لا بد من النظر فيها لأي باحث جاد يتصدى لدراسة الحياة الاجتماعية للبشر ويريد الوصول لتفسير الصراعات التي حفلت بها كتب التاريخ

السياسي والديني والعام[1].. كل ذلك من خلال ما في هذا الكتاب من تاريخ عام، وتأريخ للمدن والبلاد، والمنشآت والمؤسسات، وترجمة لحياة الحكام والأعلام من العلماء والصالحين والأدباء.. الخ.

ولم يذكر لنا علي مبارك تاريخ تأليفه لهذا الكتاب.. لكن مادته تقطع بأنه قد ألفه في أواخر حياته، ففيها تنعكس الحقائق والأرقام والمعلومات والخبرات والروايات التي اكتسبها الرجل من المناصب العديدة والمتنوعة والمسئوليات التي نهض بها في المعارف، والأشغال، والأوقاف.. الخ.. الخ... كما نستطيع من خلال الجزء الثامن عشر الذي خصصه لمقياس النيل أن نجعل من سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ - ١٨٨٩ م) سنة فراغ المؤلف من تأليف كتابه هذا.. فهو في جدول [غاية الزيادة والتحريق] لنهر النيل، التي يرصدها «مقياسه في الروضة» يتتبع أرقام «الزيادة والتحريق» من سنة ٢٠ هـ (سنة ١٦٤١ م) حتى سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ - ١٨٨٩ م).. وعقب هذا الجدول يعقد فصلاً يذكر فيه [ما جرى في مقياس النيل بالروضة في سنة ١٨٨٧ م]..

فإذا كان الجزء الثامن عشر يرصد حال النيل حتى سنة

---

(١) في فصل قادم من فصول هذه الدراسة سيأتي حديثنا مفصلاً عن منهج علي مبارك في كتابة التاريخ، مستعينين في تحديد قسماته بمادته في [الخطط] وفي [نخبة الفكر] بالدرجة الأولى.

١٣٠٦ هـ، والجزء الأخير ـ العشرون ـ قد طبع، وتأرخ لطبعة وأرخ مقرظوه تقريظهم في نفس العام، فإن هذه السنة، ولا شك هي سنة الفراغ من تأليف هذا الكتاب.. أما بدء تأليفه، فقد حدث ولا شك في عهد الخديوي توفيق، كما تحكي المقدمة، وصفحات أخرى متناثرة في الكتاب.. ونحن نرشح السنوات التي اعتزل فيها علي مبارك الوزارة وخاصة بعد اشتعال الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م[1] وحتى عودته إلى الوزارة في ٩ يونيو سنة ١٨٨٨ م، زمناً لتأليف هذا الكتاب.. لأن العام الذي تولى فيه آخر وزاراته كان هو عام طبع الجزء الأخير منه.. وهو قد طبع في سنة ١٣٠٥ هـ (سنة ١٨٨٧ م)، أثناء توليه نظارة المعارف، للمرة الأخيرة، أي بعد يونيو سنة ١٨٨٨، كما يقطع بذلك وصف مصحح الكتاب «محمد الحسيني» ـ بمطبعة بولاق ـ الذي يقول ـ ص ١٦٥ من طبعة الأصل للجزء العشرين ـ: «... ذو السعادة علي باشا مبارك، ناظر ديوان المعارف العمومية بالديار المصرية...»

أما الجزء الأول من هذا الكتاب فلقد بدأ طبعه سنة ١٣٠٥ هـ (سنة ١٨٨٧ م).. أي أن طبع الأجزاء العشرين قد أنجز في شهور ضمها عامان إثنان؟!..

---

(١) في الجزء الأول من [الخطط] يتحدث علي مبارك، عند الكلام عن بناء القاهرة، عن زمن كتابته لهذا الجزء فيقول إنه سنة ١٣٠٠ هـ (أي سنة ١٨٨٢م ـ سنة ١٨٨٣م).

٤ ـ [آثار الإسلام في المدنية والعمران]:

وهو كتاب لم يطبع، توفي المؤلف وتركه مخطوطاً.. والمصدر الوحيد لمعرفتنا بنبأ تأليفه هو تلميذه الدكتور محمدبك دري الحكيم، فلقد ذكر في كتابه [تاريخ حياة المغفور له علي مبارك باشا] أن المؤلف قد «أكمل كتاباً جليلاً سماه [آثار الإسلام في المدنية والعمران] فكان هذا الكتاب آخر عمل له مبرور، وخاتمة سعيه المشكور، فإنه نعم الكتاب، شرح فيه كل ما أدخله الإسلام من العمران في الممالك، وما ترتب عليه من المدنية والنظام، وما تضمنه من الحكم والعلوم العالية، بعبارات تكفل المطلوب على وجه صحيح مقبول. إلا أن هذا الكتاب لم يطبع إلى الآن ـ [١٨٩٤ م ١٣١١ هـ] ـ والذي نعرفه من أمره أنه لما أكمله تأليفاً وتبييضاً أعطاه لأحد أفاضل العلماء الأزهريين ليعيد نظره عليه ويدقق في مراجعة أصول الأحاديث النبوية التي كانت فيه، فكان كذلك، وقرأه هذا الأستاذ لآخر حرف فيه، وكتب بما رآه من بعض ضبط الروايات في الحديث عدة أوراق ألحقها بذلك الكتاب. وها هو باقٍ، فيما نعلم، بخزانة مؤلفه، رحمه الله، ينتظر من أهل العلم والعرفان التفاتة إلى طبعه، لتعم به الفائدة، ويعرف فضل الإسلام في تقدم البلدان..»[1].

تلك هي عبارات الدكتور دري عن هذا الكتاب.. وهي

---

(١) ص ٦١.

عبارات عارف متيقن من تأليفه ووجوده بمكتبة علي مبارك حتى سنة ١٨٩٤ م . .

وإن أملنا لعظيم في أن نصل، بعون الله ومساعدة أسرة المؤلف العظيم، إلى أصول هذا الكتاب حتى تنضم صفحاته إلى [أعماله الكاملة] التي بدأنا إخراجها، محققة، منذ سنة ١٩٧٩ م . .

٥ - [شرح الحديث: «أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»]:

يذكر سركيس عنوان هذا الكتاب ضمن مؤلفات علي مبارك، ولكن دون ذكر أية معلومات عن صفحاته، أو مكان طبعه، أو تاريخ هذا الطبع . . بل ويضع علامة استفهام عقب ذكره لعنوانه[1]! . .

ولم نستطع العثور على كتاب للمؤلف بهذا العنوان . . وإن كنا لم نفقد الأمل، ولم نتوقف عن البحث والتنقيب . .

٦ - [تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين]:

وهو من كتبه المدرسية التي كان يؤلفها للطلاب والدارسين . . طبعته مطبعة مصر سنة ١٢٩٠ هـ (سنة ١٨٧٣ م) في ٤١٩ صفحة . .

---

(١) [معجم المطبوعات العربية والمعربة] ص ١٣٦٨. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

٧ - [تقريب الهندسة]:

وهو كتاب مدرسي، ألفه لتعليم الضباط وصف الضباط عندما تولى الإشراف على مشروع محو أميتهم في عهد الخديوي سعيد، فطور هذا المشروع - كما سبقت إشارتنا -. . ولقد طبع للمرة الأولى، بأمر من الخديوي سعيد، بمطبعة الحجر، الموجودة بمطبعة بولاق، سنة ١٢٧٧ هـ (سنة ١٨٦١ م)[١]. . ثم أعيد طبعه بمطبعة وادي النيل سنة ١٢٨٩ هـ (سنة ١٨٧٢ م). . وفي آخره لوحات هندسية. . وصفحاته ٩٥ صفحة.

٨ - [تنوير الأفهام في تغذي الأجسام]:

وهو كتاب مدرسي مبسط، في الطب، طبع بمطبعة المدارس سنة ١٢٨٩ هـ (سنة ١٨٧٢ م). . ثم أعادت طبعه مطبعة الجمهور سنة ١٩٠٣ م في ١٤٨ صفحة.

٩ - [جغرافية مصر]:

كتاب مدرسي. . طبعته مطبعة مصر سنة ١٨٩٤ م. .

١٠ - [حقائق الأخبار في أوصاف البحار]:

كتاب مدرسي، نشر مفرقاً في مجلة [روضة المدارس] أولاً. . ثم طبعته مطبعة وادي النيل سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) في ٨١ صفحة. .

---

(١) [تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٣٦٤.

١١ ـ [طريق الهجاء والتمرين]:

كتاب مدرسي، في جزئين..

١٢ ـ [خواص الأعداد]:

وهو كتاب مدرسي، نشر مفرقاً في [روضة المدارس] ثم طبعته مطبعة. المدارس الملكية بسراي درب الجماميز، أثناء تولي المؤلف إدارة عموم المدارس الملكية ـ [غير الحربية] ـ سنة ١٢٨٩ هـ (سنة ١٨٧٢ م) في ١٠٤ صفحات.

وهذا الكتاب يدخل في عداد مترجمات علي مبارك أكثر مما يدخل في مؤلفاته، فهو يقول في مقدمته: «.. وبعد. فلقد اطلعت على بعض كتب فرنساوية، مشتملة على نفائس مسائل حسابية، وقد ذكر فيها بعض خواص للأعداد، وما يتعلق بعلم الأوفاق من المواد، فاستحسنت أن أفصح عنها بلسان التعريب، لما أنها اشتملت على كل معنى غريب، فليقبل عليها من له في الإقبال على مثلها صدر مشروح، حيث هي لا شك جلاء لصدأ العقل وغذاء للروح...»[١].

ومثل هذه الخاصية تتكرر، بمقادير متفاوتة، في كتبه المدرسية على وجه الإجمال..

١٣ ـ [الميزان في الأقيسة والمكاييل والأوزان]:

وهو كتاب مدرسي.. أكمل تأليفه بعد أن ترك الوزارة سنة

---

(١) ص ٢.

١٨٩١ م[1] وطبعته مطبعة مصر سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩٢ م) في ٩٦ صفحة . .

١٤ ـ [خلاصة تاريخ العرب]:

وهو تعريب وتهذيب لكتاب العالم الفرنسي جان جاك سيديو [١٧٧٧ ـ ١٨٣٢ م] [Sédillot, J. J.] . . ودور علي مبارك في هذا الكتاب هو دور ترشيحه للترجمة وإشرافه على مشروع ترجمته وطبعه، باعتباره من المراجع الهامة في موضوعه . . ولقد كان هذا المشروع من المشروعات الفكرية التي أنجزها بعد تركه الوزارة سنة ١٨٩١ م . . ولقد طبع الكتاب قبل سنة ١٨٩٤ م ـ ثم أعادت مطبعة محمد مصطفى طبعه سنة ١٩٠٣ م في ٢٩٨ صفحة .

١٥ ـ [المدبر الإنساني والمدبر العقلي الروحاني]:

وهي رسالة تقع في ثلاث عشرة صفحة . . نسبت للإمام محمد عبده، ونشرت في صحيفة [الأهرام][2] ثم نشرها الشيخ محمد رشيد رضا [١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م] في [تاريخ الأستاذ الإمام][3] . . ولكننا، في تقديمنا [للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] صححنا هذا الخطأ وأثبتنا أنها مترجمة، وأن مترجمها هو علي مبارك، وأن دور الإمام محمد عبده فيها هو دور المراجعة والتقويم اللغوي

---

(١) [تاريخ حياة المغفور له علي مبارك باشا] ص ٦٠.

(٢) العدد ١١، ٢٣ في ٢٣، ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦م.

(٣) الجزء الثاني «المنشآت».

لأسلوبها. . واستندنا إلى الحقيقة التي ذكرتها صحيفة [اللواء][1] وهي تؤبن الإمام محمد عبده وتتحدث عن بدء علاقته بعلي مبارك، وقولها: «. . . وأول نجم أضاء في سماء حظ الفقيد أن المرحوم علي مبارك باشا، ناظر المعارف، ترجم رسالة في [الروح والجسد]، ثم أعطاها للأستاذ الفقيد ليكتبها في قالب فصيح، لما بلغه عنه من زيادة الاقتدار، فكتبها بعبارة بليغة، أعجب بها علي مبارك باشا، وأراد أن يكافىء الفقيد فعينه معلماً لأولاده»[2].

* * *

تلك هي آثار علي مبارك في حقل الكتاب. . ما دخل منها في عداد الآثار الفكرية التي مثلت إضافة للفكر، وريادة لبعض ميادينه وأصالة فيما حدث من قسمات. . وما دخل منها في زمرة الكتب المدرسية التي اسهمت في تربية العقل الناشىء يومئذٍ وتعليمه. . وما كان منها ترجمة وتعريباً. .

ومضافاً إلى المؤلفات الفكرية لعلي مبارك، هناك مقالاته، ذات الطابع الفكري، التي نشرها في عدد من الصحف والمجلات. . أما تقاريره الفنية، واللوائح التي وضعها للدواوين والمنشآت، فإنها تدخل في عداد «الكتابات الديوانية» للعصر الذي عاش فيه. . هكذا، وعلى هذا النحو كان عطاء الرجل الفكري وكان

---

(١) عدد ٧٦٩ في ١٢ يوليو سنة ١٩٠٥م.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ١ ص ٢٠٨، ٢٠٩. دراسة وتحقيق دكتور محمد عماره. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

هذا الصرح العملاق ـ كما وكيفا ـ من الآثار الفكرية . . وهي آثار قد فاقت، حتى من ناحية الكم، ما خلفه أي علم من الأعلام الذين عاصروه[1]!

- ٩ -

كان علي مبارك فلاحاً مصرياً، مائلاً، في اللون، إلى السمرة، عملاقاً ومهيباً، له اعتزاز شديد بأصالته وعراقته كابن لشعب علم الدنيا فنون الحضارة وعلوم الانسان، الدنيوية والدينية معاً! . . وكان فخره، دائماً، نابعاً من انتسابه لأمته العريقة، على حين كان يرى في قيم العصور الوسطى التي جعلت «الشرف» في أسرته مقترناً «بمشيخة القرية الدينية» وبالعزوف عن الصنائع والحرف المدنية، كان يرى في هذه القيم آثاراً متخلفة لا بد لها أن تغرب وتزول. . كما كان العلم والمعرفة والعطاء الوطني، بالنسبة له، المصدر الأول لقيمة الانسان، والرصيد الأغنى الباعث على الشموخ والإباء . .

---

(١) يقول عمر طوسون في كتابه [البعثات العلمية] ص ٢٤٣ : إن من مؤلفات علي مبارك «التي لم تطبع كتاب في تاريخ مصر، في خططه وأحال عليه. وقد بحثنا عنه فلم نقف له على أثر . .»

ونحن نعتقد أن علي مبارك كان يشير، في مثل تلك المواطن، إلى كتب له معروفة، وإن كان يعنون لها بمضمونها وموضوعها، لا بعنوان الغلاف ـ ولقد أشرنا لنموذج مماثل فيما تقدم. . . وإحالته على الكتاب ترشح أنه مطبوع، وإلا فكيف يحيل القارىء عنه؟!

كان فلاحاً مصرياً.. حوله العلم، وانتقلت به المعرفة من راعي غنيمات في أسرة فقيرة تلجئها الحاجة ويضطرها الاضطهاد إلى الهجرة والفرار من بلد إلى بلد اتقاء للظلم وهرباً من الحكام.. إلى واحد من القلة القليلة التي نقلت مصر من عصورها المظلمة إلى رحاب عصر اليقظة والنهضة والتنوير.. فهو عندما يكتب يبني صرحاً.. وعندما يعلم يربي جيلاً.. وعندما يهندس ينتقل بالمدينة إلى عصر جديد، وبالأرض والماء إلى عصر الميكنة والبخار.. وعندما يقاتل يبدع، سواء في بناء الاستحكامات، أو انشاء المستشفيات، أو المناورة على موائد المفاوضات!..

وكان رجل مجتمع، يلفت أنظار قومه إلى الفنون الحديثة وأدوات التعبير الأدبية الجديدة، ويستمتع، ويدعو قومه إلى الاستمتاع، بطيبات الحياة وفنونها.. ويعيش وسط محيط من العلاقات الاجتماعية والصداقات جعله زاخراً وخصباً.. خلق عظيم لإنسان عظيم..

كان يدرك ما في الشخصية القومية من كنوز وطاقات قبرتها وحدت من فاعليتها المظالم والقيود وظلمات العصور الوسطى، فالتزم أنه يمد اليد، دائماً وأبدا، كي يكشف عن هذه الكنوز، ويفتح أمام المواهب النوافذ والأبواب..

فهو الذي جعل من المدارس والمكاتب ميادين لانتخاب النبهاء واكتشاف النابغين..

وهو الذي رأى التلميذ مصطفى كامل أثناء زيارته لمدرسته الثانوية، فالتفت إلى شخصيته المتميزة، وأثنى على فصاحته وشجاعته وقوة حجته، وقال له، مشجعاً: إنك امرؤ القيس!.. وبشره بمستقبل عظيم.. حتى لقد دعاه إلى منزله، وقدمه إلى كبار رجالات المجتمع وشيوخ علمائه ومثقفيه، وأدار معه، في حضرتهم، الحوار في العديد من قضايا العلم والاجتماع!..[1]

بل لقد جعل من بيته من «الحلبة الجديدة» منتدى لرجالات الفكر والدولة، يدخل إليه من يريد، دونما دعوة أو سابق معرفة، سواء أكان متلقياً أو صاحب إسهام وعطاء.. ويحكي عبد العزيز فهمي باشا [١٨٧٠ - ١٩٤٨م] عن ذلك فيقول: «كنت يوماً في بيت علي باشا مبارك، والناس تموج في بيته، والحجر مزدحمة بالزوار، وعلي باشا يتصدر حجرة منها، فحضر مصطفى باشا رياض، وكان ناظر النظار إذ ذاك - [رئيس الوزارة] - فأخذ يخوض في الناس - [يشق طريقه بينهم] - حتى وصل إلى علي باشا مبارك، فقال له:

- ما هذا يا باشا؟!

- فقال له: يا دولة الرئيس، إنا في بلد يهاب الناس فيه أن يخاطبوا معاون إدارة أو مأمور مركز أو أي موظف حكومي، فإذا

---

(١) عبد الرحمن الرافعي [مصطفى كامل: باعث الحركة الوطنية] ص ٢٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢م.

نحن جرأناهم علينا، وخاطبناهم وخاطبونا، أمكنهم أن يخاطبوا الموظفين في غير هيبة، وتعودوا أن يطالبوا بحقوقهم، وقالوا: إنا نجالس الناظر - [الوزير] - ونخاطبه، فلم لا نخاطب من هو أقل منه منزله؟!»[1].

لقد كان الرجل يمارس بالفكر، والقدوة.. بالتعليم، وتهيئة السبل لتنمية الثروة.. معركة كبرى لفك قيود الإنسان، وتحرير طاقاته، والانطلاق به من ظلمات عصوره الوسطى وجهالتها وجاهليتها إلى أضواء العصر الحديث بقيمه المتحضرة وحسه الحضاري الرفيع..

ولذلك.. عشقته الأمة التي أعطاها كل ما ملك من عطاء..

وعندما ابتعد عن آخر وزارة تولاها.. وتفرغ لاستكمال عدد من مؤلفاته.. عن له أن يذهب إلى بلدته «برنبال».. كما كانت عادته في مثل تلك الفترات - كي يباشر إصلاح أرضه وزراعتها، بعد أن أهملت لانشغاله عنها بمهام حياته العامة.. وهناك مرض بمرض «المثانة»، فعاد إلى القاهرة للعلاج.. ولكن علاج الأطباء لم يجد مع مرضه نفعاً.. فحانت لحظة لقائه لربه، وعادت نفسه المطمئنة، راضية، إلى بارئها، من منزله بالحلمية، ليلة الثلاثاء ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ م (٥ جمادي الأولى سنة ١٣١١ هـ)..

ولقد أصاب خبر وفاته قلب مصر وعقلها بألم شديد..

---

(١) [زعماء الاصلاح] ص ١٩٨، ١٩٩.

وعبرت الأمة عن تقديرها له، وألمها لفراقه بكل ما يملك المصاب من أدوات التعبير. .

● فالخديوي عباس حلمي الثاني [١٨٧٤ - ١٩١٤م] أصدر أمره أن يكون تشييع جثمانه على النحو اللائق بما قدم لبلاده وأمته. .

● ورئيس مجلس النظار مصطفى رياض باشا نهض لتنفيذ أمر الخديوي، وللوفاء بحق الفقيد على الوطن، وبحق ما كان بينهما من صلات. .

● والمدارس المصرية، وكل دور العلم في أنحاء القطر، أغلقت أبوابها ليودع أبناؤها وأساتذتها الصانع الأول للمؤسسة التعليمية الجديدة في مصر الحديثة. .

● وأساتذة «دار العلوم» وطلابها، ومعهم أبناء المدارس العليا تسابقوا في رثائه، شعراً ونثراً. . وتألفت منهم لذلك الجمعيات، وعقدت حفلات التأبين. . على قبره، وفي منتدى «الأنف تيانز» بنظارة المعارف، وغيرهما. .

● والصحف والمجلات، مصرية وعربية وأوروبية، على اختلاف مشاربها واتجاهاتها، أفردت الصفحات لرثائه، والحديث عن عطائه لأمته، ودوره في تحديث الوطن الذي نشأ فيه. .

● والجمعيات العلمية، في الوطن العربي وأوروبا، أسهمت في تأبينه وتعداد آثاره على نحو لائق بما قدم من عطاء. .

● واستهم أبناء «دار العلوم» واكتتبوا ـ من أول خريج في أول دفعة تخرجت منها حتى وقت وفاة علي مبارك ـ فرسموا له صورة زيتية بحجمه الطبيعي، وهو متكىء على عصاه، أزيح عنها الستار، بمبناها، في حفل أقيم لتأبينه في ٢٦ إبريل سنة ١٨٩٤م.

● وألف طلاب المدارس جماعة جمعت ما قيل من الشعر في رثائه، فطبعوه ووزعوه على الناس بالمجان..

● وتألفت في القاهرة لجنة من كبار رجالات الفكر والدولة، قررت فتح اكتتاب وطني عام لإقامة تمثال لعلي مبارك، ومسلة تخلد عليها أعماله وانجازاته في أحد ميادين القاهرة، وقدروا نفقات مشروعهم بأحد عشر ألف فرنك.

ولكن المشروع تعثر. وأصابه ما يصيب حماسنا لعظمائنا من فتور سرعان ما يأتي عليه النسيان!.. أما المبالغ التي جمعت لهذا الغرض فلقد حولتها اللجنة إلى [الجمعية الخيرية الاسلامية] ـ في ظل قيادة الامام محمد عبده لها ـ لتكون جوائز للمتفوقين من أبناء مدارسها.. وفي خطبة للإمام محمد عبده في حفل توزيع هذه الجوائز سنة ١٩٠١م يتحدث عن ذلك فيقول: «إن اللجنة التي تألفت لإيجاد أثر يخلد ذكرى المرحوم علي باشا مبارك، لخدمته المعارف، كانت ارتأت أن تقيم له تمثالاً في نظارة المعارف، ثم رجعت عن هذا الرأي، لأن معظم الأمة المصرية يعد التماثيل إهانة لا تكريماً، ويسمون التمثال: «الصورة المسخوطة!»، أي

المسوخة!. وترجح للجنة أن تعطي هذه الدراهم [للجمعية الخيرية] تستغلها وتجعل غلتها في كل سنة جوائز للنابغين من تلامذة مدارس الجمعية الخيرية، بشرط أن يؤلف أحد أعضاء الجمعية كتاباً في تاريخ علي باشا ومآثره يوزع مع الجوائز أيضاً، ويكون هذا أحسن ذكرى وأثر... وقد تأخر تأليف هذا الكتاب في هذه السنة، فرأينا من التعجيل بالبر أن نوزع الجوائز، وفي العام القابل يوزع الكتاب إن شاء الله!...»[1].

ثم لم يلبث الإهمال والنسيان أن أودي بتلك البقايا من مشروع تخليد ذكرى ذلك الرجل العظيم!..

فهل كان علي مبارك يتنبأ بموقف قومه من ذكره وذكراه عندما كتب، متعجباً ومستنكراً، فقال

«ومن الغريب أننا نرى أغلب الخلق يرغبون في الاطلاع على سير مخترعة وخرافات وأكاذيب، ونحو ذلك من الأساليب، ولا يعلمون لمن اشتهر من أبناء جنسهم أثراً، ولا يروون عنه خبراً، فتراهم يجهلون سير المشهورين من أبناء ملتهم ولا يعرفون نسبهم ولا حسبهم؟!»[2].

لكن الرجل الذي وصفه الأمير عمر طوسون: بأنه «**يكاد أن يكون أعظم رجال البعثة التي ذهبت إلى فرنسا سنة ١٨٤٤ م،**

(١) [الأعمال الكاملة للامام محمد عبده] جـ ٣ ص ١٦٢.

(٢) [الأعمال الكاملة لعلي مبارك] المجلد الأول ص ٥٧٥.

علماً وعملاً وآثاراً، بل يكاد يكون أعظم رجال عصره في مصر..».. هذا الرجل - كما يقول عمر طوسون، أيضاً، ستظل تتحدث عنه آثاره «فالآثار التي خلفها تزيد في مكانته السامية، وتعلي من قدره على ممر الأيام، وهي وحدها أفصح لسان في الثناء عليه!»[1].

ومن هنا كانت آثاره هذه، الفكر منها والانجازات، تلك التي أشارت إليها [بطاقة حياته] هذه، والتي ستتحدث عنها فصول الدراسة التالية، هي مادة خلوده الذي يقاوم العقوق!..

وإنا لنأمل لدراستنا هذه أن تكون وفاء ببعض الدين، ورفعاً لكثير من الغبن، وإزالة لظلم شديد وعظيم عن ذلك الرجل العظيم!..

---

(١) [البعثات العلمية] ص ٢٤٤.

العقل العربي يتأمل حضارة أوروبا

[. . . وعندي من الشوق إلى معرفة أحوال هذه المدينة العظيمة؛ «باريس»، والوقوف على أحوال أهلها، والتعرف على آثارها الباهرة وصنائعها الزاهرة ما تشتد به الحاجة إلى استطلاع أخبارها. . . فلقد امتازت في التقدم، وكثر بها المؤلفون، ورحل إليها كثير من أهل أوروبا، وخفت فيها العقوبات، فكل إنسان يتكلم بحريته، ويكتب ما شاء من أحوال الخلق، خصوصية أو عمومية، سياسية أو دينية. . فظهر فيها رجال ذوو أفكار، وانتشرت كتبهم في سائر الأقطار، فانجلت عنهم غياهب الجهل، وتميزوا عن غيرهم بالعقل] . . .

. . . وليس علينا من أخلاق أهل باريس وعاداتهم، مليحة كانت أو قبيحة، وإنما علينا إذا رأينا في أوضاعهم وطباعهم وأحكامهم ومبانيهم، وغير ذلك، شيئاً نافعاً لبلادنا أحصيناه وحفظناه، ونقلناه إلى أهل ملتنا، وأظهرنا محاسنه، وبينا منافعه، ورغبنا الناس فيه. .

. . . وغاية مرادي أن أقضي هذه المدة في استفادة ما ينفع وطني. وفي نيتي أن أكتب مجموعاً أضمنه كل ما أراه واستحسنه في هذه السياحة، ليكون تذكرة لي إذا عدت.إلى سكني، وطُرْفة مجلوبة إلى أهل وطني! . . .]

علي مبارك

كانت بعثة علي مبارك إلى فرنسا سنة ١٨٤٤م ثالثة البعثات المصرية إلى هذه البلاد.. وكان كتابه [علم الدين] ـ الموسوعة الروائية ـ العلمية ـ الثقافية ـ التعليميه ـ العمل الثاني في أدب الرحلات بأدبنا العربي الحديث، بعد [تخليص الابريز] لرفاعة رافع الطهطاوي.. ومن ثم فلقد كان ميداناً سجل فيه صاحبه رؤية أمة عريقة، ذات حضارة، قبرتها خرافات العصور «المملوكية العثمانية» وظلماتها، رؤية هذه الأمة لحضارة عقلانية مستنيرة، اتخذت من تراثها اليوناني ومن تراث العرب والمسلمين سبيلاً للانعتاق من قيودالتخلف والخرافة وظلام العصر الوسيط.

لقد كانوا أكثر منا تخلفاً.. وها هم قد بلغوا إلى ما نحب ونصبوا.. لماذا؟.. وبماذا؟.. وكيف؟؟.. للاستكشاف والتأمل، ورسم السبل، وتحديد الطرق والمسالك.. لكل ذلك كانت رحلة علي مبارك في [علم الدين]!..

ومنذ البداية يؤذن الرجل في قومه بضرورة الخروج من عالم العصور الوسطى، الذي كان العالم فيه ينقسم ـ حسب تصورات

أهله ـ إلى «مؤمنين» و«كفار» . . فنحن المؤمنون، وعلينا أن ننعزل في وطننا ـ دار الإسلام والسلام ـ ولا نتعامل مع «الكفرة» سكان دار الكفر والحرب! . . تلك الفكرية التي سادت بسيادة الخرافة في حقل الدراسات الاسلامية حتى حسبها الشيوخ والناس، ظلماً على الإسلام! . .

فعندما جاء المستشرق الانجليزي (الخواجا) ـ أحد أبطال الرواية ـ إلى القاهرة، ورغب في صحبة عالم أزهري كي يسيحا معاً في الأرض والحضارات والعصور، ولقي الشيخ «علم الدين» ـ البطل الرئيسي في الرواية ـ وتم بينهما الاتفاق، جاء صوت العصور الوسطى، الذي كان لا يزال عالياً حتى ذلك التاريخ، يستنكر أن يزامل الشيخ ويتعامل ويواد كافراً لا ينتسب إلى دين الاسلام! . . جاء تلاميذ الشيخ علم الدين، من «مجاوري» الأزهر، إليه فزعين غير مصدقين، وقالوا له:

ـ «أدام الله، أيها الأستاذ، تمكينك، وحرس دنياك ودينك، قد سمعنا من بعض الناس أن هذا الرجل الانكليزي قد استمالك إلى موافقته على مراده، ومرافقته إلى بلاده وغير بلاده، فأعظمنا ذلك وأكبرناه، ورددناه وأنكرناه، وقلنا: حاشا لله أن يخطر لسيدنا الشيخ ببال، أو يتصور له في خيال، أن يرضى بخدمة رجل على غير دينه، يعلمه علوم الشريعة طمعاً في المال، أو في حال من الأحوال، لما نعلمه من زهدك وورعك، واستقامة رأيك وسلامة طبعك، وقد علمت قول الله سبحانه في التنزيل:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء

تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل. . . ﴾[1]!!

وأمام هذا المنطق المتخلف من بقايا العصور الوسطى، يقف «علم الدين» رافضاً له، ومبشراً **بمنطق جديد وفكر حديث، لا يقسم العالم والبشر إلى «مؤمنين» و«كفار» إنما إلى: «متقدمين» و«متخلفين» وإلى «أصدقاء» ـ معاهدين ـ و«أعداء» ـ محاربين ـ . . . ويدعو قومه إلى مودة المتحضرين المعاهدين لما فيه مصلحة الوطن وتقدم بلاد الاسلام**. . فيقول علم الدين لتلاميذه:

ـ «إن هذا الرجل من المعاهدين لنا، الذين لم نعهد نقضهم لعهدنا. . . وربما كان في تعليم العلم لمن لم يكن على ديننا فائده. . . فيسلم. . . أو يبقى على دينه، ولكنه يرد عن ديننا الأقاويل التي يلقيها، في بلادهم، بعض علمائهم في حقنا. . وقد قال الله سبحانه: ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله. ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾[2]. . وقد نزلت في المشركين الذين نقضوا العهد، فنبذ الرسول إليهم عهدهم وأمر بقتالهم. . . وهذا الرجل ليس

---

(١) الممتحنة: ١.

(٢) التوبة: ٦

بمثابة هؤلاء المحاربين من المشركين. . . **فالمنهى عنهم هم المحاربون للمسلمين، لا كل من خالف دينهم**، كما يدل عليه ما يعد هذه الآية من قوله تعالى: ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون. . ﴾[1]. . وقد سئل الحافظ جلال الدين السيوطي [٨٤٩ - ٩١١ هـ ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م] هل يجوز صحبة الكفار وقبول هديتهم؟ فأجاب بجواز ذلك. . وجاء: «اطلبوا العلم ولو بالصين». . ومعلوم أن أهل الصين كفار. . . **ثم إن تعلمنا للغة هؤلاء القوم لا تنكر، فإنا بذلك يتيسر لنا الوصول إلى ما وصلوا إليه من الفنون والصنائع الكثيرة المنافع**، ذلك لأننا بواسطة معرفة لغتهم يتأتى لنا التكلم معهم واستطلاع ما عندهم والوقوف على مالهم في تلك الفنون والصنائع من الكتب والرسائل العديدة، ثم نختار منها ما نراه نافعاً لبلادنا ولا زمالنا، ولا بأس علينا في ذلك، فقد أمر الرسول بعمل الخندق، في الغزوة المعروفة به، لما أخبره سلمان بأن قومه، وكانوا مجوساً، يصطنعون الخنادق في بلادهم. . !»[2].

بهذا المنطق الأولى والبسيط، الذي يحسبه القارىء المعاصر

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول ص ٣٧١ - ٣٧٥.

ساذجاً، كان علي مبارك يبشر بفكر ثوري، يبغي به أن يحدث انقلاباً في الفكر السائد، ويفتح ثغرة في الجدار السميك الذي تقوقعت خلفه الشخصية العربية والاسلامية لعدة قرون.. فهو - ومن قبله رفاعة الطهطاوي[1] - قد جاء إلى قومه مبشراً بفكر جديد، يقدم للانسانية تقسيماً جديداً، يعتمد على معيار «التحضر والصداقة»، لا على معيار «الكفر والإيمان».. إنه يدعو أمته إلى مائدة الحضارة كي تطعم الطعام الملائم لمعدتها، حتى ترتد إليها الصحة والعافية بعد مرض طال عليه الزمن حتى أصاب ذاتها وقيمها وفكرها بالهزال الشديد والتشوهات الأكثر شدة!..

وهو لا يدعو قومه إلى فتح النوافذ فقط، واستقبال الوافدين والنظر في أفكارهم... بل يطلب إليهم النهوض إلى مواطن الحضارة، والسفر إلى مهادها.. لقد أصابتهم العزلة بأمراض سموها حب الأرض وكراهة مغادرة البيئة، والعزوف عن فراق الأوطان.. فجاء «علم الدين» ليعلمهم أن المدح والذم لا يتعلق بالسفر أو القرار، هكذا بإطلاق، وإنما يتوقف ذلك على عنصر «المنفعة» و«الثمرة» التي يحققها الانسان وتحققها الأمة من وراء كل من الارتحال أو بقرار... فالذين يتركون أوطانهم لتحصيل منافعها هم حضور في هذه الأوطان، لحضور أوطانهم في العقول والقلوب الطامحة الباحثة، بينما نجد الحاضرين بلا ثمرة مضافة هم غائبون عن الأوطان مسافرون عن ميادين المنفعة لهذه

---

[1] [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] جـ ١ ص ١١٩ - ١٣٢.

الأوطان!! «.. فالسفر، مع العز والغنى، حضر! والحضر، مع القلة والذلة، سفر!... فينبغي لكل عاقل أن يطوف ما استطاع من البقاع، ليرى ما لأهلها من الأحوال والعادات، وما يترتب على كل حالة من المضار والفوائد، ويقارن بينها وبين ما هو جار في بلاده وبين أهل وطنه، وينبههم على ما رأى نفعه وما علم ضرره... فمن سافر واطلع على أحوال غير بلاده كمن عاش زيادة على عمره!... وليس حب الوطن خاصاً بملازمته وعدم مفارقته، وليس المقام به دليلاً على حبه، ولا الرحيل عنه دليلاً على بغضه... **فمن أحب الوطن حقيقة سعى في نفعه ونفع أهله بما أمكنه، سفراً أو حضراً!...»**[1].

* * *

وعلي مبارك في رحلته هذه، يدرك جيداً سبق رفاعة [بتخليص الابريز] إلى هذا الميدان، ومن ثم فإنه يبحث عن جديد ليضيفه في هذا الميدان.. فعلم الدين تفصل الكثير مما أجمله [التخليص]، ولقد أتاحت لها فصولها الكثيرة فرصة ذهبية لتحقيق تلك الميزة.. ولكنها أيضاً تهتم بالجديد الذي حدث بعد رحلة رفاعة، بل وبنقد ما تميز به [التخليص] من أحكام سريعة، أملتها ظروف خاصة برفاعة، الذي كتب عن فرنسا من خلال باريس، على حين قد أتيحت لعلي مبارك السياحة في فرنسا، ومشاهدة المدن والمعالم الكثيرة خارج باريس...

---

(1) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٣٧٥ ـ ٣٧٧.

فرفاعة - في [التخليص] - «قد أكثر من مدح باريس وأهلها، وأطنب في وصف نسائها ورجالها، وطاف حول المدن إلا أنه لم يدندن! ورتع حول ذاك الحمى وحام، وما رفع عن وجه ليلى اللثام!، وأظنه لم يأتها من أبوابها، ولا كشف له عند وصفه لها عن نقابها!.. ومع ذلك فجميع ما ذكره ورآه قد تغيرالآن، ومضى من وقته إلى الآن نحو ثلاثين سنة، وفي هذه المدة تقدمت العلوم والصنائع تقدماً زائداً، وظهر في أعمال الخلق النتائج المفيدة، فصلح بذلك شأنها، واتسعت دائرة ثروتها... وهكذا كل شيء أخذ في التقدم والتحسن!»[1]

فعلم الدين، هنا، تتبنى انتقادات بعض أساتذة رفاعة [للتخليص][2].. ولكنها تظلم الرائد بعض الظلم الذي نختلف معها حياله!..

* * *

ومنذ البداية.. وحتى المسامرة الأخيرة من مسامرات [علم الدين]، فإن الإعجاب بمظاهر التقدم في الحضارة الأوروبية، أمر بارز وواضح للعيان.. لا لمجرد الاعجاب، بل لأننا نريد لوطننا أن يدخل في هذا الميدان، كي يتمتع أهله بهذه الثمار - فعلم الدين يعجب من تلك المفارقة الشاذة التي جعلت الأوروبيين يعلمون «من أمور بلادنا وما بها من الآثار العظيمة والمباني القديمة

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني ص ٤٣٤.
(٢) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] جـ ٢ ص ١٨٤.

أكثر مما نعلم. . . فهم يذكرون من ذلك أموراً ليست في علمنا، ولا اطلعنا على نص لها في كتبنا! . .»[1].

ومن منا لا يعجب من بقاء هذه المفارقة الشاذة التي تحدث عنها «علم الدين»، حتى وقتنا هذا؟! . .

وهو يلفت النظر إلى أثر العقل والعلم والاستنارة وتنظيم المعلومات في ذلك. . فكتاب [وصف مصر] الذي قدم فيه علماء الحملة الفرنسية أدق دراسة للمجتمع المصري، في ماضيه وحاضره، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وفكرياً وفنياً قد جاء ثمرة لإقامة لم تتعد ثلاث سنوات على أرض هذه البلاد! «فكيف تفحصوا هذه التفحص واستكشفوا هذا الاستكشاف؟! . . .» وكانوا، مع ذلك في هذه السنوات «في قتال دائم» مع المصريين! . . . ثم فتش عن آثار الأتراك العثمانيين الذين بقيت مصر في أيديهم «قرونا. . ولم يحدثوا من ذلك شيئاً!»[2]. .

إنه العلم. . وتنظيم المعلومات و[التعداد والإحصاء] الذي جعلته [علم الدين] عنواناً لمسامرة من مسامراتها! . . يدعو علي مبارك قومه إلى الالتفات إليه، ودراسته، باعتباره «علماً» له «شرف» ما يعرفون من علوم الدين. . .

وأينما حل وحيثما ارتحل وكلما وقع بصره على مظهر من مظاهر

---

(١) [الأعمال الكاملة لعلي مبارك] المجلد الثاني ص ٧٣.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني ص ٢٤٧.

التقدم في فرنسا، نجد صورة المقابل في وطنه وحاله ماثلة في الذهن، الذي يقارن، ويزن، ويبحث عن أسباب الفروق الشاسعة، وكيف السبيل إلى اللحاق..

● ففي شوارع «مرسيليا... ولكون النفوس مجبولة على حب الوطن تذكر الشيخ «علم الدين» مصر وأهلها، وثغر الاسكندرية وحالها، فوجد بينهما وبين مرسيليا فرقاً كبيراً.. وليس ذلك إلا من تفاوت أحوال التقدم. ونظر إلى المارين بالطرق، وقارن أحوالهم بما يعلم من أحوال أهل بلاده، فوجد أن لا نسبة بينهما إلا في الصورة فقط!، لأنه رأى الكل يسعى، مع الاجتهاد والغيرة والنشاط، في طلب الرزق، وعليهم آثار اليسار والثروة والنعمة... فكأنهم اجتمعوا للصلاة، أو لسماع منشور من أحد الولاة!... ثم تأمل في أصل ذلك وسببه، فوجده ناشئاً من قوانين الضبط الابتدائية، وطرق التربية الأولية، فتعود كل على ما نشأ عليه!...»[1]

● وعندما رأى أطفال باريس «تذكر القاهرة وأحوال أطفالها الوخيمة... وقارن بين الحالتين... وتمنى أن تكون تربية أطفال المصريين كالجاري بباريس، لتخلص الأطفال من ربقة الأمراض الناشئة عن عدم تريضهم، وحبسهم داخل بيوت أهلهم!...»[2].

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٦٣٢.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني ص ٢٣٦.

● وعندما يزور «البورصة» و«البنك» ويشهد هدير المعاملات المالية وجلبة رجال الأعمال، ويسمع أرقام الألوف المؤلفة من الجنيهات والفرنكات.. يتذكر حال بلاده الاقتصادي، وكيف أن عملاتها - حتى العملات - أغلبها «مضروب» في أوروبا - الجنية الانكليزي، والبنتو، والريال أبو مدفع، وأبو طيرة، والشينكو.. الخ - وهي التي يقبل الناس على التعامل بها، للثقة فيها.. أما ما ضرب منها في بلاده - مثل الجنيه والريال المصريين والمجيديين - فالتعامل بها قليل... فيعجب، ويتساءل: «هل أخرجت الأرض كنوزها للأوروباويين؟! أم تحولت إليهم كنوز كسرى؟! أم عثروا على إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد؟!»[1].

● وحتى «المقهى» يراه الشيخ في باريس منتدى للمتعة والاستفادة معاً.. على حين قد تحولت «مقاهي» القاهرة إلى مباءة فساد وأوكار إجرام.. فيحدث ولده «برهان الدين» قائلاً: «ها أنت قد رأيت ما بهذا المكان من بديع الاتقان، وغريب الاحسان، مما يدلك على تسابق الأفكار في توصل بني نوعك إلى محاسن الآثار، فهذا الموضع، كما تراه، يبلغ كل داخل فيه مناه، فالناس بين آكل وشارب، ومتفرج ولاعب، ومطلع على الأخبار الوقتية - [الصحف] -، وسائل ومجيب عن الأحوال التجارية، والناس، مع اختلاف هذه الشئون، على أكمل هدء وأجمل

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني ص ٤٢٥.

سكون، إلى سلامة أبدان ولطافة أذهان، ونظافة ثياب وملاحة ذهاب وإياب!.. فأين من هذا غالب محلات القهوة في مصر، حيث يجتمع السوقة من الناس، ولا ترى ما يقر الناظر ويسر الخاطر، ولا شيء فيها غير القهوة؟ ونراها، لضيقها، يهجم على من فيها الدخان المتصاعد من الكانون!، وكذلك دخان النرجيلة والعود، حتى يراهم من يمر بهم كأنهم في حريق، أو محل سجن مضيق!، فهي منبع لكثير من الأمراض والعلل، ومأوى لأهل البطالة والكسل، خصوصاً المحلات التي يتعاطى فيها الحشيش، فلا يسمع فيها إلا الألفاظ التي يمجها السمع، وينفر منها الطبع، وقلما خلت عن السب والضرب، فهي بهذه الكيفية لا تليق بالفضلاء..!»[1].

وهكذا... لوحات ولوحات.. يرسمها «علم الدين» لحال قومه، ولما يرى في باريس ومدن فرنسا... مقارناً، وناقداً، وباحثاً عن سبب التقدم، وأسرار التخلف، وطامحاً إلى التغيير لحال قومه كي يلحقوا بركب المتقدمين الذين أفلتوا من القيد وانطلقوا يسابقون مطامح الانسان إلى المزيد من الرخاء والارتقاء..

* * *

وحتى ينبه علي مبارك قومه ـ بطريق غير مباشر ـ إلى أن ما يدعوهم إليه ليس بالأمر الصعب ولا هو بالمستحيل، يلجأ إلى

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٦٣٦.

ترسانة التراث ورصيدهم الحضاري وكنوز التاريخ، يستعين بها على بث الثقة في اللحاق بركب التقدم وتحطيم قيود التخلف التي تكبل العقول والأجسام..

فهو، وهم معه، أبناء أمه لا تبدأ الآن من فراغ، بل هم الخلف لأولئك السلف الذين صنعوا حضارة عقلانية مستنيرة انفردت بالإشعاع في هذا العالم لعدة قرون، وصارت إحدى الحضارات القليلة ذات الطابع المتميز والعطاء العالمي في تاريخ الانسانية الطويل.. «..فمدنية العرب، ذات العز والثروه والشهرة.. قد سبق لها وانتشرت في أقطار الأرض...»[1].

وحتى العصر الجاهلي، الذي يظلمه ويظلم أهله كل الذين يرون ـ بسذاجة ـ أن مجد الاسلام رهن بتجريد ما سبق عصر ظهوره من مقومات الحضارة والعمران.. حتى هذا العصر، يقف علي مبارك مع الذين أنصفوه، فيذكر لأهله ما تميزوا به وامتازوا من ايجابيات.. فلقد «كان فيهم عقلاء حلماء حكماء.. استخرجت أفكارهم أغلب الآداب الانسانية... ويشهد لذلك قوله ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»... فمكارم الأخلاق لم يخترعها الاسلام اختراعاً، ولم يبتدعها ابتداعـاً، وليس هو «الفاطر» لها من عدم.. وإنما هو بناء كان له، قبل ظهوره، كيان عظيم، ثم جاء الاسلام ليتممه وليجعله أعظم وأرقى!.. ويستدل علي مبارك على ذلك، أيضاً، بما كان لعرب الجاهلية من

(١) [الخطط] في الحديث عن جامع عمرو بن العاص.

أشعار وخطب وحكم وأمثال ومقالات فاصلة في المنازعات، وما كان لأدواتهم في التعبير من دقة بلغت بهم الهدف الذي يريدون ـ حتى «لقد ورد الإســلام بتقرير كثير من محاسن عاداتهم، إما بأعيانها وإما بتغييرات يسيرة! . . »[1].

وهذه الحضارة الأوروبية الحديثة، التي يدعو علي مبارك قومه لتأملها والاستفادة منها، قد بنيت على مدنية العرب المسلمين، فهم الذين بعثوا تراث الأوائل وأحيوا ما أندرس من فنونهم وصنائعهم، وتمدن العرب المسلمين «**هو الأساس الحقيقي والمنبع لما يسمونه بالتمدن الجديد المبتدع، فلولا دين الاسلام وعلماء العرب لضاعت العلوم القديمة بأسرها. . . فينبغي لجميع علماء أوروبا أن يذعنوا للعرب بالتقدم في الفضل والعلم. . . إذ لم يظهر العلم والتمدن بالبلاد الأوروبية، الا بعد ظهور الاسلام بنحو ألف سنة. .** »[2].

وإذا انتقلنا من مجال النظر والتعميم إلى ميدان التطبيق وضرب الأمثال، وجدنا علي مبارك يقول لقومه، بطريق غير مباشرة إن أغلب مظاهر التقدم الأوروبي، التي تخلفتم عنها وسبقكم إليها الأوروبيون، لأسلافكم إليها سبق ولهم فيها تراث! . . فهؤلاء الأسلاف هم الذين اخترعوا البـريد لسـرعة الانتقـال. . . والبوسطة لتوصيل المكاتبات. . . والفنارات لهـداية السفن في

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ١٢٧.

(٢) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٥٤١.

البحار... والجند في الطرق لتأمين التجارة والتجار... «أما الرجال الذين نبغوا في رياض الفنون العقلية والعلوم الأدبية فلا سبيل إلى حصرهم ولا طريق للوصول إلى عدهم وذكرهم، فإن ذكر مشاهير كل فن يحتاج إلى مجلد!..»... وعلم التاريخ، كما دونه العرب، شاهد على إبداعهم في «ملاحظة الكائنات الطبيعية، والتجارب، والأعمال البشرية...» وفي هذا الفن وحده «يوجد نحو ألف وثلاثمائة مؤلف باللغة العربية» وحدها[1]!..

وعلى لسان المستشرق الانجليزي يسوق علي مبارك اعتراف منصفي أوروبا بسبق العرب إلى كثير من ميادين التقدم، ومن ثم ـ وبالتالي ـ أهليتهم للعودة، بفعالية واقتدار، إلى هذه الميادين..

● فترجمة حنين بن اسحاق [١٩٤ ـ ٢٦٠ هـ ٨١٠ ـ ٨٧٣ م] للفلك هي أصل هذا العلم عند يوهانس كبلر [٥٧١ ـ ١٦٣٠ م].

● والعرب هم الذين حققوا حركة أوج الشمس، ومدارها، ومدة السنة..

● وهم الذين اكتشفوا البروج، والمزاول، والساعة ذات الرقاص..

● وهم الذين حرروا [المجسطي] لبطليموس [المتوفى بعد

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٥٤٧ ـ ٥٦٠.

سنة ١٦١ م]. . وقاسوا الدرجة من خط نصف النهار. .

● وهم الذين وضعوا الأزياج الفلكية، والجداول الجغرافية، والخرط المساعدة على الملاحة في البحار. .

● وفي الرياضة: هم الذين أوصلوا الخيوط المماسة في حساب المثلثات. . . وعلمونا استعواض الجيوب بالأوتار. . . وتطبيق الجبر على الهندسة. . . وحل المعادلات التكعيبية. . .

● وعنهم عرفنا علم الكيمياء. . . وتركيب حمض الكبريت، وملح البارود، والماء الملكي، واستخراج الزئبق وتجهيزه، وتجهيز الألكول، واستنقاع النبيذ. . .

● وفي الزراعة: عرفنا عن العرب ما يزيد عن الألفين من النباتات، أضافوها إلى [كتاب الأعشاب] لدسقورد [القرن الأول]. . . . وعرفنا التلقيح النباتي [التهجين]. . . ومشاتل ومزارع الإكثار. . . وتوالى زراعة المحاصيل المختلفة مع توالي الفصول. . . واختراع أنواع من السواقي. . . ومنهم تعلمت أوروبا زراعة، الأرز، والقطن، والتوت الأبيض، وقصب السكر، والنخل، والفستق، ووردبا بونيا، وزهر الكاملي الأحمر والأبيض، ونبات الميلون. . الخ. . الخ. . الخ. . .

● وفي الطب: عرفنا عنهم وأخذنا منهم المعالجة بالخزام. . . واستعمال الراوند، والتمرهندي، والمن، وورق السنامكي والكافور، في التداوي. . .

● وهم الذين علمونا إنشاء المؤسسات الطبية المتكاملة [الأجزاخانة.. والمستشفى.. ومدرسة الطب] مجتمعة ومتجاورة!..

● وعرفنا في تراثهم التآليف الغزيرة في الطب، والحيوان، والزراعة.. وإنشاء دور الكتب العامة (الكتبخانات)..

● وهم الذين اخترعوا النقود الورقية.. وطواحين الهواء.. والآلات الزجاجية.. وبيت الابرة (البوصلة).. والورق.. ونسج الحرير.. وطرق الحديد وسقيه..

● وفي العماره: أخذت أوروبا عن العرب الصنعة القرطبية في البناء.. وأخذت القباب من مساجد الأندلس والشام.. وكذلك الزخرفة بالخطوط المتقاطعة، وبالأزهار.. والخط الستين.. وتحلية الحيطان بالقيشاني.. الخ.. كما أخذت عنهم حمل المياه في الأنابيب إلى المنازل والمرافق الأخرى!..

● وتعلمت منهم التجارة المزدهرة، وتأمين طرقها وأهلها.. وخيول البريد.. والبوسطة.. والفنارات.. والاشارات الرمزية [الشفرة].. وضبط الحسابات بالدفاتر..

● وفي الادارة تعلم الأوروبيون من العرب تدوين الدواوين، ومناصب ملاحظي الأسواق، والمحتسبين..

● وفي الحرب: سبق العرب إلى استخدام البارود، واختراع آلات إطلاقه[1]...

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٥٤٧ ـ ٥٦٠.

وعندما يزور «علم الدين» بستاناً من بساتين ضاحية من ضواحي باريس، يعدد لنا، على لسان المستشرق، كم من نباتات هذا البستان يرجع الفضل في استنباته إلى العرب، قبل أن يأخذه عنهم الأوروبيون. . فالبرقون من دمشق الشام. . والكريز من سيرازونه، بالشام أيضاً. . واللوز من افريقيا. . والخوخ من فارس. . والمشمش، والتين، والبرتقال والعنب، والورد كلها أشجار مشرقية[1]. . .

وحتى «البنوك»، وأنظمتها وإدارتها. . بعد أن أعجب بها «علم الدين»، يسأل عن أصلها، وهل هي «من اختراع الأرورباويين؟ أم هي أمر قديم أخذه الأوروبيون عمن سبقهم؟» فيأتيه ـ وبالأحرى يأتينا ـ الجواب على لسان أحد أبطال الرواية ـ «يعقوب» ـ وهو فرنسي ـ: «. . إن الكنعانيين، في المدة الماضية، كانوا يستعملون البنوكة في أمر التجارة!. .» وعنهم أخذها الأثينيون![2]. .

والنظارات المكبرة والمعظمة للمنظورات، نعلم، على لسان المستشرق، أن أصل اختراعها لا بد أن يكون قد حدث بالمشرق، وليس بإيطاليا كما يزعم ذلك بعض الأوروبيين، لأنها قد ارتبطت بنشأة الملاحة ورصد الكواكب، وهما علمان مشرقيان

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٥٠١.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٤٢٠، ٤٢١.

في النشأة والازدهار. . ودور إيطاليا فيها هو دور التحسين والتطوير، لا دور الاختراع[1]!

فللشرق، وبالذات للعرب والمسلمين كان السبق في كل هذه الميادين. . وعندما حدث الاحتكاك المسلح ـ الحروب الصليبية ـ بين أوروبا والمشرق تعلم الأوروبيون من العرب، فاستيقظوا، وصنعوا عصر نهضتهم بإقامتهم هذه الحضارة الجديدة، التي هي اليوم موطن الاعجاب والدهشة والإكبار. . . **وكانوا، قبل أن يتعلموا من العرب «في جاهليتهم. . . لا يشتغلون بغير كتب الديانة، محظوراً عليهم النظر في غيرها. . ومن تلكم بخلاف ما يتكلم به القسيس. . كان عرضة لأنواع مختلفة من الإهانة، فمنهم من مات مسجوناً، ومنهم من قتل، ومنهم من حرق بالنار، ومنهم من نفي من وطنه فبقي طول عمره في قيد الذل والمسكنة. . ومع هذا كله، فبعد زمن غلبت عصبة الحق، لأنهم كلما رأى الناس إهانتهم عطفوا عليهم ومالوا بقلوبهم إليهم، فزادت شهرتهم، ورغبت الخلق في سماع أقوالهم، ونصروهم واحتفوا بهم، حتى كبر جاههم وعلت كلمتهم، وظهروا بمذاهب فاتبعها الناس لما رأوا فيها من المنافع، حتى انتشرت بذلك علومهم، لما رأوا فيها من الأشياء النافعة والاختراعات المفيدة! . . »**

هكذا كانت أوروبا في «جاهليتها»، لا تعرف سوى علوم

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٦٢٧.

الدين.. والقسس يحرمون كل علم سواها.. ومع ذلك، ومضت في سمائها شهب المعرفة وأضواء العلم عندما احتكت بالعرب، وانتصرت، بعد جهاد وتضحيات، عصبة الحق حتى أصبحت لها الغلبة والسيادة في مختلف الميادين!..

فما الذي يمنع قومنا من سلوك نفس الطريق وولوج ذات السبيل، كي نخرج من جاهلية العصور «المملوكية ـ العثمانية»، وتعود أمتنا، ثانية إلى دورة العطاء الحضاري، ناعمة بثمرات التقدم وخيرات تطبيقات العلوم؟؟..

ليس هناك إذا ما يحول بيننا وبين اقتحام هذه الميادين واختراق هذه الآفاق.. بل إن لنا من العوامل المساعدة ما يعين الساعين في هذا الطريق.. فعلى عكس ما حدث في أوروبا من عداء الدين للعلم «ليس في أحكام الديانة الإسلامية ما يمنع من التقدم في أي علم من العلوم النافعة.. بل إن كتاب الله، وأحاديث الأنبياء والرسل آمرة بذلك... وما من نبي.. ولا عالم إلا كان له صنعة يتقوت بها!...»[1].

فإذا كان على الأوروبيين أن يشكروا العرب، لأنهم «نقلوهم من خشونتهم إلى السعادة التي هم فيها الآن..»[2]... فإن على العرب أن يتعلموا من تلامذة الأمس، حتى تعود لهم الأستاذية من جديد!..

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٥٣٩.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٥٠٠.

هكذا وقف علي مبارك أمام الحضارة الأوروبية، يتعلم، وينبه قومه كي يتعلموا، ولكن بشموخ سليل الحضارة العربية الاسلامية ذات التاريخ المشرق.. بل لقد استعان بتلك الميزة والخاصية كي يحبب لقومه العودة مرة أخرى إلى هذا الدرب العظيم!..

* * *

وانطلاقاً من موقف الانسان الأصيل، وارث الحضارة العريقة، لم يقف علي مبارك أمام الحضارة الأوروبية موقف «المبهور» الذي حجبت «الدهشة» عن بصيرته نقاط الضعف في بنائها وثمرات تطبيقاتها.. فهو لا يدعو إلى التقليد، ولا يحبذ «النقل»، ولا يرى كل ما صلح للقوم صالحاً لنا.. بل لقد كانت حاسة النقد وملكة التمييز من بين ما امتاز به موقفه وتميزت بها وقفته عندما واجه تلك الحضارة الزاهرة المزدهرة العملاقة..

فهو يعيب موقف «الأغرار الحمقاء» الذين استحسنوا كل ما رأوه في باريس، - لأنهم وقفوا عند الظاهر والقشور - فظنوه صالحاً لمجتمعنا المنشود.. وعندهم يقول: «.. لقد رأينا كثيراً من الأغرار الحمقاء حين يدخلون مثل هذه المدينة الحافلة، ويرون ما فيها من الزخرفة والزينة والأبهة وعلائم العز والثروة واليسار، مما لا يجدون نظيره في بلادهم، تحملهم روعة ما يهولهم من تلك المناظر الرائعة والظواهر المعجبة على أن يستحسنوا كل ما رأوه لما يخالف ما عندهم، ويظنون أنه سبب الغنى والثروة لأهل تلك المدينة، مع أنه ربما كان في تعس الأمر قبيحاً مضراً، وإنما

غطى على ضرره أنه مصحوب بأمور نافعة غيره، وربما ظهرت مضراته بعد حين. فعلى العاقل أن لا يتسرع إلى الحكم، بل يتثبت ويتأمل حتى تظهر له حقيقة الشيء على ما هو عليه، ويجتهد في نقل النافع لأهل وطنه وملته، والكف عن غيره. . . »[1].

فهو ليس بالموقف الانتقائي المعيب، وإنما هو موقف المتأمل الذي لا يقنع بالوقوف عند الظواهر والزخارف، بل يرنو إلى اللباب، قصداً إلى تمييز الجوهر من العرض، وبحثاً عن الصالح في هذه الحضارة الاستلهامه في بناء الشرق الجديد. .

ومن هذا الموقف نبعت الانتقادات الكثيرة التي حفلت بها [علم الدين] لنواحي القصور في الحضارة الأوروبية وسلوك الأوروبيين

● فإقبالهم على الخمر والسكر، وإغراقهم فيما يتبعها من الملاهي والملاعب أمر لا يليق ولا يتسق مع ما هم فيه وعليه من «توجه الأفكار وانبعاث العزائم» إلى ما يعود عليهم وعلى أوطانهم من الشرف والتقدم والألفة والتفوق. . . إنهم قد اتخذوا العقل أداة لنهضتهم، بل ولإنهاض الأمم الأخرى. . ومع ذلك فإن إغراقهم في السكر يجعلهم دون جاهلية العرب الذين أدرك الكثير منهم مضار الخمر فحرموها على أنفسهم ودعوا إلى تحريمها «فكانوا

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٦٢٣.

أسد رأياً وأحسن حالاً، لأن حلماءهم وكبراءهم لما ظهر لهم ما في استعمال تلك الأشربة والملاعب من تهيج الشرور وإفساد المعاملات وإخراج الأموال عن صورة الصلاح، تناهوا عن ذلك، وأخذوا على أيدي الشبان فيه!..»[1].

إنه ينتقد مرضاً من أمراض الحضارة الأوروبية، ويقف مع حكماء أهلها ضد تيار شاع في بلادهم، وكان أكثر شيوعاً وقبولاً لدى المقلدين!...

● **وعلي مبارك، المسلم، ابن الحضارة التي وازنت وواءمت - ربما أكثر من غيرها، بل ودون غيرها من الحضارات - بين العوامل المادية والروحية في الكون والمجتمع والانسان، ينتقد انصراف المجتمع الأوروبي، في باريس، عن الله وعن الدين، إنهم يبنون نظامهم الرأسمالي بالمنافسة والصراع والتزاحم على طيبات الحياة، بل وخبائثها، ولم يعد لله، ولا للدين الحق، والتدين الصحيح مكانه اللائق ومكانته السامية في تلك البلاد.. إنهم قد طوعوا الدين للدنيا، والروح للمادة، دون موازنة عادلة بين العنصرين والقطبين اللذين لا غنى للانسان السوي عن المواءمة بينهما..**

وهو يكتب من مرسيليا إلى زوجته، في القاهرة، يحدثها عن تلك السلبية، ناقداً، فيقول: «... ولا أحب أن أطيل عليك

---

(1) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٦٧٩، ٦٨٠.

بتفصيل ما هنا من محدثات البدع والفجور، وما ارتكبوه على خلاف أمر الله سبحانه من مذموم الأمور، ولكن أذكر لك بعضه عنواناً يكون لما لم أذكره قانوناً وميزاناً، وهو أني لم أسمع أحداً من جميع سكان هذه البقعة يذكر اسم الله تعالى، بل أراهم في جميع نهارهم لا يتكلمون ولا يشتغلون إلا بأمورهم الدنيوية، وفي الليل لا يأوون إلا إلى محلات الملاهي! . . .»[١].

ربماكان في هذا القول ما يظلم بعض سكان مرسيليا. . لكنه، على كل حال، نقد صائب للقسمة الأساسية والكتلة الكبرى من سكانها. .

● ونظافة المسلم وطهارته. . جعلها الاسلام أمراً أبعد من الظواهر والقشور. . أما أهل تلك البلاد، فإن عنايتهم بنظافة الظاهر لم تستتبع، بالضرورة، نظافة ما تحت الثياب! . . «. . فمن الغريب أنهم، مع اعتنائهم بنظافة ملابسهم وتزيين ظواهرهم، لا يستعمل أحد منهم الماء في إزالة فضلاته، ولا يستجمر، ولا يغسل يده بعد الأكل. . !»[٢]

إنها ليست أموراً «تافهة» قد يسخر منها البعض، ولكنها الفطنة لما امتاز به الاسلام وتعاليمه وسلوك أهله من نظافة نفذت إلى الجوهر ولم تقف عند الظواهر والقشور. . نظافة أطلق عليها

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٦٧٥.

(٢) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٦٧٥.

الاسلام اسم: «الطهارة والطهر»، فأحلها مكاناً علياً بين الخصال والأفعال.

وهكذا تتناثر في [علم الدين] انتقادات علي مبارك لقشور وتطبيقات في الحضارة الأوروبية، وأخلاقيات أهلها، وتتجاور هذه الانتقادات مع نفاذه إلى لب هذه الحضارة، واحتفائه بالنافع من قسماتها لقومه، كي يتقدموا ويلحقوا بركب الانسانية المتحضرة..

* * *

و«الشيخ علم الدين» في فرنسا إنسان سوى، ذو شخصية متكاملة.. فهو مع المفكرين وعلماء جمعية الاستشراق بحر يفيض علماً، ويكشف عن أصالة علي مبارك ورسوخ قدمه في اللغة والأدب والدين.. وهو أمام الجمال عاشق لا يصد النفس عن الاستمتاع بما لم يحرمه الله!... إنه فارس في الدفاع عن القرآن الكريم.. وخاضع في ذات الوقت لسلطان العشق على العاشقين!..

يجادله مستشرق طلياني حول ما يظنه تناقضاً بين آيات القرآن، فيدور بينهما هذا الحوار:

«**الطلياني**: يا حضرة الأستاذ، الحمد لله الذي جمعني بك، فإني منذ زمان متوقف في بعض أشياء من القرآن، ولكوني لا أعرف علوم اللغة العربية على ما هي عليه، لم تزل وقفاتي،

ولم أجتمع بأحد في بلادنا من علماء العرب يفهمني حقيقة الحال.

علم الدين: وما وقفاتك؟..

الطلياني: إن في القرآن قوله تعالى: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾[1]، وقوله: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾[2].. مع أن فيه: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾[3]، وفيه ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾[4].. فبين الآيتين الأوليين والأخيرتين، على ما يظهر لي، تناقض!..

علم الدين: هذه من وقفات العلماء!.. ولكن شرط التناقض أن يتحد الزمان والمكان والغرض..

الطلياني: أليس ذلك كله يوم القيامه؟!..

علم الدين: بلى، ولكن يوم القيامة، كما أخبر الله، مقداره خمسون ألف سنة، وعرف بالأخبار أنه يكون مشتملاً على مقامات مختلفة، فلا مانع من أن يكون السؤال في وقت من أوقات يوم القيامة ولا يكون في وقت آخر، وفي مقام من

---

(١) الرحمن: ٣٩.

(٢) القصص: ٧٨.

(٣) الحجر: ٩٢.

(٤) الأعراف: ٦.

مقاماته ولا يكون في مقام آخر، وحينئذ لا تعارض في الآيات ولا تناقض. .»[1].

حقاً. . لم يدخل إلى التفاصيل التي تبرز زوال ما حسبه الطلياني تناقضاً بين آيات القرآن الكريم، ربما كي لا يحول الرواية إلى مبحث قرآني متخصص. . ولكنه وضع القاعدة الهادية في مثل هذه المواطن. . ربط بين المناسبة والنص الذي جاء فيها، وأن لا نعمم ما لا يقبل التعميم. .

وفي خارج باريس يقضي الشيخ «علم الدين» وابنه «برهان الدين» نحو شهرين في إحدى الضواحي. . الشيخ يحاضر عن اللغة والأدب والدين في جمعية المستشرقين. . والشاب ـ بسبب من أنه شاب ـ فلا بأس من أن يحب ويعشق، وتعرض الرواية حبه وعشقه في صورة غير منكرة ولا مستنكرة!. .

ففي تلك الضاحية تراهم قد «نسوا ألم الغربة، وفراق الأهل والأحبة» «فبرهان الدين» أسير عند صاحبة المنزل، تعامله كما تعامل أبناءها، وهي تعلمه الفرنسية، وتشرح له كل ما يراه. . حتى لقد نسي باريس وأهلها أيضاً!. . وما ذلك إلا بسبب «مريم»، ابنة صاحبة المنزل. . «كانت تدخل وتخرج معه، وكانت ذات حسن وجمال وقد واعتدال، تخجل البدر بطلعتها. تعلق قلبها به وتعلق بها، فكانت تهواه ويهواها، ويرى خيالها إذا

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ٣٩٨، ٣٩٩.

غابت عن عينيه!» حتى كان يفتعل أسباباً للتخلف عن الذهاب إلى باريس، بصحبه أبيه، إذا ما جاء موعد محاضرته في جمعية المستشرقين، فيمكث في الضاحية «تارة مع الست وتارة مع البنت، ويقضي الأوقات في أنواع المسرات، وازداد افتتانه بالبنت، وتمكنت بينهما الألفة»، وكان كما قال القائل:

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقر به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق!

وفي ذات يوم توجه والده إلى باريز للدرس، وترك ابنه في البيت، فأمرت السيدة خادمها «أنطوان» أن يخرج به وبأولادها إلى التنزه، فأركبهم جميعاً عربة، وسار بهم، وأخذ «برهان الدين» ومريم بأطراف الأحاديث والمفاكهة، ثم نزلوا ومشوا، وهي تحادثه وتسأله عما أعجبه في فرنسا، ويجيبها، وهو غريق في بحار جمالها، إلى أن وصلوا هضبة كسيت بالأشجار، ونبع ماؤها من بين الأحجار، فصعدوا عليها، فكانت مريم ترى برهان الدين نهر السين والبلاد التي عليه والطرق الموصلة لباريز، فكان نظره في خلال وصفها لا يفارق وجهها، وكذلك هي لا تفتر عن النظر إليه..

نظر العيون إلى العيون هو الذي
جعل الهلاك إلى الفؤاد سبيلا!

ثم وصلوا إلى مخدع سقفه غصون الأشجار، وفرشه أنواع

العشب والأزهار، فاطمأنوا فيه برهة، ثم نزلوا من فوق الأكمة . . ؟!»[1]

هكذا . . لكل مقام مقال . . ولكل جيل وسن اهتمامات ومجال . . الشيخ يدافع عن القرآن في جمعية الاستشراق . . وبرهان الدين يطارح مريم ألوان العشق والغرام في مخدع «سقفه غصون الأشجار، وفرشه أنواع العشب والأزهار . . »!

* * *

ولا ينسى علي مبارك، وهو يتأمل حضارة أوروبا . . وينتقد ما يراه سلبياً فيها . . ويبشر قومه بإيجابياتها . . ويذكرهم ويستذكر وإياهم أمجادهم الحضارية ومؤهلاتهم كي يعودوا ثانية إلى هذا الميدان . . لا ينسى الرجل أن يضع أصبعه وأصبعنا على أصل الداء الذي أورثنا التخلف بعد التحضر، ووصل بنا إلى القاع بعد أن كنا الأئمة والقادة والسادة . . وهو عنده فساد السلطة الحاكمة، وانعدام أهليتها لمهامها، وغلبة الجهال على مقاعد الحكم بعد أن كان الحكم للعلماء والأمر والنهي والشورى للذين يعلمون . . ففساد القمة هو الذي أسقط هذه الأمة من القمة . . ومن هنا فالعلاج أمامها واضح وبين لا لبس فيه ولا غموض!

فطبائع الناس لم تتغير . . . وأرضهم لم تبخل بعد جود . . .

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٤٩٠، ٤٩١.

ولا تزال الشمس على حالها، شروقاً وغروباً!.. «..ولكننا إذا تأملنا أمر هذه الأمة وما حصل لها... وجدنا السبب إنما هو ما صار عليه الأئمة من خلف هذه الأمة، فإنهم تركوا ما كان عليه السلف من النظر في مصالح الأمة والسعي فيما فيه نفعها، فنبذوا كل ذلك وراء ظهورهم، واتبعوا الشهوات، وأضاعوا الواجبات، وحملوا الناس ما لا يطيقون... فإن الأئمة للرعايا كالرأس للجسد، أو كالقلب بالنسبة للجوارح، إذا صلح صلحت وأذا فسد فسدت... وقد كان السلف صارفين أنظارهم نحو مصالح العباد العمومية، فكانوا يقتدون بهم في أقوالهم وأفعالهم، وكذلك الفرنج، لما كان رؤساؤهم بتلك الصفة ظهرت فيهم العلوم والصنائع، وسرت منهم إلى غيرهم، حتى عمت سائر المواضع!..»

لقد ارتبط ازدهار التمدن الاسلامي بسيادة العنصر القومي وتوليه زمام الأمر، وتأسيس الملك على «العلم والعدل، اللذين هما أكبر دعائم الدين..» فلما غلب المماليك ـ وهم غرباء روح الأمة القومية ـ على سلطتها وسلطانها قام في هذه الأمة «تمدن» جديد «أساسه البغي والظلم وقهر العباد.. فبالتمدن الأول كان اجتماع طوائف الأمة، بالرضى والاختيار، لما كانت تستمد منه من الفوائد التي تعم الجميع.. حتى كثر العلم والمال. وبالتمدن الثاني.. صارت الأمة على قسمين: حاكم، ومحكوم، فتخصص الأول بالمزايا والرتب وتحصيل الأغراض والشهوات، وانساق القسم الثاني في طريق الذل والقهر حتى كاد يلحق بالحيوان

البهيمي الـذي يتصرف فيـه مالكـه من غير أن يكـون له اختيار! . . .»[1]

فتغيير السلطة الظالمة في الشرق هو السبيل إلى عودة التمدن الحقيقي والمفيد. . والأمر في ذلك رهن بقيام السلطة القومية النابعة من أحشاء هذه الأمة، والمعتزة بفكرها، والمؤسسة لتمدنها على دعامتي: «العلم، والعـدل، اللذين هما أكبـر دعائم الدين!». .

* * *

هكذا وقف العقل العربي، ممثلاً في علي مبارك، في القرن التاسع عشر، أمام حضارة أوروبا الصاعدة المزدهرة. . فقرر ضرورة اللقاء والتفاعل الحضاري . . . وأعلن عن إعجابه بمظاهر التقدم الأوروبي، وضرورة استلهام جوهرها وما هو أصيل فيهـا. . . ويعث أحاديث المجـد عند العـرب، وازدهارهـم الحضاري من مرقدها، كي تتزود منها الأمة بزاد يعينها على التغيير والانتفاض وبناء الدور الجديد في تمدنها التليد. . .

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٤٤١ - ٤٤٣.

ب ـ [علم الدين] دخلنا عصر الرواية

[. . . ولقد رأيت النفوس كثيراً ما تميل إلى السِّير والقَصَص. . فحداني هذا إلى عمل كتاب أضمنه كثيراً من الفوائد، في أسلوب حكاية لطيفة، ينشط الناظر فيها إلى مطالعتها، ويرغب فيها رغبته فيما كان من هذا القبيل. . .]

علي مبارك

قلنا: إن [علم الدين] هو الكتاب الثاني الذي دخل مكتبتنا العربية الحديثة في فن «أدب الرحلات»، بعد أن سبقه إليها [تخليص الابريز] لرفاعة الطهطاوي.. وأن [علم الدين] قد امتاز بالطابع الموسوعي، فجاء شاملاً، وعرض القضايا بالتفصيل.. وأن [التخليص] كان رحلة إلى حضارة أوروبا في باريس وحدها، بينما كان [علم الدين] شاملاً لباريس مع غيرها من بعض أنحاء فرنسا..

تلك حقيقة.. ولكنها ليست كل الحقيقة!..

ذلك أن الطابع الموسوعي الذي تميز به [علم الدين] قد جعله شاملاً، لا لحال فرنسا وحضارتها الأوروبية فقط، وإنما هو قد اشتمل كذلك، وبتوسع، من خلال المقارنات بين حال الشرق وحال الفرنسيين، على صور للحياة الشرقية بقسماتها الفكرية والاجتماعية وظروف أهلها الاقتصادية، وما لهم من عادات وتقاليد.. بحيث نستطيع أن نقول، دون أن نتجاوز دقة البحث العلمي، إنه قد جاء مرآة للعصر الذي كتب فيه.. فنحن نقف

منه على ملامح مجتمع القرن التاسع عشر، وخاصة في مصر، عادات أهله، وتقاليدهم، وأخلاقياتهم.. والطعام، والموائد، واللباس، والاهتمامات، والطبقات.. الخ.. الخ.. فهو وثيقة اجتماعية، ومصدر نادر لأية دراسة جادة تريد المقارنة بين ذلك العصر وغيره من العصور، وتبغى إدراك العلاقات بين تلك العادات والواقع الذي سادت فيه..

فهو، إذن، رحلة في الشرق، بقدر ما هو رحلة إلى فرنسا، من خلال الصور المعروضة، والمقارنات..

وليس ذلك فحسب.. بل إن [علم الدين] رحلة في الزمان، أعانه الطابع الموسوعي، والروائي، على السياحة عبر العصور المختلفة للتاريخ، تاريخ الشرق، وتاريخ أوروبا، وخاصة في فرنسا... وهو أيضاً سياحة في الحضارات، على اختلاف عصورها ومواطنها والأمم والقادة الذين صنعوها... وسياحة في العلوم المختلفة والمتنوعة: طبيعية، وجغرافية، وزراعية، وحيوانية، وإنسانية، وما تعلق منها بالمعادن، والتاريخ الطبيعي[1]... وسياحة في المكان، على اختلاف القارات وتعدد

---

(١) على لسان بعض أبطال الرواية ترد معلومات علمية على قدر كبير من التخصص والعمق الذي أثمره الاطلاع في عدد من العلوم، مما يلفت الأنظار ويجتذب الاهتمام، حتى من القارىء المتخصص. انظر مثلاً حديث «يعقوب» عن تشريح حيوان (المحار) في [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ١٦ - ٢٠.

الأوطان . . . وسياحة في المذاهب الفكرية، والأديان، والمدارس والتيارات والآراء . . .

ويكفي أن يراجع المرء بعض عناوين [المسامرات] كي يدرك ذلك الطابع الموسوعي الذي جعل هذا الكتاب، الروائي يحيط تلك الإحاطة الشاملة بمختلف فروع المعارف الانسانية التي عرفها الانسان في ذكل التاريخ . . ففي هذه العناوين نقرأ مثلاً : (الزواج)، (العائلة)، (السكة الحديدية)، (الموالد والأعياد والمواسم)، (الخانات واللوكندات)، (البوستة) (النساء)، (الملاحة)، (التعلم والتعليم)، (البحر وعجائبه)، (البراكين)، (العرب)، (الجغرافية والتاريخ)، (العبادات)، (الانسان وهيئة الاجتماع)، (التياترات)، (النظارات)، (العادات)، (القهوة)، (الحشيش)، (السكر)، الميسر والأنصاب والأزلام)، (المحار)، (الودع)، (اللؤلؤ)، (الدينار)، (دود الخشب)، (دود القز)، (أبو دقيق)، (النحل)، (الحشرات)، (النمل)، (الانسان والحيوان)، (كلب البحر والديمورة)، (السود)، (الفيل)، (الذهب واستخراجه)، (الزباء وجذيمة الأبرش وقصير وبيهس)، (الرقيق)، (السودان بأفريقيا)، (العرب الجاهلية)، (الوضوء والتيمم)، (باريس)، (حية البحر)، (العنبر)، (البالو - المسرح -)، (أهرام مصر)، (تعدد الزوجات)، (الإحصاء)، (الفلاحة والزراعة)، (فرساي)، (الجيولوجيا)، (جمعية المستشرقين)، (الفرنسيس في مصر)، (العقائد)، (التدين)، (الحركة)، (البورصة)، (بيت الكتب)، (البانكات وأوراق المعاملة)،

(الهـوام والدواب)، (نـور الغـاز)، (القـار)، (المستشفى)، (التبغ)، (البن)، (الأنهار)، (الأحجار الكريمة)، (الهواء والماء)، (القطن)، (الثمار)، (العنب)، (شراب التفاح والكمثري)، (الكؤل)، (البيرة)، (الأشجار والزهور). . الخ. . الخ. .

فلا يكاد يوجد فن أو علم أو مذهب أو دين أو حضارة أو عصر إلا وقد عرضت له الرواية في ثنايا المحاورات التي جمعتها المسامرات!..

* * *

وأيضاً. . فإن [علم الدين] لا تقف، في التصنيف، عن حد كونها كتاباً موسوعياً في أدب الرحلات، لأنها قد اتخذت من الاسلوب الروائي نمطاً تعبيرياً عن الأغراض التي أراد صاحبها التعبير عنها، **فهي إذن رواية تعليمية، دخلت بأدبنا العربي الحديث ميداناً جديداً عليه، هو ميدان التأليف الروائي، فكان لها ولصاحبها فضل الريادة، دون منازع، في هذا المجال..**

وبادىء ذي بدء فنحن ننكر الرأي القائل إن [علم الدين] «مقامة» من فن المقامات، مثلها في ذلك مثل مقامات: محمد بن الحسن بن دريد [٢٢٣ - ٣٢١ هـ]، وبديع الزمان الهمذاني [٣٥٨ - ٣٩٨ هـ]، والحريري [٤٤٦ - ٥١٦ هـ] وعبد الله فكري [١٨٣٤ - ١٨٨٩م]، وأبراهيم الأحدب [١٨٢٦ - ١٨٩١م] واليازجي [١٨٣٠ - ١٨٨٩م]، وابراهيم المويلحي [١٩٠٦م][1]. . . الخ. .

---

(١) انظر هذا الرأي في: محمد كمال الدين [العرب والمسرح] ص ١١٩. طبعة =

ذلك أن الخصائص البارزة التي تتميز بها المقامة، من مثل الإغراق في السجع والتزامه، والاهتمام الشديد بالصنعة اللغوية، وافتقار الأبطال إلى التطور والنمو خلال سرد الأحداث ومرور الزمن وتنير الأماكن، وعدم الإلتزام بديمومة وجود البطل طوال العمل الأدبي، وغيرها من خصائص المقامة.. هذه الخصائص قد برئت منها تماماً [علم الدين].. ومن ثم فهي ليست بالمقامة بحال من الأحوال..

ولعل السبب الذي جعل البعض يختار لها هذا الوصف ويصنفها هذا التصنيف، هو الاحجام عن الحكم بأنها «رواية»، أو التحرج من ذلك على الأقل، مع التسليم لتلك المقولة الشائعة في حقل الدراسات الأدبية، والقائلة إن الرواية الحديثة قد ولدت من رحم المقامة، وبالتحديد فإن الريادة كانت لـ[زينب] الدكتور محمد حسين هيكل [١٨٨٨ - ١٩٥٦م] التي كانت شهادة لميلاد الرواية من رحم [حديث عيسى بن هشام] لمحمد المويلحي[١] [١٢٧٥ - ١٣٤٨ هـ ١٨٥٨ - ١٩٣٠م][٢].. مع

= القاهرة سنة ١٩٧٥م.

(١) كان محمد المويلحي أديباً وصحفياً، ولد بالقاهرة، وتعلم بالأزهر، ثم بمدرسة الأنجال. وبعد عمل بوزارة الحقانية سنة ١٨٨١م عزل لانضمامه للثورة العرابية، وبعد رحلة في أوروبا والأستانه، عاد إلى مصر، وعمل بالصحافة، وشغل وظائف ادارية في القليوبية، والأوقاف، ثم أنشأ مع أبيه صحيفة [مصباح الشرق] سنة ١٨٩٨ م.. وله غير [حديث عيسى بن هشام] كتاب [علاج النفس].

(٢) انظر: د. علي الراعي [دراسات في الرواية المصرية] ص ٣, ٤. طبعة القاهرة =

أن هذه المقولة الشائعة، في رأينا، بحاجة إلى إعادة الطرح والنظر والتدقيق!..

ودون أن ندخل في تفاصيل كثيرة تخرجنا عن الحيز والمقام، وتوغل بنا في غير تخصصنا، فنحن نطرح مقولة ترى أن الفروق الكثيرة بين الرواية والمقامة تجعلنا نتساءل: أليس تراثنا في «السيرة والملحمة والقصص والحكايات» أقرب من خصائصه وعناصره إلى خصائص الرواية وعناصرها من المقامة؟ وهلا افترضنا أن الرواية هي بنت «السيرة والقصص» بدلاً من افتراض ولادتها من رحم المقامة؟ إن السيرة الشعبية، وحكايات القصاصين، والملاحم الشعبية، في رأينا، هي الأقرب إلى أن تكون الأم لفن الرواية الحديث في أدبنا الحديث ـ بعد تزاوج هذه الأم مع تأثيرات الأدب الأوروبي ـ وهي الأقرب، من حيث الخصائص والقسمات، إلى خصائص الرواية وقسماتها... ولعل شيوع طبعات حديث عيسى بن هشام قبيل تأليف الدكتور هيكل لـ [زينب] هو المسئول عن تلك المقولة التي لا نرضاها.. إنه نوع من «الكسل» النقدي، أعان عليه غياب تراثنا القديم في هذا الفن عن متناول أيدي النقاد!...

وإذا كنا نميل إلى هذا الافتراض.. فجدير بنا أن ننبه إلى أن علي مبارك قد حدد في مقدمة [علم الدين] أنه قد أنشأها على نمط عصري نسج فيه على منوال «السير والقصص»، ومن ثم فإن

= سنة ١٩٦٤ م. وكذلك [العرب والمسرح] ص ١١٩.

كتابه هذا هو الرواية الأولى في أدبنا الحديث، وبداية التطور الطبيعي لفننا الروائي الصاعد من أحشاء السيرة والقصص اللذين حفل بهما تراثنا الأدبي القديم. . يقول علي مبارك: «. . ولقد رأيت النفوس كثيراً ما تميل إلى السير والقصص ومُلح الكلام، بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة، فقد تعرض عنها في كثير من الأحيان، لاسيما عند السآمة والملال من كثرة الأشغال، وفي أوقات عدم خلو البال، فحداني هذا إلى عمل كتاب أضمنه كثيراً من الفوائد في أسلوب حكاية لطيفة، ينشط الناظر فيها إلى مطالعتها، ويرغب فيها رغبته فيما كان من هذا القبيل، فيجد في طريقه تلك الفوائد، ينالها عفواً بلا عناء، حرصاً على تعميم الفائدة وبث المنفعة. . فشرعت في جمع هذا الكتاب. . . فجاء كتاباً جامعاً اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المتفرقة. . في العلوم الشرعية، والفنون الصناعية، وأسرار الخليقة، وغرائب المخلوقات، وعجائب البر والبحر، وما تقلب نوع الانسان فيه من الأطوار والأدوار في الزمن الغابر، وما هو عليه في الوقت الحاضر، وما طرأ عليه من تقدم وتقهقر، وصفاء وتكدر، وراحة وهناء، وبؤس وعناء، بتقلب ـ الدهور، وتصرف الأمور، مع الاستكثار من المقابلة والمقارنة بين أحواله وعاداته في الأوقات المتفاوتة، والانحاء المتباينة، ليطلع مطالعه على ما يشحذ خاطره وينبه قريحته ويستنهض فكرته، ويدرجه لاعمال عقله وإمعان نظره واستعمال بصر بصيرته في نقد الأمور وسبرها، وتدبرها ومقارنتها والموازنة بينها، والتمييز بين الخير

والشر، والنفع والضر، وتميز النافع والأنفع والحسن والأحسن منها، على نمط يسمو عن السآمة، ولا يميل إلى الملالة، مفرغاً في قالب سياحة شيخ عالم مصري، وسم بعلم الدين، مع رجل إنكليزي، كلاهما هيان بن بيان[1]، نظمهما سبط الحديث، لتأتي المقارنة بين الأحوال الشرقية والأوروبية... وقد قسمته إلى مسامرات ينتقل فيها القارىء تنقل المسافر، ويجد فيها فكاهة المسامر، كما ينتفع به المعلم والمتعلم، فيكون للأول منبهاً، وللثاني معلماً مفقهاً..!..»

ذلك هو تحديد علي مبارك لمكان كتابه [علم الدين] من فنوننا التعبيرية..

● فالتراث الذي احتذاه واستفاد من خصائصه هو تراثنا في «السير والقصص وملح الكلام»!

● وأسلوبه هو أسلوب «الحكاية اللطيفة»!

● والهدف هو توصيل العلم والفكر «عفواً بلا عناء ولا سآمة ولا ملل»!

● والقالب: سياحة، أبطالها: علم الدين، والخواجا، وبرهان الدين، ويعقوب.. كأبطال رئيسيين طوال العمل الأدبي..

---

(١) أي كلاهما شخصية مخترعة، روائية، صنعها الخيال، ولا أصل لها في الحقيقة والواقع. يقال: هو «هيان بن بيان» أي: مجهول، لا يعرف هو ولا أبوه!..

● والأبطال مخترعون، صنعهم الخيال الروائي، فكل منهم: «هيان بن بيان»!

● والفصول اسمها: مسامرات «ينتقل فيها القارىء تنقل المسافر، ويجد فيها فكاهة المسامر!»

فنحن، إذا، أمام «رواية تعليمية لا تدانيها في فنها، بأي حال من الأحوال، مقامة من المقامات، حتى ولو كانت تلك المقامة هي [حديث عيسى بن هشام]!..

وقبل أن نصحب القارىء لنعرض عليه نماذج من هذا العمل نستخلص منها وإياه الأدلة على وضوح قسماتها كرواية تعليمية، نود أن نلتفت لنبدد وهما شاع فرشح [حديث عيسى بن هشام] دون غيره تراثاً لأدبنا الروائي ورحما ولد منه هذا النمط التعبيري في أدبنا الحديث...

ففي بعض دراساتنا النقدية الجيدة التي كتبها نقاد جادون ومجيدون ما يفهم منه أن [حديث عيسى بن هشام] قد ظهرت في سبعينيات القرن التاسع عشر، وبالذات في الفترة التي عاش فيها جمال الدين الأفغاني بمصر - [١٨٧١ - ١٨٧٩م].. والسند في هذا الفهم أن الكتاب قد أهدى إلى جمال الدين الأفغاني.. وأن الأفغاني قد كتب عنه رسالة إلى المويلحي وصف منها هذا اللون الجديد في التعبير - بواكير الرواية - بأنه كعصى موسى، ستحدث تغييرات معجزة في هذا الميدان[١]!.. فهو متقدم ولا شك عن

(١) [دراسات في الرواية المصرية] ص ٨، ٩.

[علم الدين] التي ظهرت سنة ١٨٨٢ م.

حقاً لقد كتب الأفغاني إلى المويلحي رسالة تحدث فيها عن «اللطيفة الموسوية» التي تمثلت في مصر كَرَّة أخرى.. ونشر المويلحي نص الرسالة في صدر كتابه[1].. ولكن هذا الأمر جميعه لا علاقة له البتة بذلك الفهم الذي خرج به منه نقادنا الأجلاء..

● فحديث عيسى بن هشام قد ظهرت فصوله أول ما ظهرت، متفرقة، في صحيفة [مصباح الشرق]، وهي قد بدأت تصدر في سنة ١٨٩٨ م، أي بعد عام من موت الأفغاني في ٩ مارس سنة ١٨٩٧م.

ثم جمعه صاحبه وأصدره في كتاب، للمرة الأولى سنة ١٩٠٧ م ـ طبعة مطبعة المعارف ـ، وقال في تقديمه: «هذا جمع ما انتشر متفرقاً في جريدة [مصباح الشرق] من حديث عيسى بن هشام، أفرغناه في كتاب، بعد أن أجلنا فيه نظرة توفيق وتحقيق دعت إلى التهذيب والتنقيح والتغيير..».. وكانت قد مضت على وفاة الأفغاني يومئذ عشر سنوات!

● وإذا كان الأمر كذلك، فبديهي أن هذا الكتاب لم يهده مؤلفه إلى جمال الدين، كمال فهم البعض، بل إن الإهداء قد جاء إلى «روح» جمال الدين!.. فنص الاهداء هو:

---

(١)[حديث عيسى بن هشام] ص ٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٣م.

«وأهديه إلى أرواح المرحومين: الأديب الوالد - [أي والد المؤلف: ابراهيم المويلحي] - والحكيم جمال الدين، والعالم محمد عبده - [كان قد مات في يوليو سنة ١٩٠٥م] - واللغوي الشنقيطي، والشاعر البارودي...»

فالإهداء إنما هو إلى أرواحهم، لأنهم كانوا قد انتقلوا جميعاً إلى رحمة الله عند صدور الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٠٧م...

● ومن ثم.. فبديهي أيضاً أن رسالة الأفغاني إلى المويلحي، التي يتحدث فيها عن «اللطيفة الموسوية» لا علاقة لها بكتاب [حديث عيسى بن هشام]، ولا بالفترة التي عاشها جمال الدين بمصر في سبعينيات القرن الماضي.. صحيح إن الرسالة تحمل تاريخ (١٩ ربيع الثاني) دون تحديد السنة، ولكن المويلحي عندما نشرها في صدر كتابه سنة ١٩٠٧ م قد حدد لنا تاريخها.. فهو يقدمها إلى القراء قائلاً: «وأهدي هذه الرسالة، التي اختصني بها المرحوم الأستاذ جمال الدين الأفغاني بخطه الكريم منذ خمسة عشرة سنة، إلى أهل الفضل والأدب..»[1]... فتاريخها، إذن، قبل سنة ١٩٠٧ م بخمس عشرة سنة، أي سنة ١٨٩٢م سنة ١٣٠٩ هـ.. أي قبل أن يبدأ المويلحي في نشر كتابه، فصولاً، في [مصباح الشرق] بثماني سنوات، وقبل أن يصدر طبعته الأولى بخمس عشرة سنة! فأية علاقة لهذه الرسالة بهذا الكتاب؟!..

---

(١) المصدر السابق. ص ٢.

لقد كان الأفغاني يحدث المويلحي عن الجديد في مصر سنة ١٨٩٢ م.. عندما بدأت تفيق من صدمة الاحتلال، فتحركت على ساحتها عوامل التغيير والحركة بعد سكون الدهشة وذهولها.. وبعد أن عاد إليها نفر من الذين شاركوا في الثورة العرابية لانتهاء مدة النفي الذي حكم عليهم به.. فتلك هي «اللطيفة الموسوية» - [من «اللطف» - وهو مصطلح في علم الكلام يعني الظرف المناسب والمساعد على العمل أو على ترك العمل] - التي أشار إليها جمال الدين..

فإذا ذكرنا القارىء بما سبق وحققناه من أن نهايات خمسينيات القرن التاسع عشر - حول سنة ١٨٥٨ م - هي الفترة التي كتب فيها علي مبارك أغلب مادة [علم الدين]، أدركنا أن زيادتها لهذا الميدان - ميدان الرواية، وليس المقامة - حقيقة لا تقبل الجدل أو النزاع.. لقد كتبت علم الدين - «الرواية» - في العام الذي ولد فيه المويلحي، صاحب «مقامة»: [حديث عيسى بن هشام]!.

* * *

أما قسمات الرواية وملامحها في هذا العمل الرائد فلا نعتقد أنها تخفى على القارىء، حتى ولو كان قد اعتاد المطالعة لكثير من الأعمال الأدبية، التي غدت الآن أكثر نضجاً، في الفن الروائي، من [علم الدين]، والتي تخلصت من الهدف التعليمي المباشر، الذي قصد إليه علي مبارك في روايته..

● فقسمة «التشويق.. وجذب القارىء» لا تخطئها في [علم

الدين] حاسة القارىء الأدبية.. ومن يقرأ، على سبيل المثال المسامرة (١٠٢) (تتمة حكاية يعقوب وأخته) يجد نفسه أمام أسلوب قصصي يجتذب كيان القارىء ويستولي عليه إلى حد كبير. أسلوب يحكي بالصور ويرسم لوحات من الطبيعة، ويعرض لألوان من صراعات النفس الانسانية لدى كل من يعقوب واخته، ولا نعتقد أن القارىء، حتى المتمرس والمعتاد لمطالعة الروايات الحديثة، سيدع مثل هذه المسامرة قبل أن يبلغ آخرها ويعلم ما تنتهي إليه أحداثها!

وهذه القصة لا بد لها من جانب واقعي وأحداث حقيقية تحولت فيها إلى صور ولوحات.. فهي تحكي عن الرهبنة.. والدير.. ومراسيم الانخراط في سلك الرهبان وحفلاته.. مما يرجح أن لها أصلاً واقعياً تحول فيها إلى قصة لها كل عناصر القصة الأدبية..

● وفي [علم الدين] نجد أنفسنا حيال مؤلف روائي ـ هو علي مبارك ـ لديه أفكار وآراء، يقوم بتوزيعها توزيعاً مناسباً على أبطال روايته، على نحو يتسق ويتلاءم مع الحالة الفكرية لكل بطل من هؤلاء الأبطال!

فنحن، مثلاً، نعرف للمؤلف آراء حديثة ومتقدمة وعصرية، عن تاريخ مصر، وثروتها، ورفاهيتها، طالعنا حاله في كتابه [نخبة الفكر].. وفي [علم الدين] نراه يسوق هذه الآراء العصرية على لسان بطل روايته: «السائح الانكليزي»!

كما نراه يورد، في بعض الأحيان، على لسان «الشيخ الأزهري علم الدين» تلك الآراء الشائعة وغير الدقيقة في التاريخ، وذلك حتى ينبري «الانكليزي» إلى التصحيح والتدقيق لهذه الآراء. . . فإذا بهذه التصحيحات والتعقيبات هي نفس آراء علي مبارك التي طالعناها في كتابه [نخبة الفكر]! . .

فهو، إذن، يوزع «الأدوار» على أبطال «روايته». . ويتخذ من شخصيتي [الشيخ علم الدين] و[الانكليزي] أدوات لعرض فكرية قد تكون محافظة أو غير دقيقة أحياناً. . وأخرى تقسم بسمات الدقة في الفكر الحديث. .

● و[علم الدين] لا يعيبها السجع ولا المحسنات البديعية والزخارف اللفظية، التي هي لازمة من لوازم المقامات، فأسلوبها سلس وطيع ومبرز للمعنى في جلاء تام. . بل لا نكاد نشعر بالغربة أو الفارق ونحن نطالعها، وهي التي كتبت من أكثر من قرن، كما نشعر بذلك ونحن نطالع أعمال الكثير من معاصري علي مبارك! . .

وحتى القليل من السجع ـ وهو غير متكلف ولا ثقيل ـ الذي نلتقي به في [علم الدين] نعتقد أن المؤلف قد قصد إليه قصداً، كعنصر من عناصر الأداء الروائي، وإلا فلماذا يلتزم بإيراده على لسان «الشيخ علم الدين» دون غيره من الأبطال؟! إنه يريد أن يقول لنا: إن هذا السجع لون من ألوان الماضي وأثر من بقاياه!

● ونحن إذا شئنا أن نتعجل إيراد المزيد من الأدلة على وجود

القسمات الروائية، واضحة، في [علم الدين]، فاشرنا إلى نماذج من أساليبها في التعبير الأدبي بالصور، ورسمها اللوحات الفنية، للطبيعة أو للنفس الانسانية، فإن باستطاعتنا أن نورد النماذج العديدة... ولكننا نكتفي، هنا، بنموذجين فقط..

١ ـ ففي المسامرة (١٠١) (نزهة في باريس) نطالع هذه السطور في وصف نزهة من نزهات الشيخ علم الدين في باريس:

«... ثم صار يكرر الالتفات يميناً وشمالاً نحو القصور، فيجد بعضها بحافة الطريق، والبعض بعيد عنها، وكل منها داخل حديقة حسنة الشكل، منتظمة الوضع، فيها من كل أنواع الأشجار والأزهار. وكان يرى أودية بين القصور فيها البقول والخضروات. وتارة يجد أرضاً متسعة كلها أشجار ملتفة وأزهار مؤتلفة، إلا أن بعضها مرتفع وبعضها منخفض. وفي بعض أماكن جبال وهضبات مرتفعة متراكمة بعضها فوق بعض كطبقات الثوب!. وما نظر إلى جهة إلا ورأى الشمس قد رسمت على سطحها صوراً مختلفة من ظل الصخور والأشجار التي بها، فكانت الرياح بها تخفق، والأغصان ببعضها تصفق، وتخيل للشيخ في ذلك الوقت أنّ هناك موسيقى تضرب، لما يسمعه من حفيف الأشجار، وتغريد الأطيار، وصياح البلابل، وترنم العنادل وتارة كان يمتزج حفيف الشجر بخرير الجداول والأنهار وتغريد القماري والأطيار، فتفكر الشيخ في محكم هذا الصنع، وقال: من تأمل لحركات هذه الأشجار قال إنها متمتعة

بالحياة في هذه الدار، ولها شهوات كما للحيوانات! فترى البعض يخضع ويتصنع، والبعض يعلو ويرتفع، والبعض يتمايل وينعطف على غيره، والبعض مضطرب اضطراب المتعادين، وآخر ينضم انضمام المتحابين، فكأن الألفة والتحاب والتنافر والاجتناب كما يكون بين نوع الانسان يكون بين الطيور والأغصان، فترى البعض كمن ذهب وقاره، وآذاه جاره، والبعض كمن افتقر بعد الغناء، أو فارقه خلانه حتى آل إلى الفناء، ففيها المجرد عن أوراقه والمجروح باحتكاك الآخر فيه، وخالي الجوف من طول معيشته، وخصوصاً إذا كان مجاوراً للقائم على ساقه، المزدهي بغصونه وأوراقه، ومنها كالمظهر للدلال، يميل مع الريح حيث مال، وفيها ما يحيط به شيء من جنسه وغير جنسه، فهذا كمن نال درج العز في هذه الدنيا، فما من كبير أو صغير إلا ويدل على عظمة الخالق اللطيف الخبير...»[1].

تلك لوحة فنية وأدبية ترسم منظراً رآه الشيخ في نزهته بباريس..

٢ - وفي المحيط.. تحيط العواصف والأنوار والأمواج والمخاطر بسفينة تجارية، تضم بين ركابها أحد أبطال [علم الدين]: وهو «يعقوب».. فنقرأ في المسامرة الخامسة والخمسين - [النور والغرق - من حكاية يعقوب] - وصفا لملحمة الصراع

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ٣٧٩، ٣٨٠.

الانساني في سبيل البقاء، وتردد المشاعر بين اليأس والرجاء..
نقرأ الوصف الذي تقول سطوره ضمن ما تقول:

«... وكانت السفينة كطائر مجروح يرفرف لخروج روحه، ورأيت جميع الملاحين واقفين شاخصين بأبصارهم، باهتين، مستعدين لما يأمر به القبطان، وعليهم سراويل مشمعة لا ينفذ منها الماء ولا أعلم ما يأمرهم به، وما يريدون أن يصنعوه، وداخلني من الهم والوهم ما لا غاية فوقه. وكان سكون الهواء عند ذلك من أعجب شيء، وظهر على وجه الماء رغوة وزبد، ولم نشعر إلا بدوي ظهر من جوف البحر كأنه ينعي من سيموت فيه!، ثم خرجت ريح شديدة دفعة واحدة فأمالت القلوع حتى صارت مماسة لسطح الماء، وإن كانت الأمواج لم ترتفع إلا قليلاً لأن الهواء ضاغط عليها، ثم أتت زوبعة فصرنا في جوفها، فما كنا نسمع غير أصوات مختلفة، بين تمزيق وتكسير، ودوي وصرير، وكانت السفينة حينئذ في تصرف الريح كاللعبة في يد طفل يديرها كيف أراد، ويقلبها كيف شاء، واستمرت مدة يسيرة وهي مائلة إلى الأمام، ثم اعتدلت وعادت إلى حالتها الأولى مدة، ثم تمكنت منها الزوبعة وأجرتها على وجه الماء بسرعة وخفة تخرج عن حد التصور، وكان عند ذلك يسمع بين الحبال والأخشاب صرير مهول وأصوات مفزعة، والسفينة حينئذ تسير على حالة عجيبة كأنها تمس الماء من غير أن تتمكن فيه، فكانت تمر مر السحاب فوق رؤس الأمواج.. فأمر القبطان بالشراعات فطويت كلها إلا جزء من واحد منها، وقبض على

الدفة الرئيس بنفسه، مع كمال الانتباه والتيقظ والاحتراس. وكنت أنا - [يعقوب] - حينئذ لشدة ما نالني من الخوف والفزع طائش العقل، طائر القلب، لا أنطق بحرف، وإنما أتحرك وأنتقل كالخيال المتنقل بلا تعقل ولا قصد.. وفي أثناء ذلك سمعت بعض الناس يشير على القبطان بأن يوجه المركب إلى البر، لأنه لم يكن بعيداً، فقال: إن هذه الزوبعة لم تترك لنا اختياراً.. وفي أثره اشتد عصف الريح، وهاج البحر، وزاد الخطب عما كان عليه أضعافاً مضاعفة، وصرنا لا يسمع بعضنا بعضاً من شدة صوت الريح وصوت تلاطم الأمواج ببعضها وتلاطمها بالسفينة، فلم يكن صوت الآدمي يتميز بين تلك الأصوات المزعجة، وعند ذلك رأيت الملاحين تركوا اشتغالهم بالسفينة وأظهروا اليأس، واشتغل كل واحد بنفسه، ورأيت كلًا منهم ربط نفسه بحبل من حبال السفينة، وكان الموج يعلو على جوانبها، وتارة يدخلها من جميع جهاتها، حتى يظن أنها غرقت، وتارة كنا نرى السفينة كأنها تقطع الموجة وتنفذ من جوفها بدل أن تعلوها وتمر فوق ظهرها، فإن الهواء كان يلجئها إلى ذلك بقوة ثقله فوقها وكثرة ضغطه عليها، وتارة تكون أعلى الموجة فتدفعها الريح دفعة واحدة بقوة وعنف فتسقط بينها وبين التي تليها، فيظن أنها خسف بها، وعند ذلك تمر عليها الموجة من أولها إلى آخرها فتغمر في مروها جميع من بها، أو تمر من فوق رؤسهم. فكنا جميعاً مترقبين وقوع الغرق في كل دقيقة، فما من لحظة تمر إلا ونحن نراها آخر الأجل، ونتوقع بعدها الخطر،

وجزمنا بالهلاك، وانقطع رجاؤنا من النجاة، وخاف أعظمنا جسارة، وجزع أشدنا تجلداً، وطاش اثبتناجاشا، وحار أكثرنا تجريباً وتعوداً، وبقينا شاخصي الأبصار، غائري العيون، باهتي الألوان، فاقدي الحركة، كأشباح موضوعة، وصور مصنوعة، وفقد كل منا قوة أعصابه، وتغيرت هيئته وصورته، فإن مياه البحر فعلت في الجلد فعلها، وأبقت به آثارها، فأحالت أولاً لونه وبدلته به لوناً آخر، ثم لما تمادى مروها عليه ومباشرتها له وضربها فيه أحدثت فيه استرخاء وانتفاخاً، واضعفت الكيموس[1] الحيوي ونقصت منه، والهواء في أثناء ذلك يساعدها في أعمالها، ويضيف أفعاله إلى أفعالها، ويحملها إلى الرؤس، ويضرب بها العيون والوجوه، حتى ضاعت القوة والبصر وانضاف إلى ذلك أن اضطراب السفينة واختلال حركتها وكثرة تقلبها أحدث اضطراباً في المعدة واختلالاً في الأعصاب ودواراً في الرأس وضعفا في مجموع الجسم، فأحاط بنا من الخطب والكرب ما لا تتسع له العبارة ولا يفي به التمثيل، واستمر الأمر على ذلك نحو ست ساعات، ثم حصل بعده هدء وسكون، فإذا بالقبطان يقول: ها قد ظهرت علامات «فرتونة» أعظم مما قبلها!. فكان سكون البحر في تلك اللحظة كأنه سكون هدنة، فلم نشعر إلا وزوبعة كالريح العقيم، كانت الأولى بالنسبة لها كالنسيم!، فكسرت جميع السواري، وقطعت

(١) الانزيمات (الهرمونات) الحيوية والمنشطة.

الحبال، وضغطت السفينة حتى كادت تنزل إلى قرار الماء، ثم خفت عنها فارتفعت، وأعادت ضغطها فنزلت، وما زالت تلعب بها، ترفعها وتضعها، وتقلبها من جنب إلى جنب ومن جهة إلى جهة، بحيث صغرت الأولى وهونت أمرها عندنا، واستمرت كذلك نحو أربع ساعات، ثم هدأت وسكنت حتى رجونا السلامة وكدنا نذوق حلاوة الأمن، فلم نشعر إلا والماء ينبع من بطن السفينة، فلم نهتد إلى منبعه إلا وقد اتسع الخرق وطفح الماء وأخذت السفينة تنزل بالتدريج إلى جهة قاع البحر، فحينئذ خلع الناس ما عليهم من الثياب وألقوا أنفسهم في البحر، ففعلت مثلهم، وصرت أعوم من غير تعقل ولا روية، ولكن كان الشاطىء غير بعيد، فسبحت حتى وصلت بعد اللتياوالتي، فلم تستقر قدمي عليه حتى انطرحت على بعض الصخور ذاهل العقل ذاهب الشعور عديم الحس والحركة، لا فرق بيني وبين الميت! ، وكأني غلبني النوم هناك من شدة ما قاسيت من العناء والتعب، فنمت ولم أستيقظ حتى ضربني حر الشمس، فقمت فوجدتني عاري الجثة، بادي العورة، ضعيف القوة، خامد النفس، وكان قد مضى على نحو اليومين لم أذق شيئاً، فتحاملت على نفسي، وقمت أنظر أمامي وخلفي، وألتفت يمنة ويسرة فلا أرى أحداً من خلق الله تعالى، ولا يقع بصري إلا على أحجار يابسة، وصخور عالية، وأرض موحشة، فلا أعلم هل غرق جميع من كنت معهم من الملاحين؟ أم نجا منهم أحد إلى أرض غير هذه الأرض؟ أم خرج منهم أحد إلى البر فأهلكه بعض

الوحوش الضارية أو الأمم المتوحشة؟! ثم أدركتني وحشة كبيرة، وخوف على نفسي عظيم، وصرت أتفكر فيما صرت إليه، وما كنت فيه، وقلت لنفسي: ويحك يا يعقوب!. ما أشقاك وأقل حظك!. فوالله لكأنك ما تخلصت من ورطة إلا لتقع فيما هو أدهى منها، فماذا تصنع؟ وما هذه الحال؟ وأين مالك الذي كنت اكتسبت، وبضاعتك التي اشتريت، وأرباحك التي أملت، وثروتك التي فارقت لأجلها الأحباب، وعصيت عليها النصاح، وزايلت البلاد، وركبت هذه الأخطار؟!.. هذه نفسك قد سلمت من بين نفوس هلكت، وبقيت وحدك لا معين ولا أنيس، وقد نجوت هذه الدفعة من البحر، فما يؤمنك من مهلكات البر وعاديات الوحوش ومتوحشي الآدميين؟!...»[1].

هكذا تصف [علم الدين] مشاعر الانسان في لحظات الخطر.. فتملك على القارىء نفسه، وتشد انتباهه... وتجعله متعلقاً بها، لا يريد تركها حتى يعرف مصير البطل «يعقوب»!..

فالجانب الروائي، الذي أشرنا إلى بعض قسماته، في هذه «الرواية» واضح لا لبس فيه..

* * *

أما الجانب التعليمي في [علم الدين] فهو أشد وضوحاً،

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٨٨ ـ ٩٠.

نطالعه في كل «مسامرة» من «مسامراتها»، بل وفي كل صفحة من صفحاتها، مباشراً حيناً آخر وبين ثنايا التصوير الفني والعرض الأدبي والصياغة الروائية ومحاوراتها حيناً آخر، حتى لنعتقد أنه من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى حديث خاص. . ومن ثم فنحن نكتفي في تقريره، زيادة على ما قدمنا عنه، بالإشارة إلى عدد من النقاط:

١ ـ يقرر علي مبارك في المقدمة أن كتابه هذا قد «اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المتفرقة في كثير من الكتب العربية والافرنجية. . .». . والقارىء يلمس ذلك في الثروة العلمية والفكرية الموسوعية التي لا نعتقد أن تخصص علي مبارك كان كافياً لتكون ثمرة لمعرفته الذاتية وثقافته الخاصة. .

٢ ـ إن هذه الرواية، بسياحاتها في فروع العلم، والمعرفة المؤسسة على منهج منه، إنما تنهض بدور رائد في تأسيس المعرفة الانسانية لدى الانسان العربي على أسس علمية، بعد عصر الخرافة الذي أناخ على عقل هذه الأمة وكاهلها لعدة قرون. وهي تزاوج، في وحدة واتساق، بين تراث العرب في العلوم وبين كل منجزات الحضارة الأوروبية في هذا الحقل، وهي بذلك تؤكد ـ بطريق غير مباشرة على وحدة المعرفة العلمية والفكر المؤسس على المنهج العلمي في التفكير. . ومن ثم فهي تمثل إسهاماً هاماً في إشاعة

التفكير العلمي وإحلاله محل الثقافة المؤسسة على الخوارق والخرافات.

٣ - في صفحات [علم الدين] نلتقي بأدلة ورموز وشواهد على وجود كثير من المصادر التي لجأ إليها علي مبارك مستمداً مادته العلمية التعليمية التي ضمنها روايته..

ففي حديثه عن باريس، ومعالمها أثر لقراءة خططها[٢]..

وفي صفحات منها ينهي بعض الفقرات بـ[ا. هـ المراد منه] و[ا. هـ بتصرف] و [ا. هـ مع تصرف يسير].. الأمر الذي يؤكد أنه ينقل هنا عن مصادر في هذه العلوم والفنون.. وأحياناً نراه يضع بين قوسين حرف العطف [و] أو كلمة [بين]، مما يوحي أنه يقوم بعملية «الربط والوصل» لعبارات اقتبسها للتعليم..

وهو عندما ينقل عن التيفاشي [٥٨٠ - ٦٥١ هـ ١١٨٤ - ١٢٥٣ م] صاحب كتاب [الأحجار] يقول: «ورأيت في بعض النسخ».. أي بعض نسخ كتاب [الأحجار]، الأمر الذي يقطع برجوعه إلى مخطوطات عربية يستلهمها مادة كتابه، بل ومقارنته بين نسخ هذه المخطوطات، كما يفعل المحققون لنصوص الكتب المخطوطة!..[٢]

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ١٨٧ - ٢٠٦.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٢٥.

وعندما يتحدث عن حيوان «حية البحر والهائشة» يذكر أن القول بأن طولها هو خمسة وثلاثون متراً هو قريب من رأي الدميري [٧٤٢ ـ ٨٠٨ هـ ١٣٤١ ـ ١٤٠٥ م] في كتابه [حياة الحيوان]. . . ثم يستطرد قائلاً: «وقد قرأت في بعض الكتب المترجمة من اللغة الانكليزية أن طولها في البحر الشمالي يبلغ نحو تسعين قدماً. . .»[1] . . . فهو هنا يقارن بين الحقائق والمعلومات بمقارنة المصادر العربية بالأوروبية. .

وفي المواطن التي عرض فيها لمباحث أدبية أو لغوية من تراثنا القديم تبدو المادة فوق مستوى الثقافة الخاصة لعلي مبارك في هذا الميدان. . ففي المسامرة العاشرة ـ [شتى] ـ نلتقي بمادة غزيرة ومتخصصة في هذا المجال، نسوق منها مثلاً واحداً كدليل على ما نقول:

يتحدث الانجليزي إلى علم الدين سائلاً:

ـ «هل تذكر قول الشاعر:

رأيت قدور الصاد حول بيوتنا
قنابل دهما في المحلة صيما

ـ نعم، هكذا أنشده ابن سيده [٣٩٨ ـ ٤٥٨ هـ ١٠٠٧ ـ ١٠٦٦م]، ولم يسنده. والذي أحفظه: «حسبت»، بدل

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ١٧٤.

«رأيت»، والبيت لحسان بن ثابت، من قصيدة طويلة يقول فيها:

. . . .

. . . .

يقول: إذا اشتد الجدب حسبت قدور الصاد حول بيوتنا جماعة جبل قائمة. يعني أنهم يطعمون في الجدب والقحط كثيراً. والصاد: الصفر، وجمعه: صيدان، كنار ونيران، قاله أبو علي، وأنشد:

* وسور من الصيدان فيها مذانب *»[1]

فالمؤلف هنا لا بد وأن يكون ناقلاً، للتعليم..

وفي كثير من المواطن، بالرواية، نقرأ عبارة: «قال ناقل الحديث»... وعبارة؛ «على حسب ما وصفه ذلك السائح»...

وهي كلها شواهد وأدلة على عملية الاقتباس التي لجأ إليها علي مبارك لجمع المادة التي استهدف من جمعها وتأليفها، في هذا القالب، التربية والتثقيف والتعليم..

* * *

ويتصل بهذا الدور الذي تنهض به [علم الدين] - دور المعلم والمثقف للإنسان العربي - ما تقدمه من تصحيحات لأفكار شاعت، وهي خاطئة، أو كشف لحقيقة غابت عن متناول الباحثين...

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٤٤١.

فهناك ـ على سبيل المثال ـ مقوله شائعة عن تاريخ نشأة المسرح والتمثيل المسرحي في مصر، قد أجمع عليها الباحثون والنقاد في هذا المجال، وهي ترجع بهذه النشأة إلى سنة ١٨٧٠ م على يد يعقوب صنوع [١٨٣٩ ـ ١٩١٢م] كما ترجع تاريخ نشأته في سوريا إلى سنة ١٨٦٥م على يد أحمد أبو خليل القباني [١٨٣٣ ـ ١٩٠٣م] وفي لبنان إلى سنة ١٨٤٨ م على يد مارون النقاش [١٨١٧ ـ ١٨٥٥م].. تلك هي المقولة التي شاعت، واتفق عليها الجميع[١]..

ولكن [علم الدين] تكشف لنا أن هذا الموقف في التاريخ لنشأة المسرح يغفل فرقاً مسرحية قامت ومارست فن التمثيل، وقدمت روايات تاريخية وسياسية واجتماعية، وكان لها الكثير من مقومات الفرق المسرحية، وإن لم تبلغ في هذا الفن ما بلغه الذين أتوا من بعد واحتفل بهم النقاد والمؤرخون لنشأة المسرح في بلادنا..

وعلى سبيل المثال فإن [علم الدين] تشير، عرضاً، إلى فرقة مسرحية مصرية عرفت باسم «أولاد رابية»! يذكرها الشيخ «علم الدين» أثناء حديث الانكليزي إليه عن المسرح في باريس، كفرقة مسرحية، وإن كانت الفروق واضحة وكبيرة بين

---

(١) انظر [رواد المسرح المصري] لمحمد كمال الدين. ص ١١ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م. و[العرب وفن المسرح] للدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي. ص ٧٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

النموذجين، فيقول، في عبارات نراها «وثيقة» هامة في التاريخ للمسرح العربي بمصر، مخاطباً المستسرق الانكليزي:

«... لولا ما ذكرت من كمال انتظام «التياتر» وحسن أحواله، وانه من مواضع التربية العمومية وتهذيب الأخلاق، لخطر في البال أن ما يحصل به من التقليد والتمثيل والألعاب المتنوعة من قبيل ما يكون في بلادنا من ألعاب الطائفة المعروفة [بأولادرابية]، وما يكون فيه من الأغاني والألحان أيضاً من قبيل ما يكون عندنا من غناء المغنين والمغنيات.

فأما [أولادرابية]، فإنهم يدخلون في تقليد بعض أحوال حاضرة، أو أمور ماضية، يأخذون في تمثيلها وتصويرها وإبرازها في معرض المحسوس المشاهد، سواء كانت أموراً اختراعية وهمية لا مستند لها سوى المخيلة، أم كانت أموراً حقيقية حصلت في الواقع ونفس الأمر.

وقد يكون لهذه التقليدات، في بعض الأحيان، نفع في الجملة، بأن يدخل فيها تقبيح واقعة سيئة حصلت في الزمن الحاضر أو الغابر من بعض الناس، فيبرزونها في معرض التشنيع والتفظيع، مفرغة في قوالب الهزل والسخرية، فيضحك منها من يراها. وقد يراها من كانت حصلت منه، أو من هو على مثلها فيستنكف أن يعرف بتلك الحالة المنكرة التي صارت مثلاً وأضحوكة لأعالي الناس وأسافلهم، وتكره نفسه، بالضرورة، أن يكون موضوع تقليد هؤلاء القوم وموضوع أضاحيكهم،

فيكف عن هذه الحالة القبيحة، ويرجع عن معاودتها، ويأخذ نفسه بالإقلاع عنها. فهذه غاية ما يلتمس لهم من المزية والفائدة. إلا أنه قليل نادر كالمعدوم.

وغالب أحوالهم، على ما سمعته عنهم ورأيته في بعض الأحيان منهم، مبني على الفحش والسخف والعيب، مما تأباه النفوس وتمجه الطباع، من الأفعال الفظيعة والأقوال الشنيعة التي ينفر منها كل من له جانب من العقل والدين ومسكة من الحياء والحشمة. وقد يطلع على هذه الأقوال والأفعال بعض الأغرار من الرجال والصبيان والأطفال والنساء فيؤثر ذلك في فساد أخلاقهم، وتتغير طباعهم بما يرونه ويسمعونه مما عساهم قد كانوا بمعزل عنه من فحش القول وشنيع الفعل. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ﴾[1].

فلو خلا اللعب عن هذه القبائح لكان مما لا خير فيه. أما على تلك الصورة فهو مذموم، منكر، مضر!. ولهذا ترى أهل الورع والتقوى عندنا يتحامون مواضع هؤلاء الجماعة، ويكرهون غشيانها. وقد رأيتهم أنا عند بعض الجيران فنفر منهم طبعي، ومجهم بصري وسمعي..!..»

ثم يمضي علي مبارك فيقارن بين «مسرح العامة والعوام» هذا، وبين «مسرح المثقفين» في أوروبا، فيقول على لسان

(١) النساء: ١٤٨.

المستشرق الانكليزي الذي يخاطب «علم الدين» قائلاً:

«إنه لا مناسبة بين الأمرين، فأن الجماعة المعروفين عندكم [بأولاد رابية] إنما هم أشخاص مجردون من حسن الخصال والعلم والكمال، **مجتمعون من طغام الخلق وعوام الناس، لا يحسنون معقولاً ولا منقولاً**، بخلاف طائفة «التياتر» عندنا، فأكثرهم من تعلم وتأدب، وتربى وتهذب، وحصل على فنون كثيرة... فليس «التياتر» عندنا من قبيل [أولاد رابية] ونحوها، بل هو عبارة عن أمثال علمية، على حسب الحوادث التاريخية والتقلبات الدهرية، وهو بهذه الكيفية مما يساعد على تقدم الأمة وتمدنها، ويوسع دائرة فخرها وثروتها...»[1].

فنحن نعلم ونتعلم، من خلال هذا النص الهام:

● أنه قد كانت هناك فرقة مسرحية، متنقلة، في مصر اسمها [أولادرابية].

● وإنها كانت تقدم عروضاً مسرحية تمثل فيها أحداثاً تاريخية، وأخرى حاضرة.

● وإن هذا التمثيل كان يلعب دوراً أخلاقياً يُكَرِّه لأصحاب النقائص، التي تمثلها هذه الفرقة، نقائصهم، حتى ليجعلهم ذلك التمثيل يخشون العودة إلى نقائصهم هذه!..

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٦٠٢ - ٦٠٥.

أما نقد علي مبارك، وكذلك الانكليزي لهذه الفرقة، فمرجعه الفارق الكبير بينها وبين «التياتر» الباريسي الذي كان يجري عنه الحديث. . . وما تجهر به هذه الفرقة من ألفاظ نابية تؤذي مشاعر «أهل الورع والتقوى» الذين «يتحامون مواضع» عروضها المسرحية التمثيلية! . . .

وهو نقد لا يزال قائماً حتى اليوم لمسرحنا العربي، في مجمله، سواء من «أهل الورع والتقوى» أو من الذين هجروا الورع وغابت عن قلوبهم التقوى؟! . .

* * *

ولقد كان الحديث عن المسرح الباريسي، وما فيه من غناء ارتقى برقيه، مناسبة ليسجل لنا علي مبارك في [علم الدين] رأياً هاماً لمؤرخي تطور الغناء في مجتمع القرن التاسع عشر عندنا. . وهو رأي مرب ومعلم، يدرك دور الغناء في تكوين وجدان الأمة وتهذيب سلوكها وتقويم أخلاقها، ثم يتحسر على انحراف فن الغناء عن الطريق الذي يضمن تحقيقه لهذه الأهداف. . يقول عن غناء القرن التاسع عشر:

«. . . وأما الغناء عندنا، سواء كان من الرجال أو من النساء، فلا يقصد به حكاية حال ماضية ولا حاضرة، وإنما هي، في الغالب، كلمات غرامية، من الشعر أو غيره من الفنون، يرددها المغني ويترنم بها، مع رعاية تحسين الصوت وإجادة الأداء والإتيان بما يستعذب من الألحان على قدر الإمكان،

فيقصد فيها إلى رخاوة الصوت ورخامته، وجودة الأداء وحسن الأنغام. وقد يقطع النظر بالكلية عن معاني الكلام، حتى أننا نراهم يدخلون في الغناء بعض كلمات لا يعقل معناها المغنى ولا السامع، بل ربما كانت لا معنى لها في نفسها!. وترى المغنى يعيد الكلمة الواحدة، مثل : «يا ليل يا عين»، مرات كثيرة، يكررها من تلقاء نفسه أو باستعادة من السامع، لا لأجل لفظها ولا لمعناها، ولكن استجادة للحن واستحساناً للنغمة!.

ومما نتأسف عليه أنا نرى فيما نقل إلينا من أغاني القدماء، في كتب الأدب، كلمات تحث على الكرم، والفتوة والنخوة، ولا نرى الأغاني عندنا في هذه الأعصار إلا مقصورة على العشق واللذة والشهوة، فلا ترى لها أثراً يحمد في التربية وتهذيب الأخلاق، بل ربما كانت في بعض الأحوال مما يضر بذلك!..»[1]

لقد كان علي مبارك رجلاً عصرياً متحضراً.. وكان المغنون ـ [أهل المغنى] ـ يدعون إلى منازل الموسرين والوجهاء ليستمتع الناس بغنائهم.. وكان علي مبارك ممن يرتادون هذه المجتمعات.. ويحدثنا الامام محمد عبده أن الغناء كان يجاور أحاديث الثورة واجتماعات الثوار في بيوت العرابيين.. وأنه قد حضر مع علي مبارك مناسبات كهذه.. ولما لم تكن تعجب علي

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٦٠٣، ٦٠٤.

مبارك بعض آراء العرابيين كان يقول: «نسمع المغني أحسن!». .[1]

وها نحن نطالع له في [علم الدين] ذلك النقد الذي عاب فيه على الغناء، في منتصف القرن التاسع عشر، عيوباً لا زال المربون والمثقفون والمفكرون يعيبونها فيه في الربع الأخير من قرننا العشرين!

* * *

وهناك تصحيح آخر تقدمه رواية [علم الدين] لأحكام غير دقيقة أصدرها نفر من الذين أرخوا لمسرحنا. . فلقد قال البعض إن رفاعة الطهطاوي قد انفرد، من بين المبعوثين إلى أوروبا، بوصف المسرح هناك. . فهو لم ينفرد برؤيته ولكنه انفرد بوصفه. . فلقد «كان هناك كثيرون من المبعوثين ممن شاهدوا المسرح، وعرفوا قيمته، ولكن لم يخلفوا لنا كتابات لنعرف حقيقة رؤيتهم لفن المسرح!. .»[2]

ذلك هو الحكم الذي تأتي [علم الدين] لتصححه. . .

صحيح إن سبق الطهطاوي لوصف مسرح باريس هو سبق لا ينازعه فيه مبعوث مصري آخر إلى تلك البلاد. . والرجل كان في

---

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ١ ص ٤٤٩. دراسة وتحقيق دكتور محمد عماره. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(2) [العرب وفن المسرح] ص ٧٤.

باريس، يشاهد المسرح، ويكتب عنه في [تخليص الابريز]، وعلي مبارك طفل في الثالثة من عمره!

ولكن الطهطاوي لم ينفرد من بين المبعوثين المصريين إلى باريس بالحديث عن المسرح.. فهو قد كتب عنه في [التخليص] ثلاث صفحات[(١)] ـ على حين كتب عنه علي مبارك في [علم الدين] واحداً وخمسين صفحة[(٢)]!.. الأمر الذي أتاح لعلي مبارك أن يقدم لنا من التفاصيل عن نشأة المسرح ووصفه ودوره ما لا نجده عند صاحب [التخليص]... فهو يحدثنا عن تاريخ المسرح قديماً وحديثاً.. وعن عظمه وعظمته.. وعن دوره الترفيهي، والتربوي، والنفعي للمؤلفين والأدباء، فضلاً عن الجمهور.. وعن أنواع المسرح وفنونه.. وعن إعانة الدولة لدوره الشهيرة، مثل [أوبرا باريس].. وعن الكتب والحكايات المؤلفة للمسرح، والتي كادت أن تفوق ما ألف في غيره من باقي العلوم والفنون!.. وعن درجات المسرح وأجور دخولها.. وعن انتشارها في الأقاليم، خارج باريس، ودخولها القرى ذات الأسواق والموالد والأعياد!.. بل لقد أورد علي مبارك في [علم الدين] ملخصاً وافياً لإحدى المسرحيات الدرامية التي مثلت على مسرح باريس!..

---

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] جـ١ ص ١١٩ ـ ١٢١.

(٢) هي المسامرة السابعة والعشرون (التياتر). والمسامرة الثانية والثمانون (البالو).. وصفحات الأولى ـ في طبعة الأصل ـ خمس وأربعون، وصفحات الثانية ست صفحات.

والأمر الذي لا شك فيه أن القارىء العصري والمعاصر سيكبر علي مبارك وحاسته الأدبية والفنية أيما إكبار عندما يقف على تقييمه للمسرح ودوره وسلطانه العظيم، ذلك التقييم الذي كتبه في منتصف القرن التاسع عشر، وقبل أكثر من قرن من وقتنا هذا.. وهو التقييم الذي نختار - هنا - من صفحاته هذه السطور:

● **فللمسرح شمول وعمومية تصل بها يده وسلطانه إلى الجميع:**

ذلك «أن التياتر لا يقتصر على أمر من الأمور ونوع من الأفعال وطائفة مخصوصة من الناس، بل يستحوذ على جميع الأمور، وكل الأجناس، فلا يخرج من قبضته الجبابرة المتمردون، الذين كانوا تحت نظر الناظرين من أهل العصر الحاضر، ليروا بأبصارهم كيف تزول عظمة العظماء الطاغين.. الذين ضلوا وأضلوا، وأوقعوا من تبعهم في مهالك الردى، فيأخذ من ذلك كل واحد من الحاضرين حظه من الموعظة والعبرة، على قدر استعداده وقابليته، فتضعف وتسكن عند كثير من الناس شهوة الشر، وتقوى وتتحرك رغبة الخير والبر!..»

● **وللمسرح - من ثم - دور في التربية، والوطنية، وعشق الحرية:**

«... فمن ذا الذي لا يرجف قلبه وتضطرب مفاصله حين يرى فعل قاتل النفس عند القتل؟! وأي نفس لا تتأثر وقلب لا يتحرك وجلد لا يقشعر عند معاينته قاتل الولد والوالد للحصول

على بعض الأغراض والمفاسد؟! وأي همة لا تتحرك عند رؤية فاضل كريم من الناس يفدي غيره بروحه وماله؟! وأي عقل لا يستفزه حب الفضل وأهله وكل متمسك بحبله عند مشاهدة تجرد الأفاضل من الرجال من حياتهم وماهم وعياليهم لتخليص وطنهم وأهله من سطوة الأعداء المفسدين وقهر الجبابرة المتمردين؟!..

كل هذه الأحوال لا يخفى تأثيرها في القلب وفعلها في النفس، وليس لها غير «التياتر» ما يكشف حقيقتها ويعطيها قوتها...»

● **وللمسرح على الناس سلطان يفوق سلطان القانون:**

ذلك «أن كثيراً من أمور الناس وأحوالهم لا تدخل تحت حكم القوانين البشرية، وبذلك يخلص من عقوبتها كثير من سيئات الناس، ويخلو عن المكافأة كثير من حسناتهم، ومن شأن «التياتر» أن يستحوذ على كل ذلك فيدخله في بابه، وينظمه في سلك ألعابه!..»

● **وللمسرح «الكوميدي» سلطان أشد.**

«... فمن الغريب أن ترى الناس كلما ازدادوا في التقدم والفنون زاد فيهم عدد أهل الطيش والسفه والجنون! فلا ينجح في مداواة دائهم واستئصال شأفة أهوائهم وردعهم عن شرورهم وتجريدهم من ثياب غرورهم إلا إلباسهم ثياب الهزل وتأديبهم بسوط السخرية وعرضهم في معرض الإهانة، ليفيقوا من غفلتهم ويهبوا من رقدتهم، ويتخلص الخلق من مضرتهم... ولما كان حكم القوانين الدينية والدنيوية لا يدخل هذا المدخل كان «التياتر» معيناً لهما على تكميل الجمعية البشرية!...»

● والمسرح مدرسة لعلوم السرائر والقلوب:

وتلك «مزية كبرى، قد اختص بها دون غيره.. فهو مدرسة علمية لجميع الأحوال الأسرية، ومصباح يستضاء به في الأحوال الباطنة، ومفتاح يفتح به جميع الخفايا الكامنة، حتى تظهر خطرات السرائر وأوهام الظنون وأحاديث النفوس فتبدو من خلال ستورها، ويطلع الناس على خفيها ومستورها، مفرغة في قوالبها، موضوعة في مواضعها، منزلة منازلها!...»

● والمسرح رباط توحيد للأمة:

لأنه «قناة ممتدة بين أفراد الأمة، يسيل بها ماء العلم والمعرفة من الأعلى إلى الأدنى، ومن العلماء والخواص إلى الجهال والعوام، فتزداد العلائق التآنسية، وتقوى الروابط الودادية، وتعمم المنفعة، وتتم الفائدة!..»

نعم... يعدد علي مبارك للمسرح كل هذه الميزات، وغيرها، ويخلص إلى أن منافعه تلك قد جعلت الاهتمام به عند الأمم المتحضرة على نفس المستوى من الفائدة.. «... وهذا هو السر الذي حمل عقلاء الملوك والحكام ونبلاءهم على اتخاذ «التياتر».. فإنهم رأوا أن النفوس، بالطبع، مائلة إلى اللذات، منجذبة لجانب الشهوات، ورأوا أن صدها عن ذلك بالكلية ومنعها بالمرة يتعسر ويتعذر، فاختاروا أن يستحوذوا على تلك الشهوات والمستلذات ويتخذوها كآلات تستعمل فيما يراد من الأمور النافعةالمحمودة في الشرع والعقل، ويفرغوها في قالب تصير به من أسباب الفوز والسعادة، فلم يجدوا أحسن من

«التياتر» للوصول إلى هذا المقصد... فهو، بهذه الحالة، كالخادم للشريعة، التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. ومن ثم فهو من أعظم الملاهي، بل من أهم الأمور وأولاها بالاعتناء والرعاية..

إنه ـ [بإيجاز] ـ أحسن المبتدعات البشرية وأجملها، وأعظمها فائدة وأكملها!..»

هكذا تحدث علي مبارك عن المسرح في [علم الدين].. فحق لنا أن نسلكه في سلك الرواد الذين اهتموا بوصف المسرح الفرنسي، وتحبيذ النهضة المسرحية في بلادنا..

وإذا كانت الريادة، في هذا الميدان ـ كما في كثير من الميادين ـ هي لرفاعة الطهطاوي..

فإن التفصيل والإفاضة والاستفاضة هي لعلي مبارك، بلا جدال!..

منهج مستنير في كتابة التاريخ

[. . . إن كل إنسان لا يرى الأشياء إلا على حسب ما تظهر له. . فإن وقف على حقيقة أمرها، واطلع على ما كمن من سرها، ظهرت له من جميع جهاتها، فحكم عليها بما تستحقه في ذاتها، وبالنظر لعامة حالاتها، وإلا ظهرت له المسألة من جهة واحدة، فيحكم فيها بما تقتضيه تلك الجهة دون سائر جهاتها!. . .

وغالب اختلاف الخلق من اختلاف نظرهم، فمنهم من ينظر إلى الشيء في أعم أحواله، فيحكم عليه بما يستحقه، ومنهم من ينظر إليه من جهة، فيحكم على كل جهاته بما حكم به على تلك الجهة. . . والأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل زلت فيها القدم. . ومنفعة التاريخ عامة للخاصة والعامة، فهو مشير كل أمير، وأمير كل مشير، وسمير كل وزير، وظهير كل سميرا. .]

علي مبارك

لقد ارتاد رفاعة الطهطاوي كتابة التاريخ على النمط الحديث، فكان أول المؤرخين المحدثين، لأن الكثرة الساحقة من مؤرخي العربية الذين سبقوه كانوا يكتبون التاريخ على أساس من «الحوليات»، فكل سنة يدون تاريخها وترصد أحداثها، ثم تأتي أحداث السنة التالية، وهكذا. . . أما الطهطاوي ـ في عمله التأريخي الذي أنجز منه [أنوار توفيق الجليل] و[نهاية الايجاز][1] ـ فلقد تناول التاريخ كما يتناوله مؤرخو المدرسة الحديثة، فتاريخ مصر عنده عصور وحقب سياسية وحضارية، وليس «حوليات». .

وعلى هذا النحو سار علي مبارك، المؤرخ، فيما كتب لنا من تاريخ. . ففي كتابه [نخبة الفكر] نرى مصر، وعلاقتها بنهر النيل، والحضارة التي نشأت على ضفافه، والأطوار التي مرت بها اجتماعياً وسياسياً وحضارياً، والقاعدة المادية للمجتمع وعلاقتها

(١) انظر الجزء الثالث والرابع من أعماله الكاملة.

بالأبنية العلوية فيه . . . ترى جميع ذلك وحدة موضوعية، هي عنده الموضوع الذي يؤرخ له في هذا الكتاب . .

وإذا كان لواء الريادة في مدرسة التاريخ الحديثة قد عقد للطهطاوي ـ فهو قد أرخ في الستينيات، بينما أرخ علي مبارك في السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر[1] ـ فإن علي مبارك قد تميز بضخامة ما ترك من آثار فكرية في علم التاريخ . . . كما امتاز، كذلك، بانفراده بالتأليف في [الخطط] منذ عصر المقريزي [٧٦٦ ـ ٨٤٥ هـ ١٣٦٤ ـ ١٤٤٢م] حتى القرن الماضي، بل ولا يزال فريداً ووحيداً في هذا الميدان حتى الآن!

ولما كان فن التأريخ في «الخطط» يعني، بالدرجة الأولى، بالتأريخ للمدن، ونشأتها، وما فيها من شوارع وحارات، ومساجد، وزوايا، وتكايا، ومدارس، وأضرحة، ومن نبغ بها من العلماء، وتوالى على حكمها من الأمراء، وبمصادر تعيش هذه المدن والبلاد، وحرف أهلها وصنائعهم ونقودهم، ومقاييسهم ومكاييلهم وموازينهم وما قام بينهم وبين حاكميهم من صراعات، وما شهدت تلك المدن والبلاد من فترات رخاء وازدهار وما أصابها من محن وأمراض وأوبئة ومجاعات . . الخ . . الخ . . **فإن هذا الفن من فنون التاريخ وألوانه يضع يدنا على**

---

(١) مرادنا بالسبق هنا: السبق لنشر المؤلفات التاريخية، وإلا فعلي مبارك قد سبق الطهطاوي بالفصول التي كتبها في التاريخ بكتابه [علم الدين]، الذي قلنا إنه قد ألفه في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي.

القسمات الأساسية التي تكون القاعدة المادية للمجتمع، ويجلى لعقلنا الأسباب الحقيقية التي حكمت وتحكم صراعات السلطة وخلافات المذاهب في المجتمعات، إنه المرآة التي تعكس أحشاء المجتمع، وبدونها لن يصل الباحث إلى الأسباب الحقيقية لصراعات السطح وتناقضات المستويات الأعلى!..

وإذا كان لا بد من تمثيل تتضح منه تلك الأهمية، فيكفي أن نعلم:

● أن أي باحث، مثلاً، في تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي إذا أراد أن يعلم شيئاً عن «العمل والأجور»، في عصورها الوسطى، فلن يجد لبحثه هذا مصدراً إلا «حجج الأوقاف».. لأن مجتمع تلك العصور كان مجتمع «سخرة» لا «أجر» فيه «للعمال والأعمال».. والأوقاف وحدها كانت، في «حججها»، المجال لتحديد «الأجور».. فعندما يقف واقف أرضاً أو عقاراً على مسجد أو مدرسة، يحدد في «حجة» وقفة أجور: إمام المسجد، والمؤذن، والخطيب، والمدرس، والوقار، والفراش، والخازن، والطلاب الذين يدرسون في المسجد، والقراء الذين يقرؤن القرآن والأدعية والأوراد.. الخ.. الخ.. فإذا قارنا أجور «العمل اليدوي» «بالعمل الذهني»، واستعرضنا تطورها، من خلال «الحجج» في عصور متتالية، استطعنا أن نصل إلى معيار تلك العصور ونظرتها وتقييمها «للعمل والأجور».. وليس سوى [الخطط]، وخطط علي مبارك مصدراً

وحيداً نجد فيه هذه الوثائق من وثائق تاريخنا في تلك العصور[1]! . .

● وإذا أراد باحث في تاريخ الطب العلاجي، لا النظري، أن يضع يده على مدى اهتمام المجتمع بصحة الناس، من حيث إنشاء المارستانات، والاجزخانات، ومدارس الطب، وتيسير العلاج للناس، وتقديم الطعام للمرضى، والأنظمة التي وضعت لكل ذلك، فليس غير وثائق [خطط] علي مبارك مصدراً لمثل هذه المعلومات[2] . .

● وإذا أراد باحث أن يضع يده على الأسباب الحقيقية للصراعات المذهبية والدينية والقومية، وعلاقتها بمصادراتها الأموال والنمو غير العادل للثروات، فليس غير [الخطط] مصدراً لهذه الحقائق التي تفسر لنا الصراعات العلوية التي وقفت عندها واقتصرت عليها أغلب كتب التاريخ العام! . .

وعلى مبارك لم ينفرد فقط باقتحام هذا الميدان، ويتفرد فيه منذ عصر المقريزي، بل كان إضافة جديدة ومتميزة لمؤرخي [الخطط] في تراثنا العربي وتاريخنا الاسلامي الطويل . .

---

(١) انظر، على سبيل المثال، وقفية جامع محمد أبو الذهب ص ١٠٨ ووقفية الغوري ص ١٢٢ ووقفية جامع المؤمنين ص ١٢٤ جـ ٥ من طبعة [الخطط] الأولى.

(٢) انظر، على سبيل المثال حجة المارستان المنصوري في الجزء الخامس ص ١٠١ من طبعة [الخطط] الأولى.

● فهو مهندس.. يحقق، بعلم المهندس، أقوال القدماء ورواياتهم عن الآثار والعمائر والمنشآت..

● وهو صاحب حاسة نقدية.. يقارن المأثورات، ويحقق المرويات، ويرشح أصح الأقوال والاستنتاجات..

● وهو شاهد عملي.. ينزل بنفسه، أو بمن استعان بهم، إلى أرض الواقع فيحقق على الطبيعة روايات المؤرخين..

● وهو جامع للشهادات الحية من أفواه الأحياء وذوي الاختصاص..

● وهو - بعد الطهطاوي - خير من استفاد من موسوعة [وصف مصر] التي وضعها علماء الحملة الفرنسية الذين صحبوا جيش بونابرت، ودونوا فيها، بالكلمة، والرسم والخارطة، تاريخ مصر وآثارها وحضارتها ومجتمعها وإنسانها منذ أقدم العصور.. بل لقد لجأ إلى علماء اللغة المصرية القديمة فاستفتاهم فيما غمض عليه من بعض وقائع تاريخها القديم!..[1]

---

(١) انظر في جميع ذلك: [علم الدين] المسامرة الرابعة والثلاثون (شذرات)، و[الخطط] - طبعة الأصل - جـ ٢ ص ١٦، ٣٣، ٥٩، ١١٢؛ ١٢٠، جـ ٣ ص ٣٦، ٤٨، ٥٧، ٦٤، ٦٥، ١١٤، ١٢١، جـ ٤ ص ٣٨، ٥٦، ٥٨، ٦٣، ٧١، ٧٣، ٧٦، ٧٧، ٨١، ٨٣، ٩٩، ١٠٨، جـ ٥ ص ١٩، ٢٠، ٣٤، ٣٩، ٥٠، ٥١، ٦٢، ٦٦، ٦٨، ٧٥، ٧٦، ٨٢، ٨٩، ٩١، ٩٥، ١٠٠، ١٠٧، ١١٦، ١٢٤، ١٣٨ (وفيها وثائق الحجج الأوقاف) وكذلك جـ ٢ ص ٨٦، ١٠٢، جـ ٣ ص ٩٧، ١٠٥ (وفيها يرجع لخرائط «وصف مصر»..) وفي جـ ٣ ص ٥٨ يرجع إلى «المكلفات وقوائم المساجد».. الخ.. الخ.

● وفوق هذا كله . . فإننا عندما نقف أمام علي مبارك المؤرخ نجد أنفسنا حيال مؤرخ قد انطلق ليؤلف، مسلحاً بالاضافات التي منحها له عصره وميزته بها ثقافته . . وذلك بعد أن أحاط بآثار من سبقه من كبار المؤرخين الذين كتبوا في مختلف الفروع والفنون التي عرض لها فيما كتب من تاريخ . . كتاب الخطط، والتراجم والطبقات، والمذاهب والأديان، والمدن والبلدان . . الخ . . الخ . . ويكفي أن نعلم أنه قد رجع إلى أمهات كتب التاريخ أو إلى النقول التي حفظت لأعلام هذا الفن، من مثل:

ابن زولاق، الحسن بن ابراهيم [٣٠٦ - ٣٨٧ هـ ٩١٩ - ٩٩٧ م]

المسبحى، محمد بن عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل [٣٦٦ - ٤٢٠ هـ ٩٧٦ - ١٠٢٩ م].

أبو الحسن علي بن رضوان [٤٥٣ هـ ١٠٦١م] . .

القضاعي، محمد بن سلامه [٤٥٤ هـ ١٠٦٢م] . .

القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي [٥٢٩ - ٥٩٦ هـ ١١٣٥ - ١٢٠٠م] . .

ابن مماتي، أسعد (أبو المكارم) بن مهذب [٥٤٤ - ٦٠٦ هـ ١١٤٩ - ١٢٠٩م] . .

ابن جبير، أبو الحسن محمد بن جبير الكناني [٥٤٠ - ٦١٤ هـ ١١٤٥ - ١٢١٧م] . .

ابن أبي طيء، يحي بن حميدة بن ظافر [٦٣٠ هـ ١٢٣٣م] . .

السهروردي، شهاب الدين عمر بن محمد [٥٣٩ ـ ٦٣٢ هـ ١١٤٥ ـ ١٢٣٤م]..

ابن دحية، عمر بن الحسن بن علي [٥٤٤ ـ ٦٣٣ هـ ١١٤٩ ـ ١٢٣٥م]..

ابن ميسر، محمد [٦٧٧ هـ ١٢٧٨م]..

ناصر خسرو [١٠٠٣ ـ ١٠٦١م]..

ابن عبد الظاهر، علي بن محمد بن عبد الله [٦٧٦ ـ ٧١٧ هـ ١٢٧٧ ـ ١٣١٧م]..

ناصر الدين شافع بن علي [٦٤٩ ـ ٧٣٠ هـ ١٢٥٢ ـ ١٣٣٠م]..

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان [٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ ١٢٧٤ ـ ١٣٤٨م]..

شهاب الدين بن أبي حجلة، أحمد بن يحيى [٧٢٥ ـ ٧٧٦ هـ ١٣٢٥ ـ ١٣٧٥م]..

ابن الملقن، عمر بن علي بن أحمد الأنصاري [٧٢٣ ـ ٨٠٤ هـ ١٣٢٣ ـ ١٤٠١م]..

ابن الزيات، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ناصر الدين [٨٠٥ هـ ١٤٠٢م]..

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي [٧٦٦ ـ ٨٤٥ هـ ١٣٦٠ ـ ١٤٤١م]..

السخاوي، محمد بن عبد الرحمن [٨٣١ ـ ٩٠٢ هـ ١٤٢٧ ـ ١٤٩٧م]..

ابن الناسخ، كمال الدين محمد [٩١٤ هـ ١٥٠٨م]..

ابن إياس، محمد بن أحمد [٨٥٢ - ٩٣٠م ١٤٤٨ - ١٥٢٤م]..

الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد [٨٩٨ - ٩٧٣ هـ ١٤٩٣ - ١٥١٥م]..

ابن سنبل، أحمد بن يوسف بن يعقوب الخلوتي [٩٨٩ - ١٥٨١م]..

المناوي، عبد الرؤف بن تاج العارفين علي بن زين العابدين [٩٥٢ - ١٠٣١ هـ ١٥٤٥ - ١٦٢١م]..

ابن أبي السرور، محمد بن محمد [١٠٠٥ - ١٠٨٧ هـ ١٥٩٦ - ١٦٧٦م]..

الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن [١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢م]..

كل هؤلاء الأعلام، وغيرهم، رجع علي مبارك إلى أعمالهم، أو إلى نصوصهم في أعمال سواهم، عندما تناول كتابة التاريخ..

* * *

قلنا إن علي مبارك قد نظر في روايات المؤرخين القدماء بعين ناقدة، وعقل مهندس، ومنهج علمي مستنير، يتسلح صاحبه بالعلوم الحديثة، ويؤمن بالتخطيط المعتمد على التعداد والإحصاء، ولعل بعض الأمثلة ضرورية لتبيان تلك الملكة التي تميز بها هذا الرجل في نقد روايات المؤرخين السابقين..

١ ـ ففي تقدير تعداد سكان القطر المصري في العصور السابقة، اختلف المؤرخون.. فمنهم من جعل تعداد السكان سبعة وعشرين مليوناً، ومنهم من وصل بهم إلى الأربعين مليوناً!

وعلي مبارك يرى في ذلك مبالغة.. ويعتمد على معيار علمي في نقد هذه الأرقام.. فمساحة وادي النيل تبلغ نحو ٢,٢٠٠ فرسخاً، منها مساحات يجب استبعادها من المعمور بالسكان، لأنها خلجان وبرك وترع ورمال.. الخ.. فيبقى للمعمور نحو ١,٥٠٠ فرسخ.. ونحن إذا قسنا متوسط سكان تلك المساحة على نحو ما هو مماثل ومشابه في «أعظم أقطار الأرض عمارة، كبلاد الفلمنك ـ [بلجيكا] ـ مثلاً، بأن يجعل لكل أربعة آلاف نفس فرسخ، كما هو في تلك البلاد، فلا تراه يسع أكثر من ستة ملايين نفس ١٠٠ وعشرة ملايين... وهذا الرقم هو القريب مما عليه مشاهير المؤرخين[1]..

فهو هنا يتخذ من «متوسط عمارة الفرسخ بعدد معين من السكان» **وفق ظروف تلك العصور ومصادر رزق أهلها**، معياراً لنقد روايات المؤرخين عن عدد السكان، وتحقيق هذه الأرقام..

٢ ـ ومساحة الأرض المنزرعة بمصر في العصور القديمة، كانت

---

(١) [نخبة الفكر] الباب الثالث. فصل في تعداد أهالي القطر المصري. [انظره في المجلد الثالث من أعماله الكاملة].

هي الأخرى موطناً لاختلاف الروايات والمأثورات. . ومجالاً لنقد علي مبارك بعقل العالم المؤرخ. .

فإبن أياس يذكر أن المنزرع من أرض مصر، على زمن المسعودي [أي في القرن الرابع الهجري] بلغ ١٨٠,٠٠٠,٠٠٠ (مائة وثمانين مليوناً من الأفدنه!). . وعلي مبارك يرفض الرقم، لا لأن عظمه يدعو إلى رفضه منذ الوهلة الأولى، وإنما بعد عرضه على معاييره العلمية في نقد المرويات. . فنراه يعرض هذا الرقم في ضوء أرقام أخرى أوردها ابن إياس نفسه لنواحي أخرى من عمران مصر. . فهو ـ أي ابن اياس ـ يذكر أن الخراج يومئذ لم يكن يجبى جميعه إلا إذا بلغ العاملون بالزراعة ٤٨٠,٠٠٠ نفس في كل جهات القطر. . وعندما تم إحصاء الزراع في ذلك التاريخ كانوا ١٢٠.٠٠٠ نفس فقط. . كانوا يزرعون ربع الزمام. . . وذلك يعني ـ كما يقول علي مبارك ـ أن الفرد الواحد من هؤلاء الزراع كان يزرع ويفلح ٣٧٥ فداناً!. . وهو أمر غير معقول!. . ويفترض علي مبارك أن يكون المراد بـ «الفدان» هو «القيراط» بمقاييسنا الحاضرة، فيكون الزارع قد نهض بزراعة خمسة عشر فداناً، وهو رقم معقول. . ثم يستدل على عدم صحة الرقم الأصلي ـ [١٨٠,٠٠٠,٠٠٠ فدان] ـ بما ذكره ابن اياس ذاته من أن أرض مصر المنزرعه في تلك الفترة كانت تبلغ «مسير ستين يوماً». . وينهى نقده وتحقيقه لتلك الرواية بقوله: «. . . والذي يغلب على ظني، غلبة تقرب من اليقين، أن الأصل ألف ألف وثمانمائة ألف فدان ـ [أي مليون وثمانمائة ألف] ـ وأن

الناسخ لكتاب ابن اياس قد أضاف صفراً، فحصل منه هذا الخطأ الفاحش! . . .[1]»

يحقق علي مبارك هذه الروايات تحقيق العالم. . بينما قبلها على علاتها كثيرون، ومنهم مستشرقون، فظلموا دولاً ونظماً حكمت مصر عندما جعلوها مسئولة عن هذا الإنهيار العمراني الذي أوصل أرض مصر المنزرعة من ١٨٠ مليوناً إلى ثلاثة ملايين في مطلع القرن التاسع عشر! . .

٣ ـ والفرق بين مساحة الأرض المنزرعة بمصر من فترة الحملة الفرنسية [١٧٩٨ ـ ١٨٠١م] إلى خمسينيات القرن التاسع عشر تذكر المصادر أنها نحو من مليوني فدان. . فلقد كانت ثلاثة ملايين، ثم ارتفعت فبلغت نحو خمسة ملايين فدان وهذا رقم في الزيادة كبير . . ولكن غوص علي مبارك في أعماق الأرقام ـ إن جاز التعبير ـ وتفتيشه وراءها يكشف لنا أن «الصيارفة وعمال الخراج» قد جعلوا السبعة عشر قيراطاً فداناً، بينما هو في المقاييس القديمة ـ كما هو حالياً ـ أربعة وعشرون. . ففدان عهد عباس الأول وسعيد هو ثلث وربع الفدان القديم، ومن ثم فإن الزيادة في مساحة الأرض المنزرعة في عهدهما عن بدايات القرن ليست مليوني فدان وإنما هي ٣٥٤,٠٠٠ فدان فقط[2]!

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٢٥١.

وعلى هذا المنوال نرى العين الناقدة والعقل الفاحص والمنهج العلمي لعلي مبارك في تمييز الصواب من الخطأ عندما يعرض لروايات المؤرخين[1]. .

كما يستخدم إمكانياته، كمهندس، لتحديد الأماكن التي ذكرها القدماء دون تحديد[2]. .

كما يتجلى أثر التكوين العلمي لثقافته في دراسته لتكوين وادي النيل بواسطة النهر وطميه، على مر العصور، فيعرض القوانين العلمية والحقائق الجيولوجية المتعلقة بطبيعة التربة، والمواد التي يحملها ماء النيل في فيضانه، ويتخذ من كل هذه الحقائق أدوات لتحديد زمن التكوين وأدواره وكيفيته. . فيؤسس النشأة والعمران على حقائق العلم وأحدث ما اكتشف وتقرر في ميدانه من نظريات[3]. .

* * *

وعند علي مبارك، المؤرخ، نستطيع أن نجد عدداً من

---

(١) انظر نقده لروايات القدماء عن عدد حمامات الفسطاط. . في [الخطط] جـ ١ ص ٩٥ من الطبعة الأولى.

(٢) انظر [الخطط] جـ ٣ ص ١١ من الطبعة الأولى، عند حديثه عن ذكر المقريزي «لحكر طقز دمر» دون تحديد. وكذلك جـ ٣ ص ٦٧ عند ذكر «بستان المقس». .

(٣) انظر [نخبة الفكر] الباب الثاني (في تكوين وادي النيل وحدوده وزراعته، وما يتعلق بذلك) [راجعه في المجلد الثالث من أعماله الكاملة].

السمات التي تجعلنا نضعه ضمن المدرسة المستنيرة من المؤرخين، الذين أعطوا العامل الاجتماعي أهمية كبيرة في رصدهم للعوامل المحركة للتاريخ، فاقتربوا اقتراباً شديداً مما نسميه اليوم بالمنهج العلمي والاجتماعي في التأريخ..

فهو يدرك إدراكاً جيداً دور العوامل المادية، وفي مقدمتها الضرورات الإنسانية، في صناعة مظاهر التقدم الفكري والحضاري في المجتمعات.. فالسبب الأساسي والأصلي في انتقال الانسان «بقوة فكره وغزارة عقله... من حالة إلى حالة ومن فكرة إلى فكرة، حتى وصل إلى ما نراه اليوم» في مختلف فروع العلم والمعرفة... السبب الأساسي والأصلي في ذلك التطور والارتقاء الفكري هو ضرورات الانسان واحتياجاته، وميله لحب الانتفاع والوقاية الشخصية!»[1].. بل لقد جعل من سعي الانسان لتحصيل ضروراته المادية، واطمئنان نفسه عند حصوله على هذه الضرورات دليل «عقل» هذا الانسان «وحكمته»!.. فحكي كيف:

سئل حكيم: متى عقلت؟

فقال: حين ولدت!

فقيل له: كيف؟!

فقال: جعت فطلبت، وأعطيت فسكت!»[2]

---

(1) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٤٩٠.

(2) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٧٨.

وللبيئة المادية وعوامل الاقليم التي ينشأ ويعيش فيها الانسان دور بارز وحاسم في تكوين وتلوين الأبنية العلوية التي تحكم سلوك هذا الانسان، بما فيها «الطباع والأخلاق والعادات». . وهو يعتبر هذه الحقيقة «قانوناً عاماً في جميع جهات الأرض» لا يتخلف أبداً. . فيقول: «. . . وهذا **قانون عام في جميع جهات الأرض**، فكل سكان بقعة من مبدأ اتخاذهم لها مقراً ووطناً قد تخيلوا حتى اهتدوا إلى ما يوافق أحوالهم بالنسبة لهذه البقعة، ومن ثم **كانت الطباع والأخلاق والعادات متولدة من طبيعة قطر الجهة**. وأما ما زاد فطارىء من اختلاط سكان كل بقعة بمن جاورها. . »(١)

وعلي مبارك الذي عرض في كتاباته التاريخية لآثار مصر القديمة العظيمة المعجزة، قد اتخذ في تفسيره لأسباب إقامتها وإمكانيات بناتها ومؤهلات تشييدهم لها الموقف العلمي الـذي يجتذب الاعجاب والاكبار. . . فقبله نسب كثير من المؤرخين إقامة هذه الآثار الخالدة إلى الجن والشياطين عندما رأوها فائقة ومتفوقة عن قدرات العلم والعمارة في العصور التي كتبوا فيها! . . . وبعده، وحتى عصرنا الراهن، ينسبها كتاب إلى قوم قد هبطوا من السماء، فأقاموها، ثم عادوا ثانية إلى السماء! . . . أما علي مبارك فإنه يفسر ذلك الإعجاز العلمي والمعماري والحضاري الذي تجسده هذه الآثار تفسيراً علمياً وإنسانياً، يقبله العقل المستنير،

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٦٣٤.

ويزداد به إيماناً بقدرات العلم وإمكانيات الانسان . .

صحيح إن إقامة مثل هذه الآثار وتلك المنجزات، من مثل: تحويل مجرى نهر النيل على عهد الملك مينا [٣٢٠٠ ق. م] وبناء الأهرامات، وإقامة المسلات، والرقى في الطب والكيمياء والتحنيط. . الخ . . الخ . . الخ . . يحتاج إلى عصور متطاولة يشق فيها الانسان طريق التطور العلمي وئيداً وطبيعياً حتى يصل إلى هذا المستوى العملاق. . . وصحيح أيضاً أن المدة الزمنية التي تفصل حادث الطوفان ـ طوفان نوح ـ عن تأسيس الملك ميناً لدولته المصرية الموحدة ـ وفق تقدير علماء الأفرنج ـ هي سبعمائة عام، وهي «لا تكفي في تحصيل تلك المعارف». . . وصحيح أن «هذا التمدن لا يمكن أن يوجد دفعة واحدة. . . ». . . فما التفسير إذا، والمصريون منذ عهد مينا قد كانوا «على معلومات تامه، ولهم دراية بمعارف شتى وعلوم كثيرة. . كانوا على غاية التمدن والتقدم». . حولوا النيل، وأدخلوا ماءه في وادي الفيوم، بأعمال هندسية راقية. . وبنوا المدن المحصنة، والمعابد الخالدة، وسنوا القوانين العادلة. . ومثل هذه الانجازات الحضارية لا بد لها «من تمام الوقوف على قواعد من علوم شتى، مثل علم جر الأثقال والعمارة وحركات المياه، والطب والهيئة وسير الكواكب وأحوال السماء. وكل هذه العلوم قبل وصولها هذا الحد تفيد بالضرورة التوغل في العلوم الأساسية لها. . . »

ما التفسير إذن؟ . .

إن علي مبارك، لم يلجأ ألى نسبة ذلك التقدم إلى الجن والشياطين، كما فعل كثير من المؤرخين القدماء ـ ولا إلى الذين هبطوا من السماء، كما يفعل مروجو الخرافة المحدثون.. وإنما اختار التفسير الإنساني والعلمي لتلك الظاهرة الباحثة عن تفسير. فقال إن الإنسانية التي سبقت حادث الطوفان كانت قد بلغت في الحضارة شوطاً كبيراً وشأوا بعيداً، وإن في تكذيب الناس، قبل الطوفان، لكثير من الرسل والأنبياء الذين دعوهم إلى دين الله، لدليل على أن هؤلاء المكذبين قد بلغوا من العلم والتقدم ما جعلهم على درجة من الاعتزاز والغرور الذي جعلهم يحاجون المرسلين ويسفهون دعوات الأنبياء!.. بل إن معابد الصابئة ذات الأسرار، والتي وجدت منذ ذلك التاريخ، وكذلك صحائفهم وما ضمت من وصايا وتعاليم لشواهد على بلوغ العلم والمعرفة شأوا كبيراً.. ثم إن قصة الطوفان توحى بأن نوحا وقومه قد «صنعوا» الوسائل والسبل التي تغلبوا بها على مخاطره المدمرة وبأسه الشديد، وفي ذلك دليل على بلوغ إنسانية ما قبل الطوفان، فى العلم والمعرفة، شأوا بعيداً.. وإذا كان نوح وقومه قد أنقذوا من الطوفان من كل زوجين اثنين، وحفظوا من الغرق بذور كل النباتات، وأجناس كل الطيور والهوام والحشرات وسائر الأحياء، أفلا يكون المنطق مع القول بأنهم قد حفظوا ثمرات العلوم والمعارف وأسرار التقدم الذي بلغته الإنسانية في ذلك الحين؟!.. وهل يكون الاحتفاظ بجنس النمل، مثلاً، أعز على نوح وقومه من الاحتفاظ بثمار المعرفة وأسرار الحرف والصناعات

اللازمة لحياة الإنسان وراحته وتقدمه؟!..

إذن لا بد أن تكون الحضارة، بمكوناتها وعلومها، قد نجت مع نوح وقومه من دمار الطوفان.. ولا بد أن تكون هذه العلوم قد عادت إلى النمو والازدهار بعد الاستقرار والانتشار الذي أعقب الطوفان، ولا بد أن تكون مصر القديمة بحضارتها وتقدمها المعجز إحدى ثمرات تلك العلوم التي جاءت إليها من حضارة ما قبل الطوفان عبر الذين نجوا من الغرق فيه..

أما لماذا توقفت هذه الحضارة، وبادت تلك العلوم، حتى تحولت منجزاتها وآثارها إلى أسرار وألغاز، فإن السبب الذي يختاره علي مبارك، هو سبب علمي واجتماعي وإنساني كذلك.. فليس السبب هو عودة أصحابها وبناتها وملاك أسرارها إلى السماء!.. وإنما هو بقاء تلك العلوم والمعارف، بأسرارها ونصوصها، احتكاراً لطبقة رجال الدين، وبعد الشعب عن هذه الأسرار، فلما وقعت مصر بيد الغزاة استبدوا بالجانب المادي منها، ولكن استبدادهم لم يصل إلى عقول رجال الدين وقلوبهم، فضن رجال الدين على الغزاة بأسرار العلم ومقومات الحضارة، وكانوا من قبل قد ضنوا بها على الشعب، فبادت معهم وانتهت بانحلال تلك الطبقة التي جنت على تطور المعرفة والحضارة باحتكارها لتلك الأسرار[1]!..

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٢٢٥ - ٢٣٤.

وعندما يعرض علي مبارك، المؤرخ، بالتفسير لظاهرة النمو والأزدهار الذي تحقق لبقايا هذه العلوم والمعارف على أرض مصر القديمة بالذات، وللأسباب التي جعلت هذه الأرض مهداً لنشأة علوم كثيرة والوصول إلى تطبيقات مدهشة منذ زمن سحيق، يعود إلى القانون الذي نبهنا إلى عموميته: **انبعاث التقدم العلمي والحضاري من احتياجات الإنسان وصلاح البيئة التي يقطنها لذلك**... فمصر بلد زراعي، لأنه قد تكون ونشأ من النيل وفي ارتباط به، ومن ثم كانت الزراعة والفلاحة هي الباعث على التقدم والاختراع والفكر والتفكير، وهي الوعاء الذي رعى وطور كل فروع هذا الميدان. «.. **فالفلاحة هي التي حولتهم عن صفات البهيمية، وخولتهم جميع الخيرات الحاصلة منها ومن غيرها بالتجارة والملاحة وسائر أسباب الرزق ووسائل الاتحاد، فكأنها الداعي الذي دعا إلى التمدن والوصول إلى غامض العلوم، فإنها دعت، مثلاً، إلى معرفة النجوم ومواقعها لمعرفة الفصول وأوقات الأعمال الفلاحية، ولم يصلوا بالضرورة إلى هذه الغاية إلا بعد صرف أزمان في الوقوف على مقدمات هذه الغاية، فتعلموا علم الحساب والهندسة والمساحة وجر الأثقال، وصنائع شتى اقتضتها ضروريات الفلاحة، ونظروا في الجواهر العلوية والسلفية والحركات الفلكية والنجومية والكيمياء وعلم الطب والطلاسم ونحوها، فدعاهم جميع هذه المعارف إلى استقامة الفكر والنظر في أمر هذا العالم وتغيراته، ثم في أمر القوى الناشىء عنها جميع هذه التغيرات، حتى وصلوا إلى**

الانفراد بتمجيد الخالق لجميع هذه المخلوقات، المدبر لحركات قواهم الظاهرة والباطنة، فقاموا له بحق العبودية وقدسوه، فهم أول من ابتنى الهياكل، ومجد الله فيها، وأقر له بالوحدانية.

ومن هذه المعلومات نتج الانتظام بين طبقات الناس من القوانين والروابط.... وبعد أن كان الإنسان هائماً.. كالبهيمة العجماء الوحشية... أنقذته الفلاحة من كل ذلك... ثم بقوة الفكر وفضيلة العقل والتماس المساعدة للتعاون في الزراعة استألف الحيوانات.. وهكذا حتى صار سلطان الخليقة كلها!..»[1].

فضرورات الإنسان المصري القديم، واعتماده في سد حاجات هذه الضرورات على الفلاحة، هو الذي أوصله وقاده إلى اكتشاف كل تلك المعارف والعلوم وتنميتها، بل وهو الذي قاده إلى اكتشاف القوة الإلهية الفاعلة في هذا الكون، فعرفها وعرف الدين وتدين، وسلك سبيل التوحيد.. فالدين هو الآخر معرفة، وصل إليها الإنسان عبر العلوم والمعارف التي أنشأها وحكم تطورها قانون: انبعاث المعارف ونموها من ضرورة استجابة الإنسان لما لذاته ومجتمعه من احتياجات.

لكن هذا التصور الذي يقدمه لنا علي مبارك عن نشأة العلوم والمعارف والأديان، وانبعاثها من البيئة وفق ضرورات الإنسان، يجب أن لا يدعنا نتوهم أن الرجل قد وقف مع أولئك الذين

---

(١) [نخبة الفكر] المقدمة. [انظرها في المجلد الثالث من أعماله الكاملة].

يتصورون، على نحو ساذج، أن العامل المادي هو المصدر الوحيد للفكر والمعرفة لدى الإنسان. . لأن ذلك إذا صح في البدء، وقبل أن تقوم لدى الإنسان وفي مجتمعاته أبنية فكرية وعقائدية ذات تأثير وذات استقلال نسبي، فإنه غير صحيح بعد قيام مثل تلك الأبنية الفكرية ذات التأثير، لأن هذا الفكر، ولا شك، يعود فيلعب دوراً مؤثراً وفعّالاً في الحياة، بل وفي إعادة التشكيل والصياغة، إن بالسلب أو بالإيجاب، إن بالتطوير أو بالإعاقة، للحياة المادية نفسها. . وعلى سبيل المثال، فإن «الدين» و«السياسة»، وهما فكر، يعودان، بعد قيام بنيانهما الفكري والعقائدي، فيصبحان من المصادر الأساسية للتأثير في الإنسان، وتشكيل وجدانه، وتحديد اتجاهات سلوكه في الحياة.

وعلي مبارك يعرض لهذه الحقيقة الهامة عندما يتحدث عن المؤثرات الأساسية التي تشكل إدراكات الإنسان وإلهاماته وأخلاقياته وعاداته، بعد أن ولد كالصفحة البيضاء القابلة لما يخط فيها من تأثيرات. . فعنده أن «كل ما يكون للإنسان من إدراكات وإلهامات وأخلاق وعادات وأعمال إنما هي أمور مكتسبة واردة عليه من قوة خارجة عنه وانفعالات تنطبع في ذاته من المؤثرات المكتنفة به وإذا استقرأنا أحوال الإنسان وأمعنا النظر في أنواع عوارضه وجدنا المسلطات عليه في إدراكه وسائر أحواله تنحصر في أمور ثلاثة:

الأول : طبيعة البقعة التي نشأ فيها، وكيفية تعيشه في الأرض التي تولد منها.

والثاني : الدين الذي يسوقه إلى سعادته وكماله بحسب ذاته . .

والثالث : الحكومة السياسية التي تسوسه، وتوقفه عند حده في تصرفاته . . . »[1].

فالمؤثر الأول في تشكيل إدراكات الإنسان وإلهاماته وأخلاقه وعاداته هو البيئة، ونمط العيش والتكسب في المجتمع . . ثم الدين . . ثم المؤسسة السياسية الحاكمة . . . وعلى الاتساق والتعاون بين المؤثر الديني والمؤثر السياسي يتوقف الصلاح والإصلاح لكثير من أحوال الإنسان!

* * *

وعند علي مبارك، المؤرخ، نلمح مكاناً علياً لمعيار **«الاستقلال الوطني»** بين المعايير التي حكمت الأزدهار أو التخلف للبلاد . . وهو في هذا الباب يتقدم قلة من المؤرخين اهتمت اهتماماً شديداً بهذا العامل، وأبصرت دوره في صنع أحداث التاريخ التي مرت بالمجتمعات . .

فالعدل عنده شرط للعمارة والتقدم . . ويستحيل أن تقوم العمارة ويثمر التقدم مع فقد الاستقلال! . . ولقد تميز علي مبارك بالجرأة عندما طبق هذا القانون والمعيار، فأبصر سلبيات الفتح

---

(١) المصدر السابق. الباب الثالث في أهالي القطر. فصل في أصولهم وحقيقة القول في أخلاقهم.

العربي الإسلامي على عمران مصر. . ولكنه كان بريئاً كل البراءة من أية شائبة للتعصب ضد العروبة أو الإسلام، لأنه قد مجد عصور استقلال مصر الإسلامية، عندما أعان فيها الاستقلال، مع العدل النسبي، على ازدهار العمران. .

وعلي مبارك في موقفه هذا لا ينطلق من مقولات فكرية مسبقة، وإنما ـ وهو المهندس ـ ينطلق من دراسته لثروة مصر وعمرانها، وصلاح زراعتها ومصادر غلتها، ويتخذ خراجها ودخل حكومتها مؤشراً في هذا الميدان. .

فقبل أن تنكب مصر بغزوة الرعاة، واحتلال الفرس، في العصر الفرعوني، كان «من قانون ملوكها: أن لا يؤخذ شيء منها إلا بعد عمارتها، ولا يؤخذ خراجها إلا من غلتها، وتوفى لأهلها الشروط، وتدر الأرزاق على العمال لئلا يرتشوا»[1].

وكانت حكومة مصر الفرعونية المستقلة تجبي خراجها ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ [مائة مليون دينار = ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه إنكليزي، تقريباً]. . فلما دخلها الرعاة. . ثم بعد فترة من الاستقلال احتلها الفرس «تلاشت قوانينها، واختل نظامها، وكثرت فيها الفتن، فصارت تتقلب بين عسر ويسر. . .»

ففي زمن الرعاة نقص خراجها إلى ٩٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار. . ثم إلى ٧٧,٠٠٠,٠٠٠ مليوناً. . . ثم إلى ٢٤,٠٠٠,٠٠٠

(١) المصدر السابق. الباب الأول. فصل فيما يتعلق بالنيل وفروعه.

مليوناً وعندما استعادت استقلالها في بداية عهد البطالسة ـ وخاصة تحت حكم بطليموس لاغوس وابنه ـ تقدمت البلاد، وترك حكامها للشعب عوائده القومية وشرائعه الدينية. . . ثم عادت لتفقد استقلالها بتدخل الرومان في شئونها، حتى أصبحت ولاية تابعة لأمبراطوريتهم، ففسدت عقائد أهلها حتى غدت «شعوذة»، وانحط إيرادها حتى وصل إلى ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار فقط!. . أي خمس ما كان عليه في عهد استقلالها القديم!. .

«. . . ولما ظهر نور الإسلام. . . استولى المسلمون على مصر في سنة اثنتين وأربعين وستمائة ميلادية، **وصارت ولاية يحكمها عامل من طرف خليفة المسلمين**، فلم ينقلها هذا التقلب عن أحوالها وأهوالها، بل سار فيها عمال المسلمين على سير عمال الرومانيين من غير أن يراعوا قواعد الشريعة الغراء الراجعة إلى العدل والانصاف والرفق بالرعية، بل تفنن كل عامل فيما يحدثه من البدع، ومن قصر مدة العامل أهملت التدابير الداعية إلى نمو الأرزاق وعمار البلاد، واستقل كل عامل بمنافع نفسه وحاشيته. . . وبقي هذا السير مدة عمال بني أمية. . . . ومدة عمال العباسيين. . . »

ووضحت من جديد آثار المعادلة وفعل القانون: **العدل أساس العمارة. . ولا عمارة بلا استقلال!. . والإيراد هو الدليل!. .**

فعمرو بن العاص [٢٠ ـ ٢٥ هـ ٦٤١ ـ ٦٤٥ م] جبى خراج مصر٠٠٠,٠٠٠,١٢ دينار ـ وفي رأي آخر ٠٠٠,٠٠٠,١٦ دينار ـ

وعبد الله بن أبي سرح [٢٥ ـ ٣٥ هـ ٦٤٥ ـ ٦٥٥ م] جبى خراجها ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار.

وهشام بن عبد الملك [١٠٥ ـ ١٢٥ هـ ٧٢٣ ـ ٧٤٣ م] جبى خراجها ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار.

وفي نهاية العصر العباسي انحط الخراج إلى ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار.

فلما استقلت على يد أحمد بن طولون [٢٥٤ ـ ٢٧٠ هـ ٨٦٨ ـ ٨٨٤ م] زاد خراجها من ٠,٨٠٠,٠٠٠ دينار إلى ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار.

فلما شابت التبعية هذا الاستقلال عاد خراجها إلى الهبوط فوصل في العهد الأخشيدي [٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ ٩٣٤ ـ ٩٦٨ م] إلى ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار.

فلما استقلت تحت الحكم الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ ازدهرت، ووصل خراجها إلى ٥,٠٠٠,٠٠٠ دينار.

وحتى العصر المملوكي.. فإنه رغم مظالمه وتجاوزات حكامه، إلا أن استقلال مصر في خلاله قد ضمن لها قدراً من العمارة واليسر افتقدتها تماماً في ظل أبشع العهود التي شهدتها.. عهد التبعية للأتراك العثمانيين!.. حتى لقد بلغ إيرادها سنة استيلاء الفرنسيين عليها [١٧٩٨ م ١٢١٣ هـ] مليوناً ومائة وتسعة وعشرين ألف جنيه، فقط!

هكذا رفع علي مبارك عامل «الاستقلال الوطني» مكاناً علياً بين عوامل التحضر والازدهار في التاريخ العمراني للبلاد.. وهكذا مجد الاستقلال، وسار في هذا الطريق حتى «رثى» مصر التابعة، في جرأة، فقال: «... ومن يمعن النظر في تاريخ الإثني عشر قرناً الإسلامية التي تقلبت فيها الديار المصرية لا يرى إلا اضطرابات متنوعة كانت تتغير في صور مختلفة، وتتشكل بأشكال متفرقة، وكل اضطراب منها أحدث تأخيراً مخصوصاً، وهكذا ازداد التأخير إلى أن كان عاقبة ذلك محو الآثار القديمة وضياع ما كان لهذه البلاد من الثروة والذكر الحسن. وبعد أن كانت مصر أم البلاد ومنبع خيراتها وبركتها أصبحت متردية بجلابيب الجهل، يحيط بأهلها الهم والفقر من كل جانب، ففارقها أغلب سكانها، وبارت أكثر أراضيها، وتجردت من عزها وفخرها، وأحاط بمن بقي من سكانها أنواع المحن والرزايا...»[1].

واستمر حال مصر هكذا حتى استقلت وأخذت تبني دولتها الحديثة ومجتمعها الجديد، تحت حكم محمد علي، في العصر الحديث..

ونحن يجب ألا نخلط بين هذا التقدير الكبير والعالي من علي مبارك لاستقلال مصر الوطني، وعلاقته بعمرانها وتقدمها ورخاء أهلها، وبين ما نسميه اليوم، في أدبنا القومي العربي،

---

(١) المصدر السابق. المقدمة. و[الخطط] جـ ١ ص ٥٥، ٥٦ من الطبعة الأولى [راجعها في المجلد الثالث من أعماله الكاملة].

«بالإقليمية»! . . ذلك أن فترات استقلال مصر، التي مجدها علي مبارك، لم تقبع فيها مصر وحكامها داخل حدودها الإقليمية، بل كانت، دائماً وأبداً، هي فترات التضامن أو الاتحاد أو الوحدة بين مصر وبين المشرق العربي، وبرقة - في المغرب - أيضاً. . ولكنها كانت - وذلك هو المهم - هي الفترات التي أتيحت لمصر فيها أن تمارس دورها الطبيعي في المحيط العربي، دور القلب والقاعدة، فكان استقلالها ازدهاراً لها، وخيراً للعرب، وتوحيداً لها مع ما جاورها من الأقاليم. . . فهو الاستقلال الذي يعطي القلب العربي - مصر - العافية التي تعينه على ضخ دماء التضامن والوحدة إلى مختلف أعضاء الجسم القومي. . وليس إقليمية أو انعزالاً بحال من الأحوال! . .

* * *

ولقد كان طبيعياً مع المنهج المستنير الذي التزمه علي مبارك، المؤرخ، أن يرفض في آثاره التاريخية الكثير من الخرافات والمقولات التي شاعت على ألسنة العامة، دون أن يكون لها سند قوي أو حقيقي من التاريخ الصحيح. . ولقد كانت مصر، ولا تزال، مسرحاً لكثير من هذه المقولات، التي ربما نشأ بعضها وعاش وانتشر لأسباب سياسية تعلقت بالصراعات والمنافسات بين الأسر العربية المسلمة التي اقتتلت على الخلافة، أو بين أقاليم الأمبراطورية العربية الإسلامية. .

فمصر الشعب، منذ عهد الخلافة الراشدة، أسهمت في الثورة

ضد عثمان بن عفان . . وهو الخليفة الراشد، الأموي ـ ثم وقفت مع علي بن أبي طالب في صراعه ضد معاوية بن أبي سفيان، لأن العدل كان مع علي أكثر مما كان مع معاوية، وعلي كان، كذلك، مع العدالة، أكثر مما كان ابن أبي سفيان! . . . فلما تطورت الأحداث إلى أن أصبحت الخلافة الشورية ملكاً أموياً عضوداً، والعدل النسبي الراشد مظالم أموية ذهبت مضرباً للأمثال، زادت الميول العلوية لدى المصريين، فشاركوا في العديد من الهبات والانتفاضات ضد ولاة بني أمية الذين أرسلت بهم دمشق لحكم البلاد . . وعلى المستوى الشعبي، وفي وجدان الأمة ظلت مصر علوية حتى وهي ترفض التمذهب بالمذهب الشيعي . . فهي مع العلويين، لأنها مع العدل والمظلوم ضد الجور والظالمين، ولكنها لم ترَ في المذهبية الشيعية أمراً لازماً وملازماً لحب علي وآل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام . . وليس بالغريب أن تجد أسماء: «علي» و«حسن» و«حسين» شائعة شيوعاً كبيراً في أسماء المصريين، على حين لا تجد واحداً يسمى ابنه «معاوية» أو «الحكم» أو «مروان» . . !! . .

ولقد كان من المظاهر التي اتخذتها مصر، وشاعت بين أهلها، تعبيراً عن ميولها لآل البيت، احتضانها، شعبياً وفولكلورياً وأسطورياً لدفن آل البيت في ثراها! . . لم تستطع أن تحتضنهم حكاماً فقررت، وجدانياً وشعبياً «وفولكلورياً»، أن تضمهم وتحتضنهم في ثراها الطيب أمواتاً، ومضت إلى ذلك متجاوزة حقائق التاريخ؟! . .

فشاع في مصر أن الإمام زين العابدين، علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب [٣٨ - ٩٤ هـ ٦٥٨ - ٧١٢ م] مدفون بها، وأقام الشعب له مشهداً يزار، وتستلهم منه البركات..

وشاع فيها أن زينب بنت علي بن أبي طالب [٦٣ هـ - ٦٨٢ م] مدفونة بها، وغدا لها مشهد يزار وتقام عنده الموالد والمناسبات.

وكذلك الحال مع الحسين بن علي [٤ - ٦١ هـ ٦٢٥ - ٦٨٠ م] أو مع رأسه الشريف..

ثم اتسعت الدائرة، كي تزيد مصر من رصيدها، في هذا المقام، بميدان التنافس مع غيرها من أقاليم الإسلام.. فشاعت المعلومات التي تؤكد أن عديداً من الصحابة قد دفنوا بمصر، مثل: عبد الرحمن بن عوف، وسارية الجبل، ومعاذ بن جبل، وعقبة بن عامر الجهني، ومحمد بن أبي بكر وأولاده، وأحمد بن أبي بكر، وأسماء بنت أبي بكر، والزبير بن العوام، وعقبة بن حذافة السهمي، وابن حليمة السعدية... وغيرهم من التابعين الصالحين. وبنيت لكل هؤلاء الأضرحة والمشاهد، ونسجت من حول مجيئهم لمصر، وحياتهم بها، وموتهم ودفنهم فيها، الحكايات والأساطير..

لكن وقائع التاريخ وحقائقه تنكر كل هذه المقولات، أو تشكك في وقائعها..

وعلي مبارك، المؤرخ، يقف مع حقائق التاريخ، ويرفض، بل ويفند تلك المزاعم والأوهام..

فهو يرى في القول بدفن عبد الرحمن بن عوف بمصر «زعماً يزعمه الناس... وليس كذلك!..»[1].

وهو ينكر أن يكون سيدي سارية الجبل قد دفن بمصر، رغم أن ابن جبير قد ذكر مشهده في رحلته.. ويقول: «ولم نرَ في كتب التواريخ الصحيحة أن سيدنا سارية جاء إلى مصر، فضلاً عن أنه مات بها!..»[2].

وهو ينكر وجود جثمان زين العابدين بمصر.. ويصف ذلك الاعتقاد بأنه «وهم، فليس قبره بمصر، بل بالبقيع»[3] بالمدينة..

وهو ينكر وجود جثمان زينب بنت علي بمصر، ويقول: «.. إني لم أرَ في كتب التواريخ أن السيدة زينب بنت علي جاءت إلى مصر في الحياة أو بعد الممات!».

ويتتبع تلك المقولات الشائعة بالتشكيك والتفنيد[4].

وأكثر من هذا فإن علي مبارك وهو يحقق وينقد تلك المقولات والمرويات يقودنا إلى التيار الفكري الذي أشاع تلك المزاعم

---

(١) [الخطط] جـ ٥ ص ١٢٣ ـ من طبعة الأصل الأولى ـ عند الحديث عن [جامع المقياس].

(٢) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٤. عند الحديث عن [جامع سيدي سارية].

(٣) المصدر السابق. جـ ٥ ص ٦. عند الحديث عن [جامع ومشهد زين العابدين].

(٤) المصدر السابق. عند الحديث عن [الجامع الزينبى] و[جامع الكردى] و[جامع سيدي عقبة].

وألف حولها الكتب والأساطير. . ففي الرحلة التي كتبها المؤرخ «الثقة القدوة» أبو الحسين محمد بن جبير [٥٤٠ - ٦١٤ هـ ١١٤٥ - ١٢١٧ م] نجد أن زينب المدفونة بمصر هي: زينب بنت يحيى بن زيد بن الحسين بن علي. . . ولكن الصوفية، بدءاً من على الخواص وخاصة على يدي قطبهم الشعراني [٨٩٨ - ٩٧٣ هـ ١٤٩٣ - ١٥٦٥ م] يجعلونها زينب بنت علي، لا بنت يحيى بن زيد!. . يضع علي مبارك يدنا على مدخل اللبس والتلبيس الذي أدخل الصوفية به على التاريخ تلك المقولات. . ويلجأ إلى المؤرخين الثقاة من أمثال السخاوي، صاحب كتاب [المزارات]، والذي يقطع فيها بأن «**المنقول عن السلف أنه لم يمت أحد من أولاد الإمام علي، لصلبه، بمصر.** .». . . «وإنما يذكر ذلك - [أي الزعم والوهم] - في كتب بعض الصوفية وسير الصالحين!»[1].

* * *

ومن نفس المنطلق الرافض «للخرافة التاريخية» - إن جاز التعبير - يرفض علي مبارك البدع التي ارتبطت بالمشاهد والمزارات. . والتي أشاعها أرباب العمائم من المنتسبين إلى التصوف وأقطابه. . فعنده أن الطرق الصوفية، كما تتميز بالألوان والأعلام والأسماء. . فكذلك «كل طائفة من طوائفها تمتاز ببدعة عن غيرها، فهذه تأكل الثعابين أو تتطوق بها، أو توهم أنها

---

(١) المصدر السابق. عند الحديث عن [الجامع الزينبي].

تقرصها ولا تؤلمها، وهذه تأكل القزاز والنار والصبار، وأخرى تضرب نفسها بالسيوف والدبابيس، وكثير من شبان الطريقة الحبيبية يتجردون عن ثيابهم، وفي أشداقهم وصدورهم سلوك من معدن في طرفيها البلح الأحمر والأصفر والليمون والبرتقال. . . »[1].

وحول كل مزار ومشهد نسج العامة خرافة من الخرافات وبدعة من البدع. . . فعند ضريح الشيخ موسى يتم العلاج بالزار! . . والشيخ إبراهيم الفار يضمن البقاء للأطفال الذين يموتون في الصغر. . !

وعلي مبارك يستهجن تلك البدع وينكر تلك الخرافات، ويقول: «. . . **وظاهر أن جميع هذه البدع لم يرد بها سنة ولا شرع، ويأباها العقل والإنسانية. . . إنها اعتقاد فاسد من عقل كاسد، يوقع صاحبه في الضلال، ويؤديه إلى الإضلال. . . وهي فعل قبيح وليس بصحيح، وقد عمت به البلوى في عصرنا بهذا القطر المصري. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!** . . . ». . فإذا خطت الحكومة خطوة على الطريق المستنير، فأبطلت بعض تلك البدع، استبشر علي مبارك خيراً. . وأثنى على الذين استفتوا في أمرها «فأفتى العلماء بمنعها، فمنع

(١) المصدر السابق. جـ ٤ ص ١١٨ ـ عند الحديث عن [الطرق الصوفية في الموالد ومواكبها]

الحاكم منها، وأبطلت تلك البدعة، والحمد لله على ذلك!..»[1].

وعلى هذا الدرب يمضي علي مبارك، المؤرخ، فيرفض ما يمكن أن نسميه «الخرافة المعمارية».. من مثل الزعم بأن [جامع الغوري] به «طلسم» يمنع الذباب من دخوله[2]!.. والزعم بأن بالمحراب القديم للجامع الأزهر «صندوق موضوع على رف... به قطعة من سفينة نوح.. وقطعة من جلد بقرة بني إسرائيل.. وأن لذلك سراً عجيباً في عماريته..!»[3] أي عمارية الجامع الأزهر!

يرفض علي مبارك، المؤرخ، أو على الأقل يشكك في كل تلك الخرافات، وأمثالها..

* * *

إن ميدان إعجاب العقل المستنير بعلي مبارك، المؤرخ،

---

(1) المصدر السابق. جـ ٤ ص ١١٩ ـ عند الحديث عن [الطرق الصوفية في الموالد ومواكبها] وجـ ٢ ص ٧٥ عند الحديث عن [درب الشيخ موسى] بشارع قصر الشوك. وص ١١٣ عند الحديث عن [ضريح الشيخ ابراهيم الفار] بشارع درب الحصر.

(٢) المصدر السابق. جـ ٢ ص ٢٤ ـ عند الحديث عن [جامع الغوري] بشارع الغورية.

(٣) المصدر السابق. جـ ٤ ص ١٦ ـ عند الحديث عن [مقاصير ومحاريب الجامع الأزهر].

فسيح!.. ولعل من أبرز ما يستحق الرجل الإعجاب لأجله تعريته لكثير من مظاهر الظلم والقهر والعسف التي أنَّ من تحتها الشعب في العصور الوسطى والمظلمة، ثم جاء مؤرخو السلطة والسلاطين فحذفوا من تواريخهم وقائع الظلم ومعالم القهر والعسف، وأهالوا التراب على أنين الشعب، وسجلوا فقط بطولات الحكام واثارهم، بل وحولوا ثمرات الظلم إلى أمجاد وآيات تحضر، وفوق هذا وذاك ألبسوا المظالم ثياب الدين والتدين كي يستروا عوراتها البشعة عن أعين الأجيال!..

كلنا ندرك أن أهرامات مصر وآثارها الخالدة هي آيات مجد وعظمة وبراهين تقدم وتحضر للمصريين القدماء... ولكننا ندرك أن النظم السياسية والاجتماعية الجائرة قد سخرت عامة الشعب وجمهور الناس في تشييد تلك الآثار.. فنبتت الأزهار وسط الدِّمَن!.. وقامت الروائع من بين المجازر! وتحول أنين المظلومين وعرق المسخرين إلى شواهد خالدة على عظمة الإنسان، ظالماً كان أو مظلوماً ذلك الإنسان؟!..

ولا شك أن الإنسان الراقي والمتحضر، خصوصاً إذا كان عاشقاً للعدل، يتمنى أن تبنى الإنسانية أمجادها بالعدل، وترفع نصبها بأيدي أناس ترتفع منهم إلهامات... وهو يتمنى ذلك أكثر وأكثر إذا ما كانت هذه الآثار بيوتاً لله «العدل ـ العادل»..
ومساجد يذكر فيها اسمه، سبحانه، صباح مساء.. أما أن يبنى السلاطين والجبابرة المساجد بالسخرة والقهر والعسف، كما

بنيت، قديماً، الأهرامات.. وأما أن تكون الأرض والعقارات الموقوفة على الخيرات هي بعض سلبهم ونهبهم ومصادراتهم لأرزاق الناس، فتلك هي المفارقة الساخرة التي تدين الزيف وتعرى الظلم البشع من ثياب الدين التي اجتهد نفر من المؤرخين كي يستروا بها بشاعة عوراته...

وهذا هو «الكشف» الذي كشفه لنا علي مبارك، المؤرخ، عندما عرض لروائع العمارات الدينية - مساجد ومدارس وتكايا وخوانق - التي قامت بمصر على عهد المماليك!.. لقد كشف لنا عن حقيقة مصرية حزينة، تقول: **إن المصريين قد بنوا أروع مساجد عاصمتهم، التي يستمتع بها اليوم الزائرون والسائحون، بالسخرة والعسف والجور، لما بنى أسلافهم الإهرامات!..**

فمصر المملوكية، نقصت مساحة أرضها المزوعة، وهبط خراجها، وقل عدد سكانها.. ومع ذلك زادت مساجدها، ومساجدها الرائعة الباذخة، إلى حد يفوق التناسب والمناسب والتصورات!..

فقبل العصر المملوكي كانت جوامع العاصمة - القاهرة والفسطاط (مصر) - ثمانية جوامع، تقام فيها الجمعة - ولا يدخل فيها المساجد والزوايا غير الجامعة - أي أن العاصمة قد عاشت خمسمائة وأربعين عاماً، وفي نهاية تلك الحقبة كانت جوامعها ثمانية. أما العصر المملوكي - ٢٦٣ سنة - فقد وصل بعدد

الجوامع في العاصمة إلى مائة وثلاثين جامعاً! . . ففي ٥٤٠ عاماً بنيت ٨ جوامع. . وفي ٣٦٣ عاماً بني ١٢٢ جامعاً. . ! . . وصاحبت زيادة الجوامع، كما أشرنا، زيادة في الفقر، وقلة في السكان، وتراجع في العمران! . . يضع علي مبارك يدنا على هذه الحقيقة فيقول: «. . **ويظهر مما ورد في الخطط أن الجوامع والمدارس لم تكثر إلا في زمن السلاطين من الجراكسة. وإلى سنة ستين وخمسمائة من الهجرة [سنة ١١٦٤ م] كانت لا تقام الجمعة في القاهرة ومصر إلا في ثمانية جوامع. . . وفي زمن السلاطين من الجراكسة كثرت الرغبة في بناء الجوامع حتى بلغت في آخر مدتهم مائة وثلاثين جامعاً تقام فيها الجمعة!**»[1].

ولم يقف هذا النمو عند حدود الكم. . بل لقد انتقل المماليك بعمارة المسجد من دور البساطة التي تميز بها الإسلام، كدين لا يعرف لله بي عبادة خاصاً بها، بل يرى الأرض كلها مسجداً، وأينما تولوا فثم وجه الله. . . انتقلوا بالمسجد من حال البساطة إلى حيث جعلوا منه نموذجاً للعمارة المزخرفة الرائعة التي تجدد على أرض مصر الإسلامية ذكرى معابد قدماء المصريين. . . ولقد كان المماليك في عصر تغيرت فيه طرز الأبنية الخاصة والعامة عن ذي قبل، فسحبوا ذلك التغير إلى المساجد أيضاً. . وكما يقول علي مبارك عن مساجدهم، فإنهم: قد «**تغالوا في نظامها وزينتها،**

(١) المصدر السابق. جـ ١ ص ٨٧ ـ عند الحديث عن [فائدة: في إجمال ما سنفصله في خطط القاهرة وما يتعلق بها].

خصوصاً أيام الناصر [٨٠١ ـ ٨٠٨ هـ ١٣٩٨ ـ ١٤٠٥ م]؛ وأحدثوا المحاريب المطعمة بالصدف والعاج والأبنوس، والأعمدة المنطقة بالفضة، واللواوين الواسعة. وقد كان المؤذن سابقاً ينادي بالأذان على سطح المسجد، ثم بنيت له غرفة يؤذن فيها، ثم أخذوا في تحسينها حتى جاءت كهيئة مئذنة ابن طولون، سلمها محيط بها من خارج، ثم جعلت زمن الأكراد ـ [الأيوبيين] ـ كالهيئة التي بجامع الجولى والمدرسة المسعودية، التي هي الآن التكية المولوية، ويسميها الناس بالمبخرة، ثم كانت في زمن المماليك من أفخر المباني، على الهيئآت التي تراها في مسجد السلطان حسن وبرقوق. وكذلك اعتنوا ببناء المدارس والمدافن والخانقاه!»[1].

هكذا انتقل المماليك بعمارة المسجد إلى «كيف» جديد؛ حتى أصبح تحفة معمارية، لا علاقة لها ببساطة المسجد في الإسلام.. «محاريب مطعمة بالصدف والعاج والأبنوس، وأعمدة ممنطقة بالفضة.. ومآذن أصبحت من أفخر المباني..»!

أما نماذج الحكام والسلاطين الذين تطوروا بالمساجد، كما وكيفا، وأما الوسائل والأساليب التي سلكها هؤلاء الحكام والسلاطين لإقامة هذه المساجد فإن العلاقة مقطوعة بينها وبين العدل والرحمة والإسلام!...

---

(١) المصدر السابق. جـ ١ ص ٥٤ ـ عند الحديث عن [ولائم اتمام الدور]..

وعلي مبارك يقدم لنا في هذا الباب نماذج لحكام من المماليك تميزت حياتهم أساساً بميزتين اثنتين:

أولاهما : الظلم الشديد والعسف الذي ضربت به الأمثال....

وثانيتهما : بناء أروع المساجد وأعظمها!.. وتسخير الناس في بنائها دون أجور، ومصادرة الأملاك والأرزاق ووقفها على هذه المساجد ليصرف من ريعها المغتصب على قراءة القرآن والدعاء لهؤلاء المماليك من شيوخ، تحول هؤلاء المماليك بفضل قراءاتهم وأدعيتهم، مع الأيام، إلى «أولياء» ظن العامة أنهم، لكل ذلك، من أهل الله، فأقاموا لهم الموالد، وتوسلوا بهم إلى الله!..

إنها مأساة تاريخية.. وملهاة مصرية.. حدثنا عنها علي مبارك في ثنايا خططه... وقدم لنا من أبطالها نماذج مأساوية ومضحكة في ذات الوقت.. من أمثال:

● ذلك الأمير عبد الرحمن كتخدا [١١٩٠ هـ ١٧٧٦ م] الذي اشتهر بإقامة الأبنية والعمائر حتى لقد سمي في كتب التاريخ «**بصاحب العمائر**»، لا في مصر فحسب، بل وفي الشام وبلاد الروم!.. ولقد بنى هذا الأمير وجدد ثمانية عشر مسجداً جامعاً تقام فيها الجمعة والجماعة.. «وذلك غير الزوايا والمدارس والأسبلة والسقايات والمكاتب والحيضان والقناطر

والرباطات. .» ومن الجوامع والمشاهد التي جددها: الجامع الأزهر، والمشهد الحسيني والزينبي والنفيسي. . الخ. . .

لكن. . . ماذا كان خلق هـذا الأمير صـاحب العمائـر والخيرات؟! . .

إن [الخطط] تحدثنا عن دينه وتدينه وخلقه فتقول: **ولقد كان «ـ عفا الله عنه! ـ يقبل الرشا! . . ويتحايل على مصادرة بعض الأغنياء في أموالهم! . . واقتدى به في ذلك غيره حتى صارت سنة مقررة، وطريقة مسلوكة ليست مستنكرة؟! . . . »**[1].

● وذلك الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري [٨١٥ ـ ٨٢٤ هـ ١٤١٢ ـ ١٤٢١ م] الذي بنى هو الآخر الكثير من العمائر، من بينها «جامع المؤيد». . نجد [الخطط] تصفه لنا ذلك الوصف الجامع الذي يضع أمام بصرنا وبصيرتنا صورة الحاكم الظالم الذي يجتهد ليغلف ظلمه ويستر مظالمه بغلاف وستار من الدين. . فالملك المؤيد «كان شجاعاً مقداماً. . يحب أهل العلم ويجالسهم. . ويجل الشرع النبوي، ويذعن له! . . غير مائل إلى شيء من البدع. . له قيام في الليل إلى التهجد أحياناً. . »

ثم تكمل [الخطط] وصف صورة الملك، الذي يجل الشرع

---

(١) المصدر السابق. جـ ٥ ص ١١٧، ١١٨ ـ عند الحديث عن [جامع الشيخ مطهر].

النبوي ويذعن له، وينكر البدع، ويتهجد بالأسحار، فتقول: «... **لكنه كان بخيلاً مسيكاً ـ [ممسكاً] ـ، يشح حتى بالأكل!.. لجوجاً غضوباً حسوداً معياناً ـ [حاسداً] ـ!.. يتظاهر بأنواع المنكرات!.. فحاشاً سباباً!..» ثم تضيف: إنه كان كذلك «شديد المهابة، حافظاً لأصحابه!..»... وأخيراً تجمل آثار هذا الحاكم، الذي لم يكن بالنموذج الشاذ ولا الفريد في ذلك العصر، فتقول: «... وهو من أكبر أسباب خراب مصر والشام، لكثرة ما كان يثيره من الشرور والفتن... وكثرة المظالم ونهب البلاد، وتسليط أتباعه على الناس!..»**[1].

نفس نموذج الأزدواجية العجيبة: الشرور، والمظالم، والبخل، والحسد.. الخ.. الخ... كل ذلك في غلاف: مجالسة «العلماء»، وإجلال الشرع النبوي، والتهجد بالليل أحياناً!.

● وذلك الأمير جمال الدين أقوش الرومي السلاحدار الناصري، المعروف بنائب الكرك [المتوفى سنة ٧٠٧ هـ سنة ١٣٠٧ م].. إنه نموذج ثالث لتلك الأزدواجية التي طبعت المماليك وعصرهم.. فلقد كان الرجل ـ كما تقول [الخطط] ـ: «.. يتوجه إلى معبد في الجبل الأحمر، وينفرد فيه اليومين والثلاثة، ثم يرجع وذيله على كتفه؟!...» ومع هذا التعبد والاعتكاف في معبد الجبل الأحمر، فلقد «**كان عسوفاً جباراً**..

---

(١) المصدر السابق. جـ ٥ ص ١٢٩ ـ عند الحديث عن [جامع المؤيد]

مات عدة من الناس تحت الضرب قدامه!..» وأيضاً.. فلقد «كان كريماً إلى الغاية؟!»[1].

● وهذا الأمير جمال الدين الاستادار [٨١٢ هـ ١٤٠٩ م].. كان هو الآخر من أصحاب العمائر والخيرات.. ومن عمائره مدرسة عظيمة، نذكرها عندما نذكر دور العلم في تاريخ مصر.. وأوقف عليها أوقافاً جمة ذات عوائد غنية، ورتب منها المرتبات للشيوخ والصوفية ولطلبة العلم الذين يدرسون الحديث والتفسير والمذاهب الفقهية الأربعة... ولكن مدرسته هذه قد بناها بالظلم والنهب والسخرة والمصادرات، حتى ما بها من «شبابيك نحاس مكفت ـ [مطعم] ـ بالذهب والفضة، وأبواب مصفحة بالنحاس المكفت.. وحتى المصاحف وكتب الحديث التي جهزها بها.. قد انتزعها بعشر ثمنها!..» أما الأوقاف التي وقفها عليها، والآلات التي أدخلها بها، فتتحدث [الخطط] عن مصدرها قائلة: إنه قد «أكثر من وقف الدور عليها... إلا أنه أخذ جميع آلاتها وموقوفاتها من الناس غصباً. وأعمل فيها الصناع بأبخس أجرة!..»[2].

● وهذا الأمير جمال الدين محمود بن علي الاستادار [المتوفي سنة ٧٩٧ هـ سنة ١٣٩٤ م].. بنى هو الآخر مدرسة «كانت من أحسن مدارس مصر.. وكان كثير الصلاة والعبادة، مواظباً على

---

(١) المصدر السابق. جـ ٥ ص ١٣٢ ـ عند الحديث عن [جامع نائب الكرك].
(٢) المصدر السابق. جـ ٥ ص ١٢١ ـ عند الحديث عن [جامع المعلق].

قيام الليل..».. ومع ذلك فلقد كان ـ كما تقول [الخطط] ـ: «**شحيحاً مسيكاً شرها في الأموال!..**».. وليس ذلك فحسب، بل لقد أفسد على مصر عملتها، بالغش، حتى يكسب الفروق! «**فأكثر من ضرب الفلوس بديار مصر حتى فسد بكثرتها حال إقليم مصر!..**».. وعندما نكبه طاغية آخر، صادر ممتلكاته، فكان من بين ثروته التي صودرت مائة وأربعون قنطاراً من الذهب! فيها ١,٤٠٠,٠٠٠ دينار من الذهب.. وفيها ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم من الفضة.. وفيها من البضائع والغلال والعسل والكافور والطيب المصنع بالزعفران، والخمر المطيب ما قيمته أكثر من مليون درهم!.. ومع كل ذلك، فلقد كان كثير الصلاة والعبادة، مواظباً على قيام الليل.. وجاداً ـ كذلك ـ في خراب البلاد[1]!..

● والمسجد العظيم الذي بناه القاضي عبد القادر الأرزيكي.. جامع الإمام الشعراني.. والأوقاف التي وقفت على الشعراني وذريته.. لم تكن سوى ثروة أراد هذا القاضي ـ بعد اغتصابها ـ الإفلات بها ـ عن طريق الوقف ـ من الانتزاع إذا ما تنبه لها السلطان.. وبعبارة [الخطط]: فلقد وقف القاضي على مسجد الشعراني «حصص الطين المتفرقة التي كان يخشى عليها عند انتباه السلطنة للفحص عنها.. فكانت وقفاً على الشيخ وذريته... وكان ذلك قدراً حافلاً..!»[2].

---

(١) المصدر السابق. جـ ٥ ص ١١٠ ـ عند الحديث عن [جامع محمود الكردي].

(٢) المصدر السابق. جـ ٥ ص ٣٤ ـ عند الحديث عن [جامع الشعراني].

● وحتى في العصر الحديث.. فلقد ظلت هذه السنة السيئة، والمفارقات المأساوية قائمة... فالخديوي عباس الأول.. كان يلغي المدارس ويغلق دور العلم، ويعطل صحيفة [الوقائع المصرية]، ويبيع الكتب وأدوات التعليم في المزاد.. في نفس الوقت الذي يصدر فيه أوامره الكريمة للناس بإطلاق لحاهم[1] - وأن تزيد مدة الاحتفال بمولد السيد البدوي من ثمانية أيام إلى أحد عشر يوماً[2]؟!

والخديوي إسماعيل... يبني مسجداً عملاقاً ورائعاً «للص قاطع طريق» تحول - لا ندري كيف؟ - إلى ولي من أولياء الله! ويحكي علي مبارك هذه القصة، قصة «الشيخ» صالح أبي حديد، الذي بنى له الخديوي مسجداً جامعاً في «شارع خليل طينة» فيقول:

«كان في مبدأ أمره قاطع طريق، وكان له صاحبان ملازمان له، أحدهما الشيخ يوسف - المدفون في الشارع العام الموصل من الإسماعيلية إلى القصر العيني، تحت القبة المجاورة لقبة لاظ أوغلى - والثاني لم أقف على اسمه.

وإنما كان يجلس بحارة درب سعادة على مكسلة - [مصطبة] - بيت متخرب هناك، ويتزيا بزي الدراويش، وللناس فيه اعتقاد كبير، ويزعمون أنه من الأولياء فيتبركون به ويقبلون يده، وكان

---

(١) [تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث. ص ٢١.

(٢) المصدر السابق. المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٣٢، ٣٣.

يستمر جالساً إلى الليل، وكلما مر عليه رجل بمفرده قال: يا واحد! فيخرج، في الحال، من البيت جملة رجال فيحتاطون به ويدخلونه البيت قهراً عنه، فيقتلونه ويسلبون ما معه. واستمروا على ذلك الفعل القبيح زمناً طويلاً إلى أن استشعر الضابط بذلك، فأكمن لهم كميناً، وحرض رجلاً على المرور ليلاً من هناك، فلما مر نادى الشيخ كعادته، فخرج الرجال واحتاطت به، وإذا بالكمين قد خرج عليهم، ووضع اليد على الشيخ ومن كان معه بالبيت، وعاقبوهم عقاباً شديداً، فأقر الشيخ على صاحبيه: الشيخ يوسف والشيخ صالح هذا. وكان الشيخ يوسف يلوذ بلاظ أوغلى، فوقع عليه فعفا عنه، وأما الشيخ صاحب المكسلة فقتل بعد تعذيبه، وأما الشيخ صالح فاحتمى بامرأة مغنية مشهورة، فادعت أنه مجنون، ووضعت في رجليه قيداً من حديد، فأخذوه فوجدوه كما قالت. واعتقل لسانه عن الكلام لشدة خوفه، وبقي على ذلك مدة. ثم شاع عنه بين الناس أن له كرامات وإخباراً بالمغيبات!، وذلك بواسطة من اجتمع حوله من الأوباش ونحوهم، فقصده كثير من الناس، وأمراء وغيرهم!، واعتقدوا فيه، خصوصاً النساء، وازدحم بيته بالزوار، وهجمت عليه النذور والهدايا!. كل ذلك وهو لا يتكلم، وملقى على الفراش، وعليه حرام من صوف أبيض، وفي رجليه قيود الحديد، وحوله الخدم، وعند رأسه امرأة بيدها مروحة تروح بها عليه، وهو يحرك رأسه ويلعب شفتيه فيسمع له صوت ساذج خفي جداً يشبه صوت الأخرس وليس له مفهوم، فعند ذلك

تقول المرأة للحاضرين من الزائرين: الشيخ يقول: فلانة تتزوج! وفلانة تصطلح مع زوجها! وفلانة تحبل! والغائب يحضر! وزيد يترقى! وبكر ينعزل! إلى غير ذلك من الخرافات.. فكل من كان حاضراً يأخذ المعنى لنفسه من هذه الألفاظ. وبسبب ذلك صارت خدمته في ثروة كبيرة وفوائد كثيرة، واستمرت حالته هكذا إلى أن مات، **فبنى له الخديوي إسماعيل هذا الجامع ودفن فيه. وهو جامع عظيم، لم يبن لغيره من الأفاضل ذوي المعارف والعلوم الذين انتفع الكثير بعلومهم ومعارفهم. ولكن هذه عادة قديمة ألفها المصريون من قديم الزمان! وطالما نبه عليها كثير من المؤلفين في كتبهم.. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**[1]؟!»

هكذا عرض علي مبارك لتلك العادة القديمة التي ألفها المصريون.. والتي لم تفلح إزاءها تنبيهات كثير من المؤلفين في كتبهم..

ففي مصر القديمة سخر الملوك العامة في بناء الأهرامات..

وفي العصر المملوكي سخر السلاطين الناس لبناء المساجد.. فبنيت أكثر مساجد مصر وأعظمها، بالسخرة، كما بنيت الأهرامات.. وكان النهب والمصادرة والاغتصاب سبلاً متعارفاً

---

(١) [الخطط] جـ ٣ ص ٩٢، ٢٣ من طبعة الأصل الأولى - عند الحديث عن [ترجمة الشيخ صالح أبي حديد] [انظرها في المجلد الرابع من أعماله الكاملة].

عليها للانفاق على هذه المؤسسات.. بل لقد تحولت هذه الانفاقات بنفر من الأمراء الطغاة فجعلتهم، بمرور الزمن، وفي أذهان العامة، أولياء، تقام لهم الموالد، ويتبرك بهم الطائفون ويتخذونهم وسائل يتقربون بها إلى الله زلفى!..

ثم انحدرت هذه العادة المصرية القديمة من العصر الوسيط إلى العصر الحديث!..

كل ذلك.. يكشفه لنا، ويقدمه: علي مبارك، المؤرخ، بمنهجه المستنير في كتابة التاريخ..

العلم كالماء والزاد

[... فالخلق مفتقرة إلى العلم في سائر البلاد كافتقار الظمآن إلى الماء، والمسافر إلى الزاد.. لأنه لا دوام للملك إلا بحسن التدبير، ولا تدبير إلا بالعلم.. فالقوة الحيوانية. محتاجة للقوة الروحانية، والأولى مأمورة وتابعة، والثانية آمرة ومتبعة، فأمور الدنيا لا تنتظم إلا بالعلم...]

علي مبارك

لا نغالي إذا قلنا: إن علي مبارك هو أبو التعليم العصري في تجربة مصر الحديثة التي قامت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ـ فهو أبرز من تولى نظارة المعارف بمصر منذ إنشائها في عهد محمد علي سنة ١٨٣٧ م ـ وكان خامس من تولاها ـ حتى العقد الأخير من القرن الماضي. . بل لا نغالي إذا قلنا: إن أبرز من تولى هذا المنصب بمصر، على الإطلاق، منذ إنشائه وحتى الآن، هو علي مبارك. . ثم يأتي بعده الدكتور طه حسين [١٨٨٩ ـ ١٩٧٣ م]!. .

ويكفي أن نشير في بداية حديثنا عن علي مبارك، رجل التعليم، أن نظارة المعارف قد عرفت عصر ازدهارها الأكبر في عهد الخديوي إسماعيل منذ سنة ١٨٦٨ م. . وأن أول عهد علي مبارك بتولي منصبها كان في ١٥ إبريل سنة ٨٦٨ م. . وأن آخر عهده بها كان في ١٣ مايو سنة ١٨٩١ م. . وهو قد تولى نظارتها أربع مرات في تلك المدة، يبلغ مجموع مدتها سبع سنوات وثلاثة أشهر وخمسة أيام، يضاف إليها عام قضاه مستشاراً لهذه النظارة

تحت رئاسة الأمير حسين كامل باشا(١). .

فإذا شئنا بعض الأرقام الدالة على مكانة الرجل في هذا الميدان، بالمقارنة إلى سواه، فإننا نستطيع أن نضرب مثلاً: .

● في السنوات الثماني والعشرين [١٨٦٣ - ١٨٩١ م] أنشىء بمصر تسع مدارس أميرية ابتدائية للبنين. . نشأ منها على يد علي مبارك في سنوات نظارته السبع: خمس مدارس. . وأنشأ الآخرون في السنوات الواحد والعشرين أربع مدارس فقط!

● وفي السنوات الثلاث والعشرين [١٨٦٨ - ١٨٩١ م] أقامت مصر خمسة وعشرين مكتباً أهلياً ابتدائياً. . نشأ منها على يد علي مبارك في سنواته السبع ثمانية عشر مكتباً. . وأنشأ غيره في ستة عشر عاماً سبع مكاتب فقط!

● وفي أكثر من نصف قرن [١٨٦٣ - ١٩١٤ م] قام بمصر من مدارس الأوقاف الابتدائية للبنين تسع مدارس. . أقام منها

---

(١) تولى علي مبارك نظارة المعارف من ١٥ إبريل سنة ١٨٦٨ م حتى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ م (لمدة عامين وخمسة أشهر وستة أيام) ومن ١٣ مايو سنة ١٨٧١م حتى ٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٢م (لمدة عام وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً) ومن ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ م حتى ٨ إبريل سنة ١٨٧٩ م (لمدة سبعة أشهر واثني عشر يوماً) ومن ١١ يونيو سنة ١٨٨٨ م حتى ١٣ مايو سنة ١٨٩١ م (لمدة عامين واحد عشر شهراً وثلاثة أيام). . وتولى منصب المستشار للنظارة من ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٢ م حتى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٣ م. انظر: [التعليم في مصر] ص ١١١، ١٠٩.

علي مبارك في سنوات نظارته السبع سبع مدارس.. وأقام الآخرون في أربع وأربعين عاماً مدرستان فقط لا غير[1]!

وليس الأمر «أمركم» فقط. بل وأمر «الكيف» كذلك.. ففي الفترة التي سبقت تولى علي مبارك نظارة المعارف [١٥ إبريل سنة ١٨٦٨ م] كان طابع التعليم بمصر ـ باستثناء الأزهر ـ أما حربي، وإما عملي وثيق الصلة بالتعليم الحربي.. كانت المدارس الخصوصية ـ [دون العالية] ـ هي: «الطب البيطري».. و«البيادة».. و«السواري».. و«المحاسبة انقبطية».. و«الزراعة».. وكانت المدارس العالية هي: «الطوبجية».. و«أركان الحرب».. و«المهندسخانة».. ولا مدارس للعلوم الإنسانية في مختلف مراحل التعليم.. فلما تولى علي مبارك نظارة المعارف شهد التعليم العالي اهتماماً، وحقق نهضة، وبرزت إلى حيز الوجود مدارس العلوم الإنسانية، مثل: «مدرسة الإدارة» (الحقوق) سنة ١٨٦٨ م.. و«مدرسة اللسان الحبشي» سنة ١٨٦٨ م.. و«مدرسة اللسان المصري القديم» سنة ١٨٦٩ م.. و«فرقة الرسم بالمدارس الملكية».. و«فرقة النقاشين» سنة ١٨٦٩ م. و«دار العلوم» سنة ١٨٧٢ م.. و«الألسن» (قلم الترجمة) سنة ١٨٧٨ م..

ولم يكن اهتمام الرجل بالتعليم العالي على حساب المتوسط ـ [التجهيزي] ـ أو الابتدائي... كما لم تكن عنايته

---

[1] المصدر السابق. ص ٥ ـ ٨.

بمدارس العلوم الإنسانية تقلل من عنايته بمدارس العلوم العملية. . فهو الذي أقام: «مدرسة العمليات الجهادية». . و«مدرسة العمليات الملكية». . و«فرقة التلغراف العربي». . و«وجملة فرق متنوعة». . و«المساحة والمحاسبة» سنة ١٨٦٨ م. . و«فرقة عمليات المرور» سنة ١٨٧٠ م. . بل إننا نستطيع أن نقول: إنه أبو التعليم الصناعي. . فجميع المدارس الصناعية التي أنشئت بمصر منذ توليه نظارة المعارف سنة ١٨٦٨ م وحتى وفاته قد أنشئت في عهد نظارته للمعارف فقط. . ولم تقم بمصر مدرسة صناعية في عهد أحد سواه إلا في سنة ١٩٠٢ م، أي بعد وفاته بنحو عشر سنوات[١]!

فنحن إذن أمام مشهد في تطور الأمم على درب التربية والتعليم يذكرنا بمشهد التطور العربي على هذا الدرب. . . لقد بدأت الدولة العربية صلاتها مع الحضارات الأخرى بعلوم الصنعة والحرف والعمليات. . وظل ذلك حالها حتى نضج العقل العربي، فازداد رسوخ قدمه في أرض الحضارة، وكانت علامة ذلك اهتمامه بالإنسانيات والعلوم العالية، إلى جانب الاهتمام بعلوم الصنعة والتطبيقات. .

فعلي مبارك، في تطور التعليم المصري الحديث، هو الشاهد على هذا التطور، وهو صانع هذا المشهد على درب تطورنا في هذا الميدان.

---

(١) المصدر السابق ٧، ٢٠، ١، ٤. و[تقويم النيل] المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٧٩٢.

وعلي مبارك هو الذي وجه اهتمام الدولة إلى التعليم في الريف، بعد أن كانت العاصمة وبعض المدن الكبرى فقط هي محور الاهتمام.. فهو الذي حول المكاتب الأهلية بالقرى والريف ـ وكان عددها ٥,٠٠٠ مكتب ـ، مرة أخرى، إلى مدارس ابتدائية نظامية، وهيأ لها سبل أداء رسالتها، مادياً وأدبياً، وتوسع في عددها بالمدن الإقليمية والبلاد.. وأنشأ للمكاتب الأهلية إدارة خاصة بها في ديوان المدارس سنة ١٨٧١ م.. وأجرى إحصاء للمتعلمين يومئذٍ فوجد نسبتهم ٥ ٪.. وأنشأ تصميمات معمارية للمكاتب المراد إقامتها في القرى والبلاد.. ووظف سلطاته التي اجتمعت له بنظارته للأوقاف والمدارس في توجيه خيرات الأوقاف لميدان التعليم، وإحياء الأوقاف التي أوقفها أصحابها على المدارس والمكاتب، وتنظيم الاستفادة من عائداتها في أغراضها الأصلية من جديد.. بل لقد طلب علي مبارك من الخديوي أن يتبرع من أملاكه الخاصة لإنها من التعليم والتوسع فيه.. فصدرت أوامر الخديوي في ١٤ يونيو سنة ١٨٧١ م (٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ هـ) بتخصيص عشرة آلاف فدان من أطيان الميري، وعشرة آلاف فدان من أطيان الأواسي، وجميع الأملاك التي آلت إلى بيت المال، ومبلغ سبعة آلاف كيس ـ [٣٥,٠٠٠ جنيه] ـ للمكاتب الأهلية.. وفي أول أكتوبر من نفس العام (١٦ رجب سنة ١٢٨٨ هـ) أوقف الخديوي أكثر من ٤٠٠ فدان وعدداً من العقارات على مدرسة ومسجد الشيخ صالح، بخط الحنفي،

وجعل علي مبارك، ناظر الأوقاف، ناظراً عليها. . كما أوقف على إنشاء هذه المكاتب «جفلك» الوادي، ومساحته ٢٢,٠٠٠ فدان، وإيراده السنوي لا يقل عن ٥٠,٠٠٠ ليرة. ! وبدأ علي مبارك حملة قومية لجمع التبرعات من العمد والأعيان والموسرين لإنشاء المكاتب والمدارس، وأخذت [الوقائع المصرية] تفرد الصفحات لقوائم تبرعات المديريات. . بل لقد عقد الخديوي بمدينة طنطا مؤتمراً حول مائدة، في مناسبة مولد السيد البدوي، خطب فيه الخطباء، وانهالت تبرعات المواطنين، مسلمين، ومسيحيين ويهود لإنشاء المدارس والمكاتب[1]!. .

ولقد ظل اهتمام علي مبارك قائماً مستمراً، وسعيه دائباً لتنظيم هذه المكاتب وتحديثها، فطلب في مذكرة إيضاحية قدمها عن التعليم بمصر في ١٥ فبراير سنة ١٨٩٠ م (٢٤ جمادي الآخرة سنة ١٣٠٧ هـ) أن يقوم مكتب نظامي ابتدائي، من الدرجة الثالثة، في كل بلد لا يزيد تعداد سكانه عن ١,٠٠٠ نسمة، ومن الدرجة الثانية إذا زاد السكان عن ١,٠٠٠ نسمة إلى ٥,٠٠٠، ومن الدرجة الأولى للبلد الذي يتجاوز عدد سكانه الخمسة آلاف. . وطالب بخطة عشرية يقام فيها ٥٠٠ مكتب، بمعدل

(١) نماذج من قوائم هذه التبرعات تملأ صفحات ٧٣٣ - ٧٧٠ من [تقويم النيل] المجلد الثاني من الجزء الثالث. وانظر كذلك هامش ص ٧٨٠. وص ٩١٠، ٩١٣، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٦٠. وكذلك [الخطط] جـ ٣ ص ٦٦ من الطبعة الأولى.

خمسين مكتباً في كل عام. . وأن تنهض مجالس المديريات بتدبير المباني لهذه المؤسسات التعليمية، والانفاق عليها، وصيانتها. . وأن تنشأ بدار العلوم فرقة ابتدائية خاصة لتخريج معلمي هذه المكاتب. . وأقرت نظارة المعارف مشروعه هذا في ١٨ أغسطس سنة ١٨٩٠ م [١٣ محرم سنة ١٣٠٨ هـ][١]. .

لقد أعلن علي مبارك، منذ وقت مبكر، وفي فصول روايته [علم الدين] «أن احتياج أهل الريف للتعلم أكثر. . . فهم أحوج. . » إلى العلماء والمعلمين الذين طابت لهم حياة المدينة فهجروا مواطنهم الأصلية وقراهم التي جاءوا منها[٢]. . . وكانت عينه على هدف يريد بتحقيقه إزالة ما بين المدينة والريف من فروق، فلا يقول قائل: إن هذا قروي وذاك مدني[٣]! . .

وبعد عام واحد من نظارة علي مبارك للمدارس بدأ اهتمام الدولة بتعليم البنات ـ وليس في سنة ١٨٧٣ م كما يقول الذين يؤرخون لهذا الاهتمام بقيام المدرسة السنية ـ. ففي ٦ مايو سنة ١٨١٩ م (٢٤ محرم سنة ١٢٨٦ هـ) صدر أمر الخديوي إلى علي مبارك يقول: «قد اقتضت إرادتنا أنه بمعرفتكم يجري إنشاء محل مدرسة بجنينة تعليم البنات في أرض الميري المتخلفة من بعد

---

(١) [التعليم في مصر] ص ٦٨، ٦٩.

(٢) [الأعمال الكاملة لعلي مبارك] المجلد الأول. ص ٣٥٥.

(٣) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٥٥٠.

التنظيم في شارع باب اللوق. فيلزم المبادرة بإجراء مقتضى ذلك، كما هو مطلوبنا . . »[1].

وفي الشهر التالي، وكان الخديوي يوشك أن يسافر إلى أوربا، أصدر أمره ثانياً إلى علي مبارك، بما يفيد اللهفة على تحقيق هذا المشروع . . فكتب إليه في ٢ يونيو سنة ١٨٦٩ م (٢٢ صفر سنة ١٢٨٦ هـ) يقول: « . . نظراً لما هو مأمول من المحسنات والفوائد الظاهرة في تشكيل وتأسيس مدرسة لتعليم وتربية البنات في بلادنا. وحيث أني منذ مدة عاقد الأمل الكبير في تشكيل وتأسيس هذه المدرسة بسرعة، فبناءً عليه قد صدرت إليكم تنبيهات بخصوص انتخاب محل مناسب من الأراضي المشرفة على الشارع الجديد الجاري فتحه وإنشاؤه، مبتدئاً من آخر شارع عبد العزيز متجهاً نحو باب اللوق، وتشييد المدرسة المذكورة عليه. وحيث أنا أصدرنا تحريراتنا المؤكدة هذه المرة لحضرة صاحب السعادة لينان بك، ناظر الأشغال العمومية، بخصوص سرعة إتمام الشارع المذكور، فبناءً عليه يجب أن تبادروا بانتخاب وتحديد قطعة الأرض المناسبة لإقامة المدرسة المذكورة بدون إهمال، وببذل الهمة التامة في شروع بنائها وإكمالها إلى حين عودتي، إن شاء الله تعالى. ولذلك أصدرنا أمرنا هذا وأرسلناه إليكم. حاشية: يجب أن لا تنتظروا إلى انتهاء افتتاح الشارع المذكور، وحيث إن في استطاعتكم انتخاب

(١) [تقويم النيل] المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨١٢.

وتعيين محل مناسب بالرجوع إلى التصميم الموضوع لهذا الشارع، فبناءً عليه بادروا بانتخاب المحل اللازم من الآن، وبادروا ببناء المدرسة المذكورة. وإذا تحقق لزوم النقود فاطلبوها وتسلموها من مصلحة السكة الحديدية...»[1].

هكذا.. ومنذ ذلك التاريخ بدأ اهتمام الدولة بالتعليم العام للبنات، بعد أن كان تعليمهن قاصراً على الولادة منذ عهد محمل علي.. وبعد أن كان الانعطاف نحو هذا الميدان وقفاً على بعض المدارس الأهلية، أجنبية وقبطية، فقط.. ولقد ارتبط هذا الاهتمام بتولي علي مبارك لنظارة المعارف في ذلك التاريخ..

* * *

وكانت القاهرة قد افتقدت مكتبتها القومية العامة منذ أن بدد الأيوبيون مكتبة القاهرة الفاطمية [٥٧٢ هـ سنة ١١٧٦ م] وغدت الكتب موزعة على المساجد والمكاتب ودواوين الأوقاف، يتنظر عليها نظار جهلاء، يحجبونها عن الراغب، ويبذلونها بأبخس الأثمان للسياح والمستشرقين وهواة جمع المخطوطات الأوربيين!..

وكان الخديوي اسماعيل قد شرع، منذ توليه الخديوية، في السعي لإنشاء [الكتبخانة الخديوية].. ففي وثائق الدولة نجد الأمر العالي الصادر في ١٧ ديسمبر سنة ١٨٦٤ م [١٨ رجب سنة

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٢٠، ٨٢١.

١٢٨١ هـ] بشراء ٤,٢٥٣ كتاباً «صار الاستدلال عليها، لتداركها برسم الكتابخانة، المزمع استجدادها بمقتضى أمرنا السابق صدوره في شأنها» . . وكان شراء هذه الكتب ـ مطبوعة ومخطوطة ـ من التركات . . وذلك حتى تكون [الكتابخانة] «من جملة المآسر الخديوية»[١].

وكان علي مبارك قد قرأ عن مكتبة القاهرة القومية أيام الفاطميين، وما كان يقدم بها للقارىء من خدمات، وعن قسم النسخ بها الذي كاد أن يقوم بمهمة المطبعة في عصر لم يعرف الطباعة! . . وكان قد شاهد المكتبة القومية بباريس . . فشرع بعد توليه نظارة المعارف، في إنشا [كتبخانة المدارس] في «سراي درب الجماميز»، فتلاقت رغبته مع رغبة الخديوي، واتسع أفق المشروع من مكتبة خديوية، إلى مكتبة للمدارس، وصدر أمر الخديوي في ١٤ أغسطس سنة ١٨٦٩ م [٦ جمادي الأولى سنة ١٢٨٦ هـ] بصرف مبلغ ثلاثة آلاف جنيه إنجليزي إلى علي مبارك «لأجل الصرف على الكتبخانة اللازم إنشاؤها بالمدارس»[٢].

وبدأت هذه المكتبة في سنة ١٨٧٠ م بثلاثين ألف مجلد، أغلبها من الكتب التي جمعت من الأوقاف والميري . وفي ٢٣

---

(١) المصدر السابق. المدجلد الثاني من الجزء الثالث ص ٥٨٣، ٥٨٤.

(٢) المصدر السابق، المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٢٥.

مارس سنة ١٨٧٠ م [٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٨٦ هـ] استجاب الخديوي لطلب علي مبارك أن تكون هذه الدار مقراً لمحتويات «الكتبخانة القديمة وكتبخانتي الأشغال والمدارس وغيرهم. .» فتحولت إلى دار الكتب القومية منذ ذلك التاريخ[1]. .

وفي ٣٠ يونيو سنة ١٨٧٠ م [غرة جمادي الأولى سنة ١٢٨٧ هـ] انعقد بديوان المدارس اجتماع رأسه علي مبارك، وضع فيه قانون دار الكتب الأول، ولائحة نظامها ـ من ٨٣ مادة ـ التي تحدد نظام تزويدها بالكتب ـ من كل اللغات ـ وخدمة زوارها، وصيانة محتوياتها، ونسخ مخطوطاتها[2]. . الخ. . الخ. .

فاستعادت البلاد، بمشروع علي مبارك هذا، وجهاً مشرقاً من وجوهها، وبعثت صفحة زاهية من صفحات تاريخها الفكري العزيز. . وصف علي مبارك مشروعه هذا بأنه «من أنفع التجديدات التي حدثت في عهد الخديوي إسماعيل، وحصل به النفع العام للخاص والعام، واستحق الثناء من الأهلين والأغراب. .»[3].

لقد كان علي مبارك يؤمن بأن الكتاب، والمطالعة تضيف إلى

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٥٢.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٧٤.

(٣) [الخطط] جـ ٣ ص ١٤ ـ من الطبعة أصل الأول ـ عند الحديث عن [شارع قنطرة سنقر].

عمر القارىء عمراً جديداً «فهي تزيد البركة في العمر. . . كما أن قلة الإطلاع بمنزلة قصر العمر!

وفي الجهـل قبـل المـوت مـوت لأهـله
فـأجسـامهـم قبـل القبـور قبـورا!»[1]

ولذلك كانت الكتبخانة التي أنشأها منارة للمعرفة، ومؤسسة لإطالة عمر القراء، وتخليد الذكرى الأعلام الذين أبدعوا ما اشتملت عليه من مؤلفات. .

* * *

ولقد كانت العملية التعليمية عند علي مبارك عملية متكاملة، والمستوى الذي يـراه ضرورياً منها ـ كـالماء للظمـآن والزاد للمسـافر ـ ليس هـو مستوى «التعليم» فقط، بـل مستـوى «العلم»! . . ولذلك سعى إلى تكامل المؤسسات التي تقدم للإنسان ذلك القدر المتكامل والضروري من العلوم. . فاقترح على الخديوي في ١٥ يونيو سنة ١٨٧١ م (٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ هـ) إنشاء معمل علمي للأجهزة والأدوات العلميـة اللازمة للعلوم الطبيعية والحديثة، يلحق بمبنى دار الكتب (الكتبخانة)، وسماه (دار المعارف). . بحيث يتم فيها التدريس العام والشرح والتوضيح على الأجهزة العلمية «المقتضية لتوضيح نظريات وقواعد العلوم الطبيعية والمبـاني والآلات البخاريـة وغيرها» وذلك حتى تتم «المعاينة والتمرن على استعمال الآلات،

---

(١) [الأعمال الكاملة لعلي مبارك] المجلد الثاني ص ٣٥١.

واجتلاء المعقول في صورة المحسوس، فيتعاضد الفكر والنظر والعلم والعمل!» وأن يعين للتدريس فيها جمع «من أفاضل العلماء أهل الدراية في جميع الفنون، لإفادة من يستفيد، وشرح ما خفي من أسرار، تلك الآلات الموجودة لمريديه! . .» على أن يكون التدريس (بدار المعارف) هذه نظامياً، ومستهدفاً تخريج مدرس علوم للمدارس.. وأن يسمح بحضور تلك الدروس «لمن يحضر من الخارج والأهالي والأجانب، لمجرد الحضور في بعض الأوقات! . .» . . . فصدرت أوامر الخديوي بتحقيق هذا المشروع ـ مشروع (دار المعارف) ـ في ٢٨ يونيو سنة ١٨٧١ م (٩ ربيع الثاني سنة ١٢٨٨ هـ)، أي بعد اقتراحه باثني عشر يوماً[1]!

* * *

وفي ميدان التعليم كذلك أقام علي مبارك أخطر مؤسساته التعليمية. . أقام (مدرسة دار العلوم)، التي بدأت «منتدى» في يوليو سنة ١٨٧١ م (ربيع الثاني سنة ١٢٨٨ هـ) ثم أصبحت مدرسة عالية في ٣٠ يوليو سنة ١٨٧٢ م (٢٤ جمادي الأولى سنة ١٢٨٩ هـ). .

ولقد كانت لعلي مبارك فلسفة حكمت تفكيره وسعيه في هذا المشروع. . وذلك أن التعليم في مصر كان قد اتسم بالأزدواجية

---

(١) [تقويم النيل] المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٩٣٢. و[الخطط] من ترجمته الذاتية، عند الحديث عن بلدة «برنبال».

منذ النهضة التعليمية المدنية التي قادها محمد علي . . لقد حاول محمد علي أن يصلح الأزهر ويطوره كي يدخل مع مصر إلى العصر الحديث، ويترك فكر العصور الوسطى المتخلف والملىء بالخرافة والركاكة، ولكن شيوخ الأزهر المحافظين ـ وكانوا كثره ـ قد ناصبوه العداء لأسباب اجتماعية واقتصادية، فأحجم الرجل عن منازلتهم، اتقاء لغضب الجماهير الخاضعة لسلطانهم التقليدي، وأقام المدارس المدنية العصرية، فجاورت الأزهر، الذي ظل يعيش بكتبه الدراسية في عصر المماليك والعثمانيين، واكتفت الحكومة بانتخاب نفر من نجباء طلاب الأزهر، بين الحين والحين، كي يتحولوا إلى الدراسة في المدارس المدنية، ليتخرجوا منها ذوي ثقافة مدنية عصرية، لا علاقة لها بعلوم الدين وفنون التراث . . . هكذا نشأت الأزدواجية في التعليم . .

وظهرت، في تلك الحقبة، دعوات الرواد، من أمثال الطهطاوي، لإصلاح الأزهر وتطوير علومه، وإدخال العلوم الحديثة في برامجه التعليمية[1] . . ولكنها ظلت مجرد دعوات، ولم توضع في التطبيق . .

وكان علي مبارك مثقفاً مدنياً عصرياً، وفي ذات الوقت مدركاً لأهمية العلوم الدينية وضرورتها، ولدور علوم التراث وفنونه في تكوين الإنسان العصري المستنير . . صحيح إن أشرف العلوم عنده هي علوم الدين، ولكنها لا تحتكر الشرف وحدها من دون

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] جـ ١ ص ٥٣٣ ـ ٥٣٦ .

العلوم! . . فكل العلوم الضرورية شريفة، والقائمون بها مثلهم كمثل «القائمين على الثغور والمرابطين والغزاة المجاهدين في سبيل الله، فمنهم المقاتل، ومنهم المدد، ومنهم الذي يجلب لهم المؤنة، والذي يسقيهم الماء، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدها، ولا ينفك أحد منهم عن أجر، إذا كانت نيته حسنة، وكذلك العلماء!»[1].

وهو ينعي على علماء الإسلام، في عصره، إهمال العلوم الحديثة، ويرجع إلى ذلك تخلف بلاد المسلمين. . «فلقد فرط علماء المسلمين، في هذه الأزمان، في فنون شتى حتى جهلوها، وأتقنها غيرهم، كفن التاريخ والرياضيات ونحو ذلك. فلو أنهم التفتوا لذلك واتقنوه لانقادت لهم جميع الأمم. . .»[2].

ولقد كانت الدراسة بالأزهر قد وصلت - في نظر علي مبارك - إلى حد من التخلف يستدعي السعي الجاد للإصلاح. . فالطلاب - [المجاورون] - يتلقون دروسهم في ظروف غير صحية، وعلى نحو بدائي، حتى ليرسم لهم علي مبارك لوحة فنية كئيبة عندما يقول: «فإنك، عند جلوسهم للدروس، لا تكاد تمر بالأزهر، لتلاصقهم! . بل قد يتدافعون ويتنازعون في المجالس. ويكون لهم دوي شديد، ويدركون الحر في الشتاء من تجاور الأجسام وكثرة الأنفاس! ويكون لهم في الصيف روائح

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٣٢٩.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٣١٦.

غير مقبولة، يلهيهم عنها اجتهادهم واشتغالهم بالتحصيل!!..»[1].

وحتى هذا التحصيل الذي يلهيهم الاشتغال به والجد إليه عن كريه الروائح، فهو معيب، بمقاييس التربية الصحيحة والتعليم الحديث.. فاهتمامهم «بالشكل» أكثر من اهتمامهم «بالجوهر»، وعنايتهم «بالرواية» أكثر من عنايتهم «بالدراية»، و «تسجيلهم» للمعلومات يفوق «وعيهم» لها، والحكاكات اللفظية تستغرق منهم معظم الأوقات، وإعراضهم عن العلوم العقلية الأساسية والفنون الحديثة جعلهم غرباء عن العصر، وتحول بهم إلى آثار باقية من عصور قديمة لم تكن أزهى ما شهدته أمتنا من عصور!.. «فأكثر اعتنائهم بفهم العبارات، وحل التراكيب، والمناقشات بـ : الاعتراض، والجواب، والإطلاق، والتقييد، والمنطوق، والمفهوم، وغير ذلك، من غير اعتناء بالحفظ، فتجد كثيراً منهم جبل في الفهم في الكراس، وإذا سئل من خارج فقلّ أن يجيب، لعدم استحضاره» الكراس!.. «وليس لهم التفات لنحو التاريخ -[وما يعرفونه منه قصصاً وأخباراً، لا علم] - والجغرافية، والفلسفة، بل يرون ذلك بطالة وتضييعاً للزمن بلا فائدة، «وينهون من يقرأ كتب الفلسفة، ويشنون عليه الغارة! وربما نسبوه للكفر!. كما أنهم لا يكادون يطلعون على

---

[1] [الخطط] جـ ٤ ص ٢٧ من طبعة الأصل الأولى - عند الحديث عن [مجاورو الأزهر] [انظره في المجلد الرابع من أعماله الكاملة].

كتب اليهود ولا النصارى!. ولا يستعملون من الرياضات إلا الحساب، قليلاً. وليس لأهل مذهب اعتناء بالاطلاع على مذهب غيرهم، إلا مذهب أبي حنيفة، فصاروا الآن يرغبون في الاطلاع عليه لاحتياجهم إليه في الفتوى والتقلد بالوظائف، لانحصار ذلك، اليوم، في أهله؟!..»[1].

ذلك هو حال الأزهر، من حيث المناهج، ووسائل التدريس.. أما من حيث العدد لطلابه فلقد تأثر الحال فيه بتقدم التعليم الحديث، و«السبب الغالب في كثرتهم» هو ما تمنحه الدولة لهم من إعفاءات وامتيازات، فهم «لا يجرفون الجسور ولا يحفرون الترع، ولا يؤخذ منهم عساكر النظام!».. وحتى أبناء شيوخه، تحولوا إلى نماذج فاشلة «لتكاسلهم أتكالاً على شهرة آبائهم!..»[2].... تلك كانت حال الأزهر الشريف!..

ولكن علي مبارك لم يكن ـ مثله في ذلك مثل الدولة ـ يملك الجرأة ولا القدرة على اقتحام الأزهر لينفذ فيه مشروعاً للإصلاح... ولكنه، أيضاً، لم يقف عند موقف الدولة التقليدي، الذي قنع، مرغماً، بترك الأزهر على حاله، واستسلم لازدواجية التعليم، وإنما فكر الرجل، وأقدم على إنشاء مؤسسة

---

(1) المصدر السابق. نفس الجزء، ص ٢٧، ٢٨. [انظره في المجلد الرابع من أعماله الكاملة].

(2) المصدر السابق. نفس الجزء ص ٢٩، ٣٠. [انظره في المجلد الرابع من أعماله الكاملة].

تعليمية جديدة، تضم خير ما في الأزهر، بعد تطويره وتحديثه، إلى جانب ما في التعليم المدني العصري من علوم وفنون.. مؤسسة تلغى ازدواجية التعليم، ذات المخاطر على عقل الأمة وشخصيتها الموحدة... فكانت هذه المؤسسة، التي فكر فيها، وأقامها علي مبارك هي [دار العلوم]!..

بدأ في دار العلوم «منتدى» يؤمه الجمهور المتطلع للثقافة، وفي مقدمته رجال الدولة، وعلى رأسهم علي مبارك، لحضور المحاضرات التي يلقيها علماء ذلك العصر.. واتخذت لها مكاناً «المدرج» (الانغتياتر) الذي سمي باسمها، بسراي درب الجماميز.. بدأت في يوليو سنة ١٨٧١ م.. وكان من بين الأساتذة والعلماء الذين يلقون بها المحاضرات:

● في الأدب: الشيخ حسين المرصفي [١٣٠٧ هـ ١٨٩٠ م]

● في الفلك: إسماعيل باشا الفلكي [١٨٢٥ - ١٩٠٠ م] (ناظر المهندسخانة).

● في الطبيعيات - (نظري وعملي) -: منصور أفندي أحمد (مدرس المهندسخانة).

● في فقه المذهب الحنفي: الشيخ عبد الرحمن البحراوي [١٨١٩ - ١٩٠٤ م] (مفتي الحقانية).

● في التفسير والحديث: الشيخ أحمد شرف الدين المرصفي [١٣٠٦ هـ ١٨٨٩ م] (من شيوخ الأزهر).

● في علم النبات ـ (نظري وعملي) ـ: أحمد بك ندى [١٢٩٤ هـ ـ ١٨٧٧ م] (مدرس النبات بالحربية والطب).

● في علوم الطبيعيات ـ (نظري وعملي): المسيو بكتيت ـ [كانت المحاضرات تلقى بالفرنسية، مع ترجمتها الفورية إلى العربية] ـ

● في التاريخ العام: هنري بروكش باشا [١٨٢٧ ـ ١٨٩٥ م] (ناظر مدرسة اللسان المصري القديم) ـ [كانت المحاضرات تلقى بالفرنسية، مع ترجمتها الفورية للعربية] ـ

● في فن الآلات: جيجون بك (ناظر مدرسة العمليات) ـ [كانت المحاضرات تلقى بالفرنسية، مع ترجمتها الفورية للعربية] ـ

● في فن الأبنية: فرانس باشا (مدرس المهندسخانة) ـ [كانت المحاضرات تلقى بالفرنسية، مع ترجمتها الفورية للعربية] ـ

● في فن السكة الحديد: المسيو فيدال باشا (ناظر الإدارة والألسن) ـ [كانت المحاضرات تلقى بالفرنسية؛ مع ترجمتها الفورية للعربية] ـ

كانوا أبرز علماء العصر بمصر. وإذا أردنا أن نعرف قيمتهم العلمية، كفانا أن نعرف أن المسيو فيدال ـ وهو من أبرز علماء الرياضة الفرنسيين الذين استعانت بهم مصر في نهضتها العلمية

يـومئـذٍ ـ كـانت اليـابـان ـ وهي تتلمس طـريقهـا للتحضـر يومئذٍ ـ تسعى لإغرائه على العمل بها، كما تتصارع الأمم الواعية اليوم على اجتذاب العقول!.. وأدرك علي مبارك قيمة «فيدال» فطلب من الخديوي تعيينه ناظراً لمدرسة الإدارة والألسن، العليا.. ويومها دار بينه وبين الخديوي هذا الحوار:

ـ إني في شدة الاحتياج لتعيين مسيو فيدال ناظراً لمدرسة الإدارة والألسن، التي استحسنتم سموكم إنشاءها..

ـ إني أعلم أنه عالم رياضي، وخبير بالعلوم، ولكن المدرسة خاصة بتعليم الشرائع؟!..

ـ إننا نؤمل خيراً في إسناد هذه الوظيفة إليه، **لأن علماء الرياضة يمكنهم القيام بكل ما يحال عليهم، لأن المنطق الرياضي كفيل بذلك. والقوانين وضعية**[1]!..

فوافق الخديوي على تعيين عالم الرياضة وخبير العلوم.. الذي أصبح أحد المحاضرين، أيضاً، في دار العلوم..

وبعد عام من الافتتاح ـ [٣٠ يوليو سنة ١٨٧٢ م ٢٤ جمادي الأولى سنة ١٢٨٩ هـ] ـ أنشىء بدار العلوم قسم لتخريج مدرسي اللغتين العربية والتركية اللازمين للمكاتب الأهلية، وذلك لتكوين مجموعة «من مهرة المعلمين، يقومون بواجبات حسن التربية والتعليم على الوجه الأتم..» ـ كما جاء في مذكرة

---

(١) [تقويم النيل] المجلد الثاني من الجزء الثالث. ص ٨٠٦ (هامش).

علي مبارك إلى الخديوي ـ. . واختير لهذا القسم خمسون طالباً من نجباء الأزهر، عقد لهم امتحان تصفية في القبول، وتقرر لكل واحد منهم مائة قرش شهرياً. . وتحقق في منهج الدراسة بها ما أراد علي مبارك تحقيقه من وراء إنشائها. . فهم يدرسون «ما هو مفتقد في الأزهر من العلوم والفنون» مثل: الحساب، والهندسة، والطبيعة، والجغرافية، والتاريخ، والخط. . وذلك إلى جانب علوم الدين والتراث، من مثل: علوم العربية، والتفسير، والحديث، وفقه المذهب الحنفي. .

وفي سنة ١٨٨٨ م طور علي مبارك مدرسة دار العلوم، فلم يعد خريجوها يعدون فقط لتولي وظائف التدريس، بل أصبحوا يؤهلون لتولي وظائف القضاء والإفتاء والنيابة بالمحاكم الشرعية. . وأنشىء بها قسم لتخريج مدرسين للمراحل الأعلى من المدارس الابتدائية. . . وأضيفت إلى برامجها ومناهجها العلـ[illegible] المؤهلة لهذه المستويات الجديدة والعالية من الوظائف والمهام[1]. . .

ولقد نهضت هذه المؤسسة التعليمية بجانب كبير من الأهداف التي استهدفها علي مبارك من وراء إنشائها، وحق للإمام محمد عبده أن يطلب لها ـ عندما رأس امتحانها ـ في سنة ١٩٠٤ م المزيد من الدعم قائلاً عنها:

«. . . وإنني أنتهز هذه الفرصة للتصريح بمكانة هذه المدرسة

---

(١) [التعليم في مصر] ص ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٦٥.

في نفسي، وما أعتقد من منزلتها في البلاد المصرية، ومن اللغة العربية. إن الناس لا يزالون يذكرون اللغة وإهمال أهلها في تقويمها، ويوجهون اللوم للحكومة لعدم عنايتها بأمرها. ولم أسمعهم قط ينصفون هذه المدرسة، ولا يذكرونها من حسنات الحكومة!، فإن باحثاً مدققاً إذا أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا؟ وجدها تموت في كل مكان، ووجدها تحيا في هذا المكان!. وإن أول فضل في تقدم اللغة العربية، بتسهيل طرق تناولها وتأليف بعض الكتب المفيدة للمتعلمين في المدارس الابتدائية، كان للمتخرجين منها. ثم هم أساتذة المدارس الابتدائية والثانوية، ولا يشك عاقل في أن تلامذة تلك المدارس يكتبون وينطقون على نمط أقوم مما كان يكتب وينطق عليه أساتذهم من قبل!. هذه المدرسة جديرة بالعناية، ومن حقها أن يزاد في عدد طلبتها، وأن يختار لهم من الوسائل ما يتلقون به منتهى ما يراد من أساتذة البلاد المصرية بأسرها، خصوصاً في اللغة العربية والفنون الدينية..»[1].

ولقد حدد محمد عبده لهذه المؤسسة التعليمية مهمتها: أن تصنع أساتذة البلاد المصرية بأسرها في علوم العربية وفنون الدين.. وقال كلمته التي عبرت أدق تعبير عن الدور الذي أنشئت له: «إن هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي والفكري والديني والخلقي، ويمكن أن ينتهي أمرها إلى

---

(١) المصدر السابق. ص ٨١.

أن تحل محل الأزهر، وعندئذٍ يتم توحيد التربية في مصر!..»[1].

تلك كانت نظرة محمد عبده إلى دار العلوم.. ومن قبله أراد علي مبارك لها أن تكون الساحة التي تلتقي عليها، وفي عقول أبنائها علوم القدماء وعلوم المحدثين، تدرس بمنهج عقلي مستنير.. ولا نعتقد أن هذه المهمة، التي مضى على تحديدها أكثر من قرن، قد أنجزت بعد.. فالأزدواجية في التعليم لا تزال تشوه شخصية الأمة.. أزهر لا يزال يدرس - في فنون العربية والدين - فكر عصر المماليك.. وجامعات تعيش في رحاب العلوم العصرية.. ولم تحقق دار العلوم كل ما أراده منشئها من لقاء الأصالة والمعاصرة، وتكوين المفكر والمثقف الذي يعيش عصره، ويستشرف آفاق المستقبل، دون أن تنفصل ذاته وشخصيته عن الصفحات المشرقة في تراث أمته العريق!..

* * *

لقد كان علي مبارك، رجل التربية والتعليم، يفكر في هذا الحقل تفكير أصحاب الرسالات.. فهو يدرك مصاعب الطريق، وعقباته، ويعي ضرورة الصبر لجني الثمار.. ذلك لأن التربية عملية تطور اجتماعي يزيد بكثير عن محو الأمية وتعلم القراءة والكتابة، فهي «كيف» جديد ينتقل إليه المجتمع في التصور

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٣ ص ١١٩.

والعادات والسلوك، يستبدله «بكيف» بالٍ وقديم. . «. . فتربية الملل - [الأمم] - أمر صعب، يلزم لها زمن طويل، لأن هناك عوائد قديمة وأخلاقاً راسخة في الأذهان ذميمة، وأفكاراً فاسدة واعتقادات كاسدة، وهي لا تزول بمجرد بعض التجديدات، بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم إلى سن الممات، بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان، فلا تنعدم بالكلية إلا بعد انقراض جميع هؤلاء أو أكثرهم، فعلى حكم العقل يلزم التربص إلى انقضاء ثلاثة أجيال، أعني مائة سنة أو مائة وخمسين سنة. . . لأن الأفكار الجديدة ربما تقابل بالرد أو المعارضة وعدم التصديق والمناقضة، فحينئذٍ يجب إلغاؤها تدريجاً. . . »[1].

فالتربية والتعليم عنده عملية تنمية اجتماعية شاملة، وهي تحضر وحضارة، يلزمها زمن حضانة العلم اللازم لنضج ثمراته، وليست قراءة وكتابة، كما يحسب الكثيرون!. .

وهي ليست، فقط، أبنية ومعدات وتلاميذ. . بل هي، بالدرجة الأولى، المعلم القدوة والمقتدر على اجتذاب تلاميذه، في شوق ورغبة، إلى عالم العلم الجديد!. .

وعلي مبارك يحدثنا - في روايته [علم الدين] - ضمن رسالة طريفة، أخذت طابع عصرها، فازدانت بشيء من السجع المقبول، كتبها من باريس إلى زوجته، يوصيها فيها بكيفية تعليم

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٥٤٤.

الأولاد.. ومنها نقف على رأيه في «فن» العملية التعليمية، وصفات المعلم.. يقول لزوجته: «... وإذا اخترت مؤدباً، فالأولى أن يكون موصوفاً بأوصاف أهل الكمال، ذا فقه ووقار وسكينة وجلال، وأن يكون في فن الحساب كاشفاً عن وجه مخدراته النقاب!، وفي فن اللغة والأدب كأنما حفظ [لسان العرب]!، وفي العقيدة أشعرياً، وفي الأخلاق أحنفياً[1]، وفي علم السبر بحراً، وفي الحديث كأنما تحنث بحراً[2].

ولا يلزم أن يقيم معهم طول نهاره، بل يكفي أن يأتي لهم في وقت معين، والأولى أن يكون بعد وقت إفطاره، ثم يخرج بعد أن يقسم لهم اليوم نصفين، نصف يشتغلون فيه بالمطالعة والمذاكرة، والنصف الآخر يلعبون فيه!، والأولى أن تكون حصة اللعب متخللة بين أوقات التعلم والمذاكرة، لئلا يطول عليهم الجلوس فتخمد فكرتهم، وتضعف بنيتهم!. وأرجوك منع الضرب مطلقاً!.. وأن تسلكي بهم طرق النصيحة والأسباب الموجبة لزيادة الاجتهاد وصفاء القريحة، كأن تهدي للمجتهد من بعض تحف من ملبس أو مأكل أو كتب أو مصحف، ونحو ذلك مما تميل إليه الأطفال، على حسب ما يظهر

---

(١) نسبة للملة الحنيفية، أي الاسلامية.. وأصلها ملة إبراهيم (كان حنيفاً مسلماً) أي انحرف عن عبادة الأوثان وانحاز للتوحيد.

(٢) تحنث: تعبد. وحرا ـ بكسر الحاء ـ غار حراء، حيث كان يتعبد الرسول عليه السلام عند البعثة.

لك من الأحوال فإن ذلك باعث لغيرتهم، وازدياد رغبتهم أكثر مما يكون بالأذى والضرب، فإن الضرب يؤثر في الأعضاء الظاهرة فقط، وبعد برهة من الزمن يزول كأن لم يكن، بخلاف ذلك - [الإهداء] - فإنه يؤثر في الباطن، وتبقى لذتها لمن اغتنمها، وألمها لمن حرمها، ما دامت الهدية. وأيضاً فإن الضرب يحرك الشهوات الغضبية عند الضارب، فلا يقف في ضربه عند حد العقاب، بل يتعداه لما يخطر في باله من سوابق ذنوب المضروب، فربما أضر بأعضائهم، أو ترتب على الخوف والرعب البحث عما يخلصهم من يده، فيحتجون بكل ما أمكنهم من الحجج، من غير تمييز بين قبيحها ومليحها، حتى ينجوا من يده..!!...»[1].

فهو هنا يضع دستوراً، يحدد صفات المعلم، وأسلوب العملية التعليمية، يرقي إلى مستوى من التحضر، لا زال ينتظر منا التأمل والسعي لوضعه بوضع التطبيق؟!..

فمن بين العناصر اللازمة للعملية التعليمية، يركز علي مبارك الاهتمام هنا على:

١ - المعلم المقتدر علمياً، والقدوة في الخلق والسلوك.. ولإعداده أنشأ المدارس والمؤسسات، خاصة [دار العلوم]..

٢ - رياضة الجسم وحركته وتجديد نشاطه.. فلقد كان

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٤٧٩، ٤٨٠.

التعليم في الأزهر، يومئذٍ، نموذجاً سيئاً يحرم الطلاب من الصحة ويجلب لهم الأمراض... وعلي مبارك، في [علم الدين]، ينطق بطلها الشيخ الأزهري بالحديث عن تلك الآفة وآثارها فيقول: «إني كنت وأنا صغير في بلدي كثير الحركة والتنقل، فكنت صحيح الجسم، سليم البنية، قوي الحواس، لا يقاومني في النشاط وخفة الحركة أحد من أترابي، فلما جاورت بالأزهر رأيت حركاتهم قليلة، بسبب طول الجلوس في المطالعة، وليس عندهم وقت للفسحة... وهذه عادة سيئة بالنسبة للصحة... فتولدت لي بذلك الأمراض وتسلطت على جسمي الأسقام... فإن الجلوس يحبس الدم عن الجريان في العروق والأعصاب!»[1] فعمد الرجل إلى التنبيه على أهمية الحركة والرياضة بالنسبة للتلاميذ.

٣ ـ الأرتقاء بمستوى العلاقة بين المدرس وبين التلميذ، من الترهيب إلى الترغيب، ومن الخوف إلى الألفة، ومن الضرب إلى الحوافز. التي تبعث الهمة وتفجر الطاقات.. ولقد كان علي مبارك أول رجل من رجال التربية، في عصرنا الحديث، التفت إلى هذه القضية الهامة، فكتب عنها، ودعا إليها، وجعل منها قانوناً متبعاً وسنة مرعية في مختلف مؤسسات التعليم... ونحن ندرك مكانة دعوته تلك من حديث الإمام محمد عبده عنها أثناء توزيعه [جوائز علي مبارك] على تلاميذ مدارس الجمعية الخيرية

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ٣٥٠، ٣٥١.

الإسلامية سنة ١٩٠٣ م عندما يعددها كواحدة من أهم آثاره، فيقول: «.. إن علي باشا مبارك أبطل، بمنع ضرب التلامذة، التربية بالإهانة والقسوة، وجعل التلميذ مقروناً بكرامة النفس، وهي قوام التربية، فإن المعاقبة على الذنب بالإهانة والقسوة لا تؤدب النفس، لأنها تخفي الأخلاق الذميمة، ولكنها لا تمحوها، بل تزيدها وتقويها، فتكون كامنة، حتى إذا تسنى لها الظهور تظهر في أقبح الصور. وأما الذي يمحو الأخلاق الذميمة فهو الإقناع بقبحها وضررها، وحسن المعاملة، وتكريم النفس، حتى تتكرم عن الشوائن، وتأنف من كل ما ينافي الشرف!..»[1].

لقد كان رائداً على هذا الدرب الصعب.. ومن بعده سلك نفس السبيل عظماء الرجال وأفاضل المربين. ثم...

٤ ـ لقد كانت لعلي مبارك ومضات فكرية، وصياغات لعناصر عديدة في منهج التعليم، وأقوم السبل لتوصيل المعلومات، وتخير الجيد من هذه المعلومات...

● فهو يدعو إلى التدرج مع التلميذ، فنبدأ بالمعلومات الأولية نلقيها على الصفحة البيضاء... يقول: «.. إني قد علمت أنه ليس أنفع من طرح بعض المعارف الأولية في أذهان الصغار، فإنه

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٣ ص ١٦٨، ١٦٩.

يكون كالبذر يلقي في الأرض النقية، يرجى أن تظل أشجاره، وتجتنى بأطراف الأنامل ثماره!»[1].

● وهو يحذر من التبكير بإلقاء المسائل الخلافية إلى أذهان الصغار، قبل أن تتمكن ملكاتهم وضمائرهم من سلطان النظر في أسباب الاختلافات ووجوهها وأدلة الفرقاء فيها... فالإيمان بما نسميه اليوم «حرية الضمير الإنساني» يدعو إلى تأجيل عرض المسائل الخلافية إلى السن التي يستطيع فيها المتعلم التمييز بين وجهات النظر فيها دون أن ينساق وراء سلطان المجاراة والتقليد..

وعن هذه القضية البالغة الأهمية في التعليم يتحدث علي مبارك فيقول: ينبغي «أن يحترز الخائض في العلم، في مبدأ الأمر، من الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه، ويوئيسه من الإدراك والإطلاع. بل ينبغي أن يتقن، أولاً، الطريقة الواحدة الحميدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب والشبه واختلاف الآراء. فإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأي واحد، وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها، على اختلافها، فليحذر منه، فإن إضلاله أكثر من إرشاده، فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ومن هذه حالة يعد في

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٥٧٦.

عمى الحيرة وتيه الجهل!!..»[1].

إنه ينقد، ولا شك، الطريقة التي سادت في الأزهر، حيث يبدأ المبتدىء فيجد نفسه غارقاً في الخلاف والاختلاف والأعتراض والنقض والرد والفوت والإستدراك.. الخ.. الخ...

وينبه على أهمية وجود المعلم صاحب الرأي والموقف، ويحذر من الناقل الذي لا يحسن سوى عرض بضاعات الآخرين!..

● وهو يدعو إلى اتخاذ الوطن، وحبه، وتخليد ذكرى عظماء أبنائه محوراً من محاور مضمون المعلومات التي تقدم إلى التلاميذ.. فلا يصح أن تقف المادة عند الوسائل، بل لا بد لها من الاهتمام بالمقاصد والغايات، والعناية بالحقائق قبل الخيالات..».. فلا يكفي أن تتعلم الأطفال كيفية النثر ونظم الشعر وأصول الكلام، بل الأهم من ذلك اكتسابهم حب الوطن، وتمرينهم على ما سبق من حوادث الزمن، حتى يكونو أمثالاً وقدوة. فمن الغريب أننا نرى أغلب الخلق يرغبون فى الإطلاع على سير مخترعة وخرافات وأكاذيب، ونحو ذلك من الأساليب، ولا يعلمون لمن اشتهر من أبناء جنسهم أثراً، ولا يروون عنه خبراً، فتراهم يجهلون سير المشهورين من أبناء ملتهم، ولا يعرفون نسبهم ولا حسبهم... ويرغبون في معرفة

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٣٢٧.

البلاد البعيدة، ولا يعتنون بمعرفة أرضهم!..»[1].

فحب الوطن، والوعي بسير رجاله العظماء، ومعرفة معالم أرضه وآثاره، يجب أن تكون محوراً من محاور العملية التعليمية.. لأن حبه غاية من الغايات.. وهو في ذات الوقت وسيلة لاكتساب القيم وأنماط السلوك وأنواع المعارف التي تجعل الإنسان جديراً بالانتساب لهذا الوطن، وعنواناً لمجده وعظمته، وموضع الاحترام والتقدير من أبناء الأوطان الأخرى.

ومن هنا تتحول التربية والتعليم من وسيلة بناء فرد، إلى عملية اجتماعية تنتقل بالوطن والأمة إلى طور جديد من أطوار مسيرتها على درب التقدم نحو مستقبل أفضل وأسعد لأبناء الأمة أجمعين.

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٥٧٥.

مهندس

الـزراعـة. . والصنـاعـة. . والتجـارة. . والعمارة

[. . . لا ينبغي أن تحول الصعوبة بيننا وبين موجبات الثروة، فإن الهمم تذلل المصاعب. . وعندي أن لا سبيل إلى ذلك سوى استعمال القوى البخارية، فإن الآلة تحقق سلطان الإرادة الإنسانية، يديرها الإنسان كما شاء وفي أي وقت يشاء، الأمر الذي يحقق له الحصول على ما يريد! . . .

ومن المعلوم أن الصنائع يدعو إلى بعضها البعض، فإن ملكة الصنعة إذا حصلت في بلد من البلاد اندفعت أفكار أهله إلى التفنن فيها والاستكثار من أنواعها، لأن الفطرة الإنسانية قد جبلت على الغيرة، خصوصاً فيما يعود بالرواج، فتستميل الإنسان، اضطراراً، إلى المجاراة والمباراة! . .]

علي مبارك

من مأثورات الإمام الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١م] الشهيرة قوله: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله!!»

ولقد كان الحال على نحو مشابه مع علي مبارك.. فلقد بعثت به الدولة إلى فرنسا سنة ١٨٤٤ م ليكون مهندس الحرب والألغام والمدفعية والاستحكامات والتحصينات العسكرية.. فدرس كل ذلك، وتفوق فيه على الكثير من أقرانه، مصريين وفرنسيين، ثم إذا به يتحول في حياته العامة والخاصة إلى أعظم مهندس للأعمال المدنية والإنجازات غير العسكرية، بدءاً من الأدب إلى التاريخ إلى التربية والتعليم!.. حتى لقد تبدو علاقته بفنون تخصصه الدراسي هذه غريبة ومقطوعة عند الناظرين فيما خلف لنا من آثار..

صحيح إن الرجل قد ذهب إلى بلاد القرم محارباً، مع العثمانيين، ضد القيصرية الروسية، وأثبت جدارة ملحوظة في ميدان القتال.. وصحيح كذلك أنه قد رسم عدداً من مشاريع

المناورات العسكرية، وتحصيناتها للخديوي سعيد. . ولكنه كان على ذلك مرغماً، أو يشغل بعض الفراغ الذي فرضه عليه عزل الخديوي سعيد إياه. . أما الإنجازات العظمى التي أبدعها الرجل، والآثار التي تركها لوطنه وأمته، فإنها كانت في حقول «السلم والمدنية» لا «الحرب والعسكرية». . . وحتى في ميدان «الهندسة» كان علي مبارك «مهندس الإنجازات المدنية، وليس، بالدرجة الأولى، ولا حتى الملحوظة، «مهندس العسكرية والحروب»!. .

وفي هذا الميدان. . ميدان «هندسة الإنجازات المدنية» نجد للرجل العديد من النظرات والتطبيقات. . **بل نجده أعظم مهندسي عصر النهضة العربية الحديثة، في القرن التاسع عشر، وأشهر أبناء هذا الميدان على الإطلاق. .**

فالرجل، مثلاً، قد اكتشف، مع غيره، العلاقة القديمة والحديثة والأبدية بين مصر وبين نهر النيل، وجودها منه، وصلاحها بصلاحه، ورخاؤها بالعناية بأمره، ومجاعاتها وانهيارها بالغفلة أو الإغفال عن متطلبات استثمار هذا النهر العظيم. . وهو قد تحدث عن ذلك في الكثير من صفحات كتابه [نخبة الفكر في تدبير نيل مصر]، وأكد «ترتب العمران في مصر على إصلاح أمر النيل، والخراب على إهمال شأنه، وارتباط الشقاء والسعادة لأهله به في كل زمن من الأزمان[1]. . . لأن النيل هو العضو

(١) [نخبة الفكر]. . الخطبة [انظرها في المجلد الثالث من أعماله الكاملة]

الأعظم لهذه الديار، لا حياة لها بدونه، وبه يكون نموها وتصرفها..»[1]..

أدرك الرجل ذلك كما أدركه غيره، من القدماء والمحدثين، ولكنه كان أول المهندسين الوطنيين في العصر الحديث، الذين عكفوا على دراسة السبل والوسائل الكفيلة. بتحقيق سيطرة الإنسان على النيل، لتسخيره في تحقيق الآمال التي تضمن لهذا الشعب إنجاز طموحاته، والدخول إلى عصر من الرخاء، وضمان الأمن ضد الفيضانات.. فقضية الخزانات والسدود التي ارتبط التفكير فيها بعصور ازدهار حضارتنا، وإهمالها وتناسيها بعصور التخلف والانحطاط.. هذه القضية التي فكر فيها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله [٣٨٦ ـ ٤١١ هـ ٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م] وراودته فكرة إنجازها بواسطة العالم العربي الحسن بن الهيثم [٣٥٤ ـ ٤٣٠ هـ ٩٦٥ ـ ١٠٣٩ م] عاد علي مبارك فطرحها، ودرسها، وكتب عنها، بعد أن غابت عن الساحة طوال عصورنا المظلمة تحت حكم المماليك والعثمانيين!..

والنتائج التي حققها «السد العالي» في أسوان، عندما استثمر كل مياه النيل، فلم تعد تصنيع هباءً في مياه البحر الأبيض، هذه النتائج التي تحققت في سبعينيات القرن العشرين طرح علي مبارك

---

(١) المصدر السابق. الباب الأول. فصل في الترع المشتقة من النيل وما يتعلق بها. [انظره في المجلد الثالث من أعماله الكاملة].

إمكانية تحقيقها ودعا إليها في سبعينيات القرن التاسع عشر! . .
وأغرى قومه بإمكانية تنفيذها، بوسائل العصر التي تعوض نقص الإمكانيات في الإنشاء بما أقامته الطبيعة من وديان في جنوب مصر بين جبال صحاريها الممتدة على جانبي وادي النيل. . وعن مشروع الخزانات شبه الطبيعية هذا يتحدث الرجل فيقول:
«. . . إن وادي النيل واقع بين صحراوين، متخللتين بالوديان، مفصولتين عن الوادي بالجبلين الشرقي والغربي. فلو وجهت الحكومة فرقة من ذوي الدراية لاستكشاف الوديان والصحاري الواسعة اللائقة لخزن المياه في الجهات العليا من مصر لربما وجدت وادياً أو أكثر وافياً بالغرض، ولا يحتاج الخزن فيه إلا إلى عمل قليل، فإذا خزن جميع الزائد الضائع في المالح لكنا آمنين من الغرق. فإذا عقب السنة التي خزنا من مائها سنة قليلة الماء، فإنا نصرف الخزان أو الخزانات في النهر، فتخلص من الشراقي، وعند احتراق النيل - [التحاريق - نقص المياه] - نزيد به الماء إلى حد الرغبة، فيستغنى حينئذٍ عن الترع الصيفية وعن القناطر الخيرية - [أي عن إغلاقها] - ويزداد إيراد الناس والحكومة بقدر ما يتوفر من الصرف في العمليات، مع ما زداته كمية الزراعة وتحسينها. . »[١].

ووحدة وادي النيل، الطبيعية، التي صنعها النيل، جعلت علي مبارك يطرح إمكانية إقامة مثل هذه الخزانات في السودان

---

(١) المصدر السابق. الباب الرابع، في الاصطلاحات.

أيضاً، سواء في أعاليه أو في شماله.. «فمياه النيل الزائدة يمكن خزنها ببلاد السودان، ليصرف منها على النهرين الأزرق والأبيض بقدر الحاجة...»[1].. أما على حافتي مجرى النهر الممتد في السودان، جنوبي أسوان، فعلي مبارك يدعو إلى إنشاء الخزانات التي دعا لإنشائها بصعيد مصر، «لأنه يوجد على حافتي النيل، من الأقاليم السودانية فما دونها، أودية وفجوات عظيمة الاتساع، يمكن بأعمال هندسية جعلها صالحة لخزن ما يلزم خزنه من الماء. وذلك لا يتوقف على شيء من قبل الحكومة الخديوية إلا أن تتخير من مهرة المهندسين أناساً توجه بهم إلى تلك الجهات، فيستكشفونها ويخبرون أحوالها، وينبغي أن يكون الكشف من ابتداء شلال أسوان، فإذا تم ذلك.. كان من أهم ما يلتفت إليه ويعول عليه!..»

ويتحدث علي مبارك عن أن هذه الخزانات والسدود ستحل لنا المشاكل الثلاثة المزمنة:

١ ـ الغرق.. فيما إذا اشتد الفيضان..
٢ ـ والظمأ.. فيما إذا شح الماء..
٣ ـ والتغلب على أزمة «التحاريق» (الاحتراق)، عندما تقل المياه في مواعيد الزراعة الصيفية..

بل إن الرجل يقدم لنا صورة «السد العالي» عندما يحدثنا عن

(١) المصدر السابق. نفس الباب.

أن السد الذي يدعو لإقامته «من ابتداء شلال أسوان» «**هو عبارة عن جسور توطد، بحيث تقاوم متانتها فعل القوى المؤثرة عليها، ويكون بها فرج ـ [فتحات] ـ ذات أبواب من حديد تفتح وتغلق بالإرادة، لاجتياز المراكب وإطلاق المياه!**»[1].

وهكذا نجد أنفسنا حيال حقيقة تقول: إن خزان أسوان الذي بدأ العمل فيه سنة ١٨٩٨ م، بعد موت علي مبارك بخمس سنوات، وتمت مرحلته الأولى سنة ١٩٠٢ م. . وكذلك «السد العالي» الذي أنجزته مصر في سبعينيات القرن العشرين. . قد سبق لهذا المهندس العظيم التفكير فيهما، والدعوة لهما في سبعينيات القرن التاسع عشر. . ولقد أغرى الخديوي على تنفيذ هذا المشروع عندما قال: «إن حاكم مصر الذي يقوم بهذا الغرض ويتمه لا بد أن يفوز من الناس باستمالة قلوبهم إلى محبته، ومن الله سبحانه وتعالى بالثواب الجزيل في تخليص الناس والحيوانات من غوائل النيل! . . .»[2].

ولكنه مات قبل أن يرى الحاكم «الذي يقوم بهذا الغرض ويتمه. .». . وإن يكن قد مضى رائداً للمهندسين الوطنيين الذين دعوا إلى هذا الانجاز العظيم!

* * *

---

(١) المصدر السابق. فصل في سدود تعديل زيادة النيل ونقصه.
(٢) المصدر السابق. الباب الرابع في الاصلاحات.

ولقد كانت آفاق علي مبارك، المهندس، هي آفاق إنسان «متحضر»، يدرك العلاقة بين استعمال «الآلة الحديثة» وبين ضرورة الدخول إلى «عصر حضاري حديث»، فليست القضية أن نستخدم أحدث الآلات التي نستوردها بينما نعيش إلى جوارها بفكر العصور القديمة وعقول عصر الجمال والحمير!. . فالصناعة والآلة ثمرة مجتمع جديد، يتميز ويمتاز عن العصور الوسطى، ولها أيضاً تأثيرات في البيئة، ويلزم لاستثمارها الاستثمار الأجود مناخ عصري، نفكر فيه التفكير العلمي، ونحتكم إلى معاييره، ونتنفس هواءه، ونسلك مناهجه أينما أردنا المسير!. .

لقد وعى علي مبارك هذه الحقيقة الحضارية المتحضرة، التي لا زالت غائبة عن الكثيرين، بل والتي يناصبها الكثيرون العداء الشديد. . فهو قد دعا إلى «ميكنة» الزراعة، وخاصة في الري، وإلى الدخول بالبلاد إلى عصر البخار ـ وكان أرفع الآفاق الإنسانية المتحضرة في ذلك التاريخ ـ. . وحدثنا عن أن لعصر الميكنة والبخار آثاراً تتعدى الوفرة في المال والنمو في الثمرات. . **لأنها، فوق ذلك، تحقق سيطرة الإنسان، وتعلي من قدرته، وتؤكد فعالية إرادته واختياره. . ومن ثم فإنها تجعله قادراً على التخطيط والجزم بالنتائج المستقبلية قبل حدوثها، بعد أن كان عاجزاً عن ذلك، بل ويراه رجماً بالغيب وافتئآتاً على سلطان السماء!. . إنها تنقله إلى طور حضاري جديد، في الفكر، كما تحقق له الوفرة في الإنتاج**. . ويعبر علي مبارك عن هذه الفكرة الجوهرية الهامة، وهو يعدد وجوه النفع للآلات البخارية فيقول:

«. . . وأما وجه كون الآلات البخارية أصلح وأنفع، فهو أنها، نظراً لوقوعها تحت قوة قسرية هي بيد سلطان الإرادة الإنسانية، يديرها كما شاء كانت هي آمن الطرق استعمالاً من حيث الجزم بحصول النتيجة المقصودة منها! . . .»[1] . .

لقد كانت الصناعة، عند علي مبارك، «ملكة»! . . ولم تكن مجرد «كم» من الآلات، وهي «ملكة» يدعو بعضها إلى البعض الآخر، فإذا حصلت في بلد من البلدان اندفعت أفكار أهله إلى التفنن فيها، والاستكثار من أنواعها، فإن الفطرة الإنسانية جبلت على الغيرة، خصوصاً فيما يتعلق بالرواج، فتستميل الإنسان، اضطراراً، إلى المجاراة والمباراة!»[2].

وأيضاً. . فإن الدخول إلى عصر الميكنة، والميكنة البخارية هو أمعن في الوفر والاقتصاد من حيث الانفاق على المشروعات. . ويقدم علي مبارك دراسة، بالأرقام، يثبت منها أن استخدام الآلات البخارية في الري يكلف أقل من ثلث ما تكلفه الوسائل التقليدية من نفقات «. . فالمنصرف على متر [الماء المرفوع بواسطة] «الوابور» هو ثلث المنصرف على متر «السواقي» أو أقل، فما يصرف في سقي الفدان الواحد يكفي لسقي ثلاثة فدادين أو أكثر بالوابور، فالوابور أرجح من السواقي بكثير! . .»[3].

(١) المصدر السابق. فصل في الآلات البخارية.

(٢) المصدر السابق. الباب الثاني فيما أثرته حالة الفلاحة الحالية من التجارة والصناعة.

(٣) المصدر السابق. الباب الأول. فصل في المقارنة بين طرق السقى.

ويدعو علي مبارك الحكومة إلى تعميم استخدام هذه الآلات الحديثة، فإن عزت عليها النفقات للتمويل، فلتعهد بها إلى شركات مساهمة، تنجزها وتحصل من الفلاحين، بواسطة الحكومة، على مقابل انتفاعهم بها، توفى منه التكاليف على أقساط، وبعد مدة زمنية تصبح هذه الآلات والمنشآت «مملوكة للحكومة تديرها على ذمتها، برجال على نفقتها..!..»[1].

وعندما أتيحت لعلي مبارك الفرصة فتولى نظارة الأشغال العمومية حقق الكثير من جوانب مشروعه هذا.. وحدثنا عن ثمراته فيما خلف لنا من آثار.. فهو قد أنشأ، على سبيل المثال، بالوجه البحري وحده [٢,٠٨١ وابوراً] للري بلغت قوتها ٢٤,٥٨١ حصاناً بخارياً، الأمر الذي حول الري في كثير من الأنحاء - [كما حدثنا في خططه] - إلى ري دائم يعطي عدة محاصيل، بعد أن كان رياً نيلياً لا يعطي سوى محصول واحد، فضلاً عن إحياء الأرض الموات التي زادت بها رقعة المنزرع بمياه النيل.

بل لقد استتبع الميكنة إلغاء «السخرة» التي كانت السبيل القديم لإنجاز المشروعات التي أغنت عنها الوابورات، فلعب هذا «التحديث الآلي» دوره الاجتماعي والإنساني في البلاد!..

وأيضاً فلعلي مبارك، في التنفيذ، إنجازات كبرى في إنشاء

(١) المصدر السابق. فصل في الآلات البخارية.

أورم أو تجديد: القناطر، والجسور، والبرابخ، والترع، والهويسات، إلى آخر التجديدات التي أقامها في الري والصرف عندما رأس نظارة الأشغال.

وأخيراً. . فلقد وعى علي مبارك إتساع «الآفاق الزراعية» التي ستفتح الطرق إليها إذا ما استطاع المجتمع السيطرة على النيل، فخزن فائض مياهه، ودخل إلى عصر الميكنة والبخار. . فعند ذلك يصبح التوسع الزراعي أمراً ممكن التحقيق، ويومئذٍ يستطيع الإنسان المصري أن ييمم وجهه إلى الصحراء، لزراعة المساحات الشاسعة فيها، ولا يظل، كما هو حاله، أسير الوادي الضيق الذي صنعته الطبيعة بواسطة النيل. . إنه يستطيع أن يطوع الصحراء، ويفعل، كإنسان، أروع وأوسع مما فعلت الطبيعة على ضفاف النهر العظيم. . لقد بشر علي مبارك قومه بهذه الآفاق العريضة، ولم يكن حالما، لأنه دعاهم إلى الاستعداد لتحقيقها بالدخول إلى عصر جديد، مسلحين بأسلحته الفعّالة الحديثة. . بل لقد ضرب لهم من أحداث التاريخ ووقائعه الأمثلة على إمكانية حدوث ما دعاهم إليه، وذلك عندما حدثهم عن الأرض الصحراوية القابلة للاستصلاح والزرع فقال: «. . . وليست الأرض القابلة للإصلاح وركوب النيل إياها محضرة في تلك المقادير - [أي مساحة الوادي] -. بل في أرجاء القطر صحاري متسعة وراء تلك الحدود يمكن إحياؤها بالنيل، بحيث يركبها سنوياً، فإن الترعة الإسماعيلية الواصلة إلى السويس يمكن، بالأعمال الهندسية، أن تركب مياهها الصحراء من

الجانبين، وكذا في الغيوم، لو عملت طرق تدبير النيل من الخزانات وخلافها لأمكن ري الأراضي التي خلف الجبل الغربي الممتدة إلى سيوه وإلى حدود مديرية البحيرة والاسكندرية، فإن هذه الأرض منخفضة مستوية بحيث يركبها فيض النيل، وغالباً كان أكثرها منزرعاً عندما كان النيل واصلاً إلى بحر بلاما[1]، ويدل لذلك الآثار الموجودة هناك، والأخبار التاريخية، ففي بعض التواريخ أنه في زمن هشام بن عبد الملك [١٠٥ ـ ١٢٥ هـ ـ ٧٢٣ ـ ٧٤٣ م] قد مسح ما يمكن أن يركبه النيل زمن فيضانه فوجد ثلاثين مليون فدانٍ، بالفدان الكبير، وهو بفداننا الآن إثنان وأربعون مليوناً. وكانت أربعة أخماس هذا المقدار صالحة للزرع بالفعل. وحيث أن زمام الوجه البحري والقبلي لا يكمل عشرة ملايين، فلا بد أنه كان يدخل في تلك المساحة في الأزمان السابقة كورة الاسكندرية، وبرقة (مريوط). وكورة ليبيا، ومراقيا[2]، فإن ملك مصر كان قديماً شاملاً لهذ الجهات، كما كان شاملاً لجهات الطور[3]، وفاران[4].

---

(١) لعله بحر أبولامة من أعمال الفيوم. فليس في قواميس البلدان والأماكن التي بيدنا ما يعطي معلومات أدق عن «بحر بلاما» هذه.

(٢) أول بلد ، في طريق المسافر من الاسكندرية، قبل ليبيا، هكذا في [معجم البلدان] و [القاموس الجغرافي للبلاد المصرية] لمحمد رمزي. انظر القسم الأول منه ص ٤٠٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤م.

(٣) جنوبي سيناء، وهي من القرى القديمة. . على الشاطىء الغربي لشبه الجزيرة.

(٤) من البلاد التى اندرست. كان موقعها، بجنوب سيناء، على مسافة ٥٥ كيلومتراً شمالي بلدة الطور، و٤٥ متراً شرقي رأس شراتيب على خليج =

وراما[1]، والقلزم[2]، وكوره أيلة[3] وحيزها، ومدين[4] وحيزها، والعونيد[5]، والحورا[6] وحيزها، وكورة بد[7]، وشعب[8]، ونحو ذلك. وفي تلك الأزمان كانت الديار المصرية في غاية من العمارية، حتى ذكر بعضهم أن مدائن مصر كانت قديماً نحو العشرين ألف مدينة!..»[9].

ولقد أتيحت لعلي مبارك، وزير الأشغال ومهندسها، أن

السويس. انظر: المصدر السابق. القسم الأول. ص ٣٤٢. (البلاد المندرسة).

(١) لعلها الروماني: أو رمانة، على طرق مصر ـ فلسطين، شمالي القنطرة بخمس وأربعين كيلومتراً.. وليس في [القاموس الجغرافي] بلدة باسم: راما.

(٢) السويس. (والعكزم هو الاسم الذي أطلقه العرب عليها).

(٣) العقبة.

(٤) بالقرب من حدود مصر مع الحجاز، وهي على بحر القلزم، تجاه تبوك، وبينهما ست مراحل. هكذا في [مراصد الاطلاع] لصفي الدين البغدادي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

(٥) قرب مدين والحوراء، بالقرب من حدود مصر مع الحجاز.

(٦) في آخر حدود مصر مع الحجاز، وهي كورة، على البحر، شرقي القلزم. وفي [مراصد الاطلاع]: الحوراء.

(٧) كورة مصرية مجاورة للحجاز، كانت محطا للحجاج المصريين. واسمها الرومي: باريس. وهي قرب أيلة (العقبة) من ساحل البحر.

(٨) لم نعثر لها على تحديد تطمئن له النفس. وهناك مكان بهذا الاسم هو ماء بين العقبة والقاع.

(٩) [نخبة الفكر] الباب الثاني. فصل في حدود وادي النيل وانحداراته ومساحته.

يستكشف بعض هذه المناطق، ويدرس بعض هذه المشاريع، وينفذ نماذج منها، وخاصة في منطقة الفيوم.

وفي عهد علي مبارك كانت مصر تصدر الحبوب لغذاء أوربا وأمريكا!.. فلما بدأت أوربا وأمريكا تتقدم في الزراعة، بدأت حاجاتها من الحبوب المصرية تقل شيئاً فشيئاً، فترك ذلك آثاره على اقتصاديات صعيد مصر، الذي كان جل اعتماده على زراعة الحبوب وتصديرها.. وكان علي مبارك يخطط ويفكر بعقل المهندس الوطني ذي الأفق العالمي، فدعا إلى إدخال المحاصيل التجارية، ذات الأسواق الرائجة دولياً، ومنها قصب السكر، في بلاد الصعيد، وذلك حتى يكون لها محصول تجاري مثل القطن بالنسبة للوجه البحري.. ونبه إلى مخاطر الاعتماد على زراعة المحصول الواحد في عالم تتقلب فيه أحوال التجارات بالأسواق، فقال: «إن الأحوال توجب إفاضة زراعة قصب السكر، حتى يكون للأقاليم القبلية بمنزلة القطن للأقاليم البحرية، وإلا فإن اقتصار الأولى على زراعة الحبوب لا يقوم بثروتها ولا يدفع حاجتها، نظراً لتقلب الأحوال وتغير الأزمان، وذلك أن الفلاحة في الأقطار الأوروباوية، والأمريكانية وغيرها قد تقدمت، وكثرت حبوبها، فسدت من حاجتها، فقل التماس الحبوب المصرية، فأثر ذلك في رواجها. وهذا إن تمادى أضر، طبعاً، بأهالي البلاد القبلية، كما نرى بوادره الآن، فيجب تدارك الأمر بما يعوض عليهم ما فاتهم من رواج الحبوب، ولا يكون ذلك إلا بالتوسع

في زراعة الأصناف التجارية، وأعظمها هو القصب. . ! . . . »[1].

لقد كان علي مبارك، مهندس الري والزراعة، يفكر في هذا الميدان تفكير «الفلاح العالم»، في وقت واحد، ومن هنا كانت دعوته لإنشاء «مدارس للفلاحة، لتعليم قواعدها على يد أحسن المعلمين. . . ويجب أن تكون موزعة في جميع أنحاء البلاد. . . » وفي ذات الوقت دعا إلى الاهتمام بالجانب العملي والتجريبي وتطبيق النظر على العمل، وذلك عن طريق «**تخصيص أماكن للتجربة، ليتمكن أهل كل جهة من تلقي نتائج الاستكشافات العلمية وثمرات التجارب الفلاحية!**. . » . . وانتقد أهمال هذا الميدان بعد التقدم الذي أحرزه فيه محمد علي، وقال: «**إننا نتأسف على عدم استمرار خلفائه على منواله في الاعتناء بنماء هذا المشروع الجليل!**»[2].

هكذا كان علي مبارك، المهندس، بل أبرز مهندسي عصره في هذا الميدان.

* * *

وكانت التجارة أيضاً من الأمور التي شغلت فكر علي مبارك. . صحيح إنه لم يتول مسئولياتها العليا في جهاز الدولة،

---

(١) المصدر السابق. الباب الثاني. فصل في زراعة القطن وقصب السكر.
(٢) المصدر السابق. المقدمة.

ولكنه كتب عنها، من موقع المدرك لعلاقاتها الوثيقة بكل من الزراعة والصناعة، بل لقد عقد في كتابه [نخبة الفكر] فصلاً جعل عنوانه [فصل فيما أثرته حالة الفلاحة الحالية في التجارة والصناعة]. . ثم هو قد مارس، كمهندس للأشغال وناظر لها، مسئوليات تهيئة مجرى النيل للملاحة التجارية، كي يلعب دوره في تنميتها وفي تمكينها من توحيد شخصية البلاد القومية، بعد عصر تخلفت فيه عندما انقسمت البلاد إلى «ستاجق» و «كشوفيات» عزلت عن بعضها البعض تحت سيطرة المماليك. . ولقد مر بنا، في [بطاقة حياته] أن استكشاف طرق الملاحة في منطقة شلالات أسوان كان من أولى المهام التي نهض بها بعد عودته من فرنسا على عهد الخديوي عباس الأول. .

وأيضاً. . . فلقد كان علي مبارك مع فكر عصر التنوير الذي بشر به رفاعة الطهطاوي، والذي أدرك دور التجارة في اختلاط الأمم والشعوب، وتفاعل الحضارات، وتطوير المتخلفين، في العادات والتقاليد وأنماط التفكير، كي يلحقوا بأهل التقدم في هذه الميادين. . فوراء الاهتمام بالتجارة «فلسفة في العمران» تتعدى حدود المال ومقادير الأرباح. . وإلى هذه «الفلسفة» يشير علي مبارك عندما يقول: « . . **إن العمران لا يقوم إلا بالتعاون، والتعاون لا يكون إلا بالمبادلات**، وهي لا تحصل على الوجه الأكمل إلا بتمهيد طرقها وتسهيل أسبابها بإكثار السبل براً وبحراً. . . **وزد على ذلك ما يترتب على الاختلاط بين الناس من اكتساب الحرف والصنائع والمعارف، والعلم بعوائد البلاد**

وأخلاق أهلها وآدابهم وأطوارهم، وهي مزية توجب التقدم حساً ومعنى معاً!... إن البلاد تتفاوت ثروة وعماراً بتفاوت موارد التجارة فيها ومصادرها!..»[1].

فهي نظرة «مهندس ومفكر» في التجارة، تتميز وتمتاز عن نظرة «التجار»!.. وتضع هذا اللون من النشاط الاقتصادي الإنساني في مكانه اللائق من العملية المتكاملة، عملية «التحضر والعمران»!..

* * *

أما في عمارة المدن وتحديثها.. فعلي مبارك، المهندس، تتحدث عن آثاره، لا كتبه وأفكاره فقط، بل تلك الطفرة التي انتقلت القاهرة بها من عصورها الوسطى، في العمارة، إلى عصرها الحديث.. وكانت معها في انتقالها هذا مدن عدة من عواصم الأقاليم..

لقد كانت عمارة المدينة طوال عصورها الوسطى غير خاضعة لفن معماري يقتضي تناسقها ونظامها وجمالها.. بل لقد تمت واتسعت محكومة بالعوامل السلبية التي فرضت عليها، وليس بالفن المعماري والتخطيط الهندسي.. فظلم المماليك وتعديات الجند التي لا تنتهي جعلت الناس يضيقون الشوارع والعطف والحارات، ويكثرون من الحارات المسدودة، ذات الأبواب،

---

(١) المصدر السابق. الباب الأول. فصل في الملاحة بالنيل وفروعه.

فانعدمت وسائل التهوية والإضاءة، وافتقدت الأحياء لشرائط التخطيط الصحي في البناء.. وامتد ذلك، مضافاً إليه ظلام العصور الوسطى، إلى بناء المنازل ذاتها، فافتقدت النظام والذوق والتنسيق.. ويصف علي مبارك تلك الحال فيقول: «... **وبالتأمل في أوضاع البناء يرى أن همة الواضع لم تكن متجهة نحو التناسب أو تصرف الهواء، بل كانت الهمة في البناء حيثما اتفق، فيجعل مكاناً أرفع ومكاناً أسفل، وآخر منيراً وآخر مظلماً، والبعض واسع جداً والبعض ضيق جداً، وترى القاعة التي يعجز الواصف عن حصر رونقها منزوية داخل دهليز مظلم!.. إن البنائين لم يكن لهم علم بالأوضاع، بل يقلدون من تقدمهم، صادقوا الصواب أو خالفوا!..**»[1].

كما انتقد علي مبارك غياب «الجمال المعماري» عن القصور التي أنفق عليها الأثرياء النفقات الطائلة.. فذلك الثري الذي انفق على «سرايه» «ما يزيد على مائتي ألف جنيه» - [كم تساوي بسعر عصرنا؟!] - قد بناها، مع ذلك «خالية من الحسن، مجردة من الانتظام، ليس لهيئتها رونق!.»[2].

ولهذا كان دور علي مبارك حاسماً في عمارة القاهرة، كعاصمة،

(١) [الخطط] جـ١ ص ٧٨ من طبعة الأصل الأولى - عند الحديث عن [بيان ما كانت عليه القاهرة عند تولي العائلة المحمدية].

(٢) المصدر السابق. جـ ٣ ص ٨ من طبعة الأصل الأولى - عند الحديث عن [سراي الأمير منصور باشا - في شارع قنطرة الأمير حسين].

وعمارة عدد من كبرى مدن الأقاليم، عندما عهد إليه الخديوي إسماعيل الإشراف على إعادة تخطيطها وتنظيمها، كي تلحق بالمدن الحديثة، وحتى تصبح عاصمة الدولة التي أراد لها أن تكون قطعة من أوربا!..

فإنشاء كوبري قصر النيل... وإقامة الفنادق والطرق والأوبرا والقصور التي استعدت بها مصر لافتتاح قناة السويس... وشق الشوارع الجديدة التي تدخل الضوء والهواء والنظام إلى واقع العمارة المتخلف القديم.... وإقامة الميادين العامة.... ورصف الشوارع وتبليط الطرقات وتنظيفها ورشها بالماء، وتشجيرها... ودراسة إقامة شبكة الصرف - [المجاري] - التي ربط بين غيابها وبين كثرة الوفيات، للأمراض الناجمة من العفونات! وإنارة المدينة... وإنشاء الحدائق والمتنزهات العامة... وعمل النماذج الجديدة لعمارة المستشفيات، والحمامات، والمدارس، والمكاتب... كل ذلك عهدت به الدولة إلى علي مبارك، ناظراً للأشغال كان، أو مستشاراً لها، أو «مهندساً للمعية السنية»! فقدم في كل هذه الميادين عطاءً معمارياً حقق للبلاد، كما قلنا، الانتقال إلى العصر الحديث... ويتحدث الرجل عن دورة هذا فيقول: «... فهذه الأعمال، جميعها أو أكثرها، كنت أباشر أوامرها، من رسومات، وشروط مع المقاولين، ونحو ذلك، ضرورة تعلقها بديوان الأشغال. فكنت في مدة إحالة هذه الدواوين عليّ مشغولاً بالمصالح الميرية، وتنفيذ الأغراض الخديوية، ليلا

ونهاراً، حتى لا أرى وقتاً ألتفت فيه لأحوالي الخاصة بي، ولا أدخل بيتي إلا ليلاً، بل كنت أفكر في الليل فيما يفعل بالنهار!»[1].

لقد استفاد علي مبارك، المهندس المعماري، من دراسته المتخصصة لهندسة الحرب وفنون الاستحكامات ـ وصلتها غير مقطوعة بالعمارة المدنية ـ ثم أضاف إلى حصيلته فكراً معمارياً، حديثاً، بل وتاريخياً، خصوصاً وقد اشتغل بالعمارة المدنية لا باستحكامات ميادين القتال. ونحن نرى له في ثنايا آثاره الفكرية أحاديث عن عمارة القدماء، تبرز وتميز خصائصها وأنماطها... نجد ذلك كثيراً عند حديثه عن العمائر والمنشآت التي أرخ لها في [الخطط]... بل لقد تعدت كتاباته عن هذا الفن كتاب [الخطط] أيضاً. فنحن نقرأ له في [علم الدين] مثلاً، حديثاً عن فلسفة مواضع المدن وأماكن نشأتها، ينتقد في ثناياه غفلة العرب عن هذه الفلسفة في عدد من مدنهم، الأمر الذي قاد إلى خرابها عندما عجزت عن مواجهة ما تواجهه المدن من أخطار. يقول: «... إنه يجب في كل موضع أريد اتخاذه مدينة أن يكون **مشتملاً على ما يقي من المضار، وما تسهل به المنافع والمرافق.** فأما ما يقي من المضار، فبأن يدار حولها سياج الأسوار، أو أن يكون وضعها في ممتنع من الأرض، إما على جبل ليصعب على العدوصعوده، وإما أن يحيط بها بحر ليصعب عليه عبوره.

---

(١) المصدر السابق. عند ترجمته لنفسه في الحديث عن بلدة «برنبال».

وكذلك مراعاة الوقاية من العوارض الجوية، بأن تكون طيبة الهواء، لأن الهواء إذا كان خبيثاً، بأن كان ساكناً أو مجاوراً لمياه فاسدة أو لمنافع متعفنة، أضر بما حوله من إنسان وحيوان، كما هو مشاهد؟!.. وأما ما تسهل به المنافع والمرافق فأمور، منها وجود الماء العذب، والمرعى، وقرب المزارع والأشجار منها للاحتطاب والبناء، لأن قرب ذلك يسهل على الساكن مرافقه، ومنها قربها من البحر لتسهيل الحاجة القاصية من البلاد النائية.

فإذا لم تراع هذه الأمور في المدينة قبل اختطاطها أسرع إليها الخراب، كما وقع في بعض مدن العرب التي اختطوها بالعراق وإفريقية والكوفة، والبصرة والقيروان، حيث لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم، من مرعى الإبل وما يلزم لهم من الشجر، ولم يراعوا الماء العذب ولا المزارع!.

إن المدن الساحلية يجب أن تكون في جبل أو بين أمة موفورة العدد والعُدد للاستنصار بها إذا دهم العدو، إذ المدينة إذا لم يكن بقربها عمران، ولا طريقها وعراً، كانت طعمة لكل من أرادها!..»[1].

هكذا أثر اجتماع علم المهندس العسكري إلى ثقافة المعمار المدني، عند علي مبارك، عقلاً هندسياً، صار أشهر عقول رجال عصره في هذا الميدان... فكان بحق أعظم مهندسي الزراعة والصناعة والتجارة والعمارة في عصر نهضتنا بالقرن التاسع عشر على الإطلاق.

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ١٨٧، ١٨٨.

نقد الدولة... ورفض الثورة

[... يجب أن يكون سلوك الحكومة مدرسة عامة لجميع السكان، يتعلمون فيها كيف تكون الجامعة المدنية، ويكون أساتذة تلك المدرسة هم الأمراء والعمال العقلاء الفضلاء، يقربون المطالب إلى العقول بالأفعال لا بمجرد الأقوال!...

.... وبالقوانين المنتظمة، التي لا يتطرق إليها الخلل على حسب الأهواء والأغراض الشخصية:

- يكون الأمن العام..
- وتحفظ الحرية..
- وتتهيأ للجمعية أسباب الترقي إلى المعالي شيئاً فشيئاً..
- ويصير الخير الخاص والعام لكل من الراعي والرعية..
- ويدوم الملك على أحسن نظام.. وينال الحاكم، بالأهالي، عزا وثروة، وتحل حكومته بين الحكومات مكاناً علياً.. وتصبح مصر ولاية جامعة، تعدل دار سلطنة يكون سلطانها سلطان الأرض كلها..!..]

علي مبارك

كان علي مبارك واحداً من كوكبة المفكرين والمثقفين المصريين الذين أسهموا في بناء تجربة مصر الحديثة من خلال جهاز الدولة المدني الجديد الذي عرفته البلاد منذ حكمها محمد علي سنة ١٨٠٥ م . .

وحتى نفهم هذا الموقع لهؤلاء المفكرين، علينا أن نعي الحقيقة الهامة التي تقول: إن جهاز الدولة هذا كان هو أداة التنوير والاستنارة والتقدم والتطور الوحيدة في البلاد حتى سبعينيات القرن التاسع عشر، ولم يكن هناك مكان لمصلح خارج هذا الجهاز يستطيع أن يمارس منه أية دعوة من دعوات الاستنارة والإصلاح. . لا لأن الدولة كانت تستبد فتمنع الدعوة للإصلاح من خارج جهازها، وإنما لأن الملابسات التي صاحبت البلاد إلى عصر اليقظة والتنوير قد فرضت أن يكون سيرها هذا عبر إنجازات جهاز الدولة، وجعلت من هذا الجهاز الأداة الأولى والفعّالة والوحيدة في تحقيق أهدافها في هذا الميدان.

لقد نبهت حملة بونابرت [١٧٩٨ - ١٨٠١ م] مصر،

فاستيقظت على وقع أقدام حضارة حديثة وعالم جديد.. وعبر الشيخ حسن العطار [١٧٦٦ - ١٨٣٥ م]عن طموح القوى الاجتماعية الجديدة إلى عالم جديد بقوله: «إن بلادنا لا بد أن تتغير، وأن تتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها...»

وجاءت عبقرية محمد علي، ففتحت عبقرية مصر الكامنة كوامنها، وغدت عبقرية الجندي القادم من «قولة» قوة كبرى تجسدت فيها قوة مصر، التاريخ والبشر والحضارة والإمكانيات.. فبدأ السير لتحقيق الطموح الذي عبر عنه الشيخ العطار!..

ولم يدع أعداء مصر، وكانوا كثيرين، أمامها طريقاً آخر غير طريق اتخاذ الدولة وجهازها أداة وحيدة لتحقيق آمالها.. فخلقوا لها بذلك ملابسات خاصة فرضت عليها طريقاً خاصاً ومتميزاً لبلوغ تحررها وانعتاقها من مجتمع العصور الوسطى، والدخول إلى عصر التنوير الحديث.

● فالدولة العثمانية تريدها مجرد ولاية تابعة، كي تدر عليها الخيرات وتدفع لها الجزية، وحتى يضمن خضوعها بقاء الخضوع من قبل ولايات المشرق العربي لاستبداد الأتراك وغطرستهم.

● وأوربا الثورة الصناعية والاحتكارات النامية تتطلع إلى بناء أمبراطوريات في الشرق، تحقق أحلام فرسان الإقطاع الصليبيين القديمة لحساب البورجوازية الصاعدة الطموحة..

● والمماليك، والملتزمون، ونظار الأوقاف، ورجال الطرق

الصوفية، وقطاع كبير من شيوخ الأزهر. . قد أصبحوا بقايا نظام بال ومخلفات مجتمع قديم. . وصاروا أشبه بالثغرات في جسم مصر وعقلها، يتيحون الفرص لاختراق الغزاة لها، وهم قد اتفقوا على الرضا بالإطار العثماني، سواء في ذلك الظالم منهم والمظلوم! . .

هكذا كان أمر مصر عندما تنبهت واستيقظت. .

ولم يكن ممكناً ولا متصوراً أن تواجه مصر الزحف البخاري والاقتصادي لأوربا الصناعية القوية الحديثة، وهو مدعوم بقوة السلاح، أن تواجهه بالنمو الرأسمالي الوطني التقليدي - إدخارات، تحدث تراكماً رأسمالياً وتجارة وطنية يتحول بعض من أربابها إلى أصحاب ورش، فمصانع، فصناعات. . فلقد كان الزحف الاستعماري «التجاري - الاقتصادي» يكتم أنفاس البراعم والبذور الضعيفة والمتناثرة في حقل الرأسمالية المحلية. . ومن ثم فلم يكن أمام مصر الجديدة سوى جهاز الدولة تتخذ منه أداتها الواحدة الموحدة والقوية في التصدي للمد الاستعماري في هذا الميدان. . فكانت رأسمالية الدولة واحتكارها، على عهد محمد علي، ضرورة قومية ووطنية، بقدر ما كانت الطريق الخاص الذي دخلت به مصر إلى عصر التطور البورجوازي. . إنها ملابسات خاصة، وغير طبيعية، فرضت أن يكون لنا طريقنا الخاص إلى رحاب المجتمع البورجوازي وعصر التنوير. .

ولم يكن ممكناً ولا متصوراً لدولة تطمح إلى تحقيق استقلالها الوطني، وتفكر في توحيد العرب، بعد تحريرهم، لتصبح لهم أمبراطورة عربية ترث دولة الرجل المريض العثمانية. . وفي ذات الوقت تتربص بها جيوش الغزو الأوربية الطامحة لأن تكون هي الوارث. . لم يكن متصوراً لدولة كهذه أن تعطى للجيش والسلاح أقل مما أعطاه لهما محمد علي ودولته. .

لقد فرضت الملابسات الخاصة والقاهرة على مصر أن تقيم دولة، فتنشىء هذه الدولة جيشاً، كي يكونا الأداة الفعّالة في إقامة الصناعة والتجارة الوطنية، وبناء المدارس، وإنشاء المطابع، ونشر الصحف، وإقامة أجهزة للترجمة والتأليف والنشر، وإرسال البعثات العلمية وتكوين جيل من المثقفين والفنيين والإداريين والساسة والعلماء، وتنظيم الري والصرف وإصلاح الأرض وتنمية المحاصيل وتحديثها. . الخ . . . الخ . . . الخ . . .

لقد عرفت الأغلبية الساحقة من المجتمعات طريقها إلى المجتمع البورجوازي ومناخه التنويري عن طريق نمو الطبقة الوسطى، نمواً طبيعياً وتدريجياً، فلما قويت امتلكت جهاز الدولة بعد أن كانت قد امتلكت القاعدة المادية للحياة الاقتصادية وسيطرت على مؤسسات التوجيه الفكري في البلاد. . كان جهاز الدولة هو آخر الثمرات في ترتيب الحصاد والقطاف. . أما في ظروف مصر، الحديثة، الخاصة، فلقد كان جهاز الدولة هو

الأداة لغرس كل الأشجار التي ستنبت للمجتمع المنتظر كل الثمرات! . . ومن ثم كان هو الجهاز الأوحد العامل في ميدان التحديث والتنوير، ولم يكن بدعاً، بالتالي، أن يضم هذا الجهاز كل أبناء الجيل الذي طمح إلى التقدم، وكل الرواد الذين بنوا مصر الحديثة على أنقاض مجتمع المماليك والعثمانيين. .

وانطلاقاً من هذه الحقيقة، فإن الذين ينتقدون رجالات ذلك العصر، من أمثال الطهطاوي وعلي مبارك وغيرهما، لأنهم كانوا رجال دولة أولاً وقبل كل شيء، ولأنهم أسهموا في تحديث المجتمع من خلال جهاز الدولة بالدرجة الأولى. . . لا يدركون ملابسات بناء مصر الحديثة، ولا الطابع الخاص لطريقها الخاص. . . وكذلك الذين يعتذرون، في حياء وعلى استحياء، عن علاقة هؤلاء الأعلام بجهاز الدولة وقمته محمد علي باشا! . .

وأكثر من هذا ـ فعلاوة على أن جهاز الدولة كان جهاز التنوير الوحيد. . فلقد كان أيضاً جهاز التنوير القوي والفعّال. . فكان جديراً، باستحقاق وأهلية، أن يمنحه المصلحون ودعاة التقدم كل التقدير والاحترام! . .

● لقد عرفت مصر من خلاله الصحافة، وارتادت هذا الميدان قبل غيرها من دول الشرق. .

● وأقامت من خلاله المدارس المدنية، ذات التعليم المجاني، والتي تنفق على طلابها في المأكل والملبس والمسكن، ثم تعطيهم «المصروف» ! .

● وأنشأت بواسطته مطبعة وحيدة، هي المطبعة الأميرية ببولاق، فأخرجت إلى المكتبة العربية عيـون الفكر الأوربي الحديث، في طباعة دونها كثير من طباعتنا الحالية، وفي مجلدات تدهش زخرفتها وأحجامها وألوان أحبارها كثيرين منا في الربع الأخير من القرن العشرين! . . فوضعت هذه المطبعة في متناول العقل العربي أكثر العلوم والفنون تقدماً في أكثر الحضارات تقدماً ـ الحضارة الأوربية، ومن خلال فرنسا بالذات ـ. كما بعثت إلى المكتبة العربية كنوزاً من تراث حضارتنا القومي والإسلامي، وأتاحت الفرص الواسعة للتأليف والإضافة من قبل الجيل الناشىء من المثقفين. . وفي أقل من أربعين عاماً أخرجت هذه المطبعة وحدها أكثر من ألفي كتاب، كثير منها ضخم وفي عدة مجلدات، على حين لم تخرج مطابع الأمبراطورية العثمانية في أكثر من قرن [١٧٢٨ ـ ١٨٣٠ م] سوى أربعين كتاباً، أغلبها في الشعوذة والخرافات[١]! . .

بل إننا لو ذهبنا نقارن دور الدولة وجهازها في حركة التنوير في تلك الفترة، بدورها منذ ثمانينيات القرن الماضي وحتى الآن، فسنجد الكفة راجحة لحساب العهد الأول، وخاصة زمن محمد علي والخديوي إسماعيل! . .

لقد أخرجت مطبعة بولاق وحدها أكثر من ألفي كتاب، كبير

---

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي] جـ ١ ص ٦٩، ٧٠.

وأساسي في الفكر، في أقل من أربعين عاماً، وكان تعداد السكان لا يتجاوز الثلاثة ملايين. . .

وفي النصف الأول من القرن العشرين، وبعد أن تضاعف عدد السكان خمس مرات. . وأصبحت لدينا آلاف المطابع، والعديد من الأحزاب والجمعيات والجامعات والهيئآت ومراكز التوعية والتثقيف والتوجيه وقفت حركة النشر عندنا خلال أربعة عشر عاماً (١٩٢٦ ـ ١٩٤٠ م) عند رقم ٤,٥٣٨ مطبوعاً، كثير منها نشرات صغيرة وكتيبات[1]!. .

وبينما طبعت مطبعة بولاق [خطط] علي مبارك، وأخرجتها في عشرين جزءاً، في عام واحد. . نجد الدولة، بعد ذلك، تشرع في طبع كتاب مثل [نهاية الأرب في فنون الأدب] للنويري منذ سنة ١٩١٠ م، فيمضي على هذا التاريخ أكثر من سبعين عاماً ولم يكتمل بعد طبع الكتاب، بل لم يتجاوز الطبع نصف أجزاء الكتاب إلا بقليل!. .

فمن الذي ينكر دور جهاز الدولة في تجربة بناء مصر الحديثة، وخاصة قبل أن تتعدد مراكز التوجيه وينشأ في الحركة الفكرية تيار شعبي وطني بقيادة جمال الدين الأفغاني في سبعينيات القرن الماضي؟!. . ومن الذي يماري في استحقاق هذا الجهاز، ودوره

(١) أنظر [الكتب العربية التي نشرت في الجمهورية العربية المتحدة (مصر) بين عامي سنة ١٩٢٦ م / سنة ١٩٤٠م] اعداد عايده ابراهيم نصير. الناشر الجامعة الأمريكية. القاهرة سنة ١٩٦٩م.

التنويري، كل الاحترام والتقدير؟ ومن الذي يحق له أن يلقي الظلال والشبهات على الأعلام الذين منحوا هذا الجهاز ولاءهم، من أمثال الطهطاوي وعلي مبارك؟!..

لقد كان جهاز الدولة يومئذٍ - ورمزه محمد علي - هو ولي النعم.. بحق.. وبجدارة.. ودونما حاجة إلى تأويل أو اعتذار[1]!.. ثم... هل نطلب من أعلامنا هؤلاء أكثر مما نطلب من تيار دولي «تقدمي واشتراكي» هو تيار السانسيمونية، إتباع المفكر الأشتراكي الفرنسي سان سيمون [١٧٦٠ - ١٨٢٠ م]؟؟.. لقد طمح هذا التيار من تيارات الأشتراكية إلى التقدم والتطور، وقالوا إن النموذج الذي يحلمون به من الممكن أن يتحقق من خلال سلطة حاكم قوي يضع أحلامهم في التطبيق، ومن هنا كانت هجرتهم إلى مصر، وعملهم، بدوافع فكرية وعقائدية، في بناء مصر الحديثة تحت حكم محمد علي.. فهل نطلب من الطهطاوي وعلي مبارك أبعد من مواقف السانسيمونيين ومواقعهم من التجربة وتقييمهم لدولتها ورمزها محمد علي؟؟!..

إن الانصاف يدعونا إلى إدراك الملابسات وفهم الظروف.. وذلك حتى نعي حقيقة العظمة التي تمثلت في ولاء هؤلاء الرجال للدولة، فلقد كانوا دعاة إصلاح وتنوير، منحوا ولاءهم لجهاز

---

(١) بالطبع، مع التحفظ - المحكوم بالمنطق الاسلامي - على إضفاء هذا الوصف على بشر، أياً كان، فواهب النعم ووليها هو الله وحده لا شريك له!..

التنوير والإصلاح الوحيد، بالبلاد، في ذلك التاريخ . . .

* * *

وليس معنى هذا أن جهاز الدولة لم يعرف غير الحسنات والعطاء والتطوير والتنوير، فلقد كانت له، إلى جانب إيجابياته، الكثير من السلبيات والعديد من العيوب. . وكانت له مظالم وتجاوزات من الممكن أن تكتب فيها الفصول وتسود بها الصفحات. . وكان من أبرز عيوب الدولة يومئذٍ، بل كان عيبها الأول والقاتل، أنها كانت حكومة فردية، على النمط الذي ابتلى به الشرق في كثير من عصور تاريخه الطويل. . كان الطابع الفردي طاغياً في اتخاذ القرار وتنفيذه، وفي اختيار البدائل والمفاضلة بينها، الأمر الذي جعل للإصلاحات أحياناً مذاقاً مراً في أفواه المستفيدين منها! . . كان الاهتمام بالإنسان المواطن وطاقاته في التفكير السياسي وقدراته على المشاركة أقل مما يجب بكثير.

وكل الرجال العظام، من مفكري المجتمع ومثقفيه، الذين أسهموا في بناء عصر التنوير هذا، من خلال جهاز الدولة، قد ادركوا هذا العيب، وأبصروا مخاطره التي تهدد كل البناء بالانهيار عندما تحدق به التحديات، فلقد كان الحكم الفردي يحرم التجربة من حب كثير من أبناء الشعب وولائهم لها، ويحجب عنها حماية المستفيدين الحقيقيين من قيامها! . . ومن هنا كان تنبيه هؤلاء الرجال العظام إلى تلك السلبية وذلك العيب وهذه

المخاطر، على تفاوت في شجاعتهم وصراحتهم والأسلوب المباشر أو الخفي الذي استخدموه في النقد والتنبيه.. ومن هنا كذلك كان تفاوت المحن والأزمات التي مرت بعلاقة هؤلاء الرجال مع جهاز الدولة، والخديوي بالذات!..

والجميل، في موضوعنا، أن نصيب علي مبارك من هذه الشجاعة قد فاق نصيب الكثيرين من أقرانه، وأن أسلوبه في النقد قد تجاوز التلميح إلى التصريح، على نحو لم نعهده لدى كثير من الذين حوموا حول هذا الموضوع!.. كما كان حظه وافراً كذلك من الأزمات مع جهاز الدولة، سواء على عهد الخديوي سعيد ـ كما أسلفنا ـ أو حتى مع الخديوي إسماعيل..

لقد نظر علي مبارك إلى جهاز الدولة نظرة علية واقعية.. فالدولة في أحدث التعريفات هي جهاز قهر تمتلكه طبقة اجتماعية أو مجموع طبقات، لتسخره في تنمية مصالحها وتحقيق أهدافها، وقهر المناوئين لهذه المصالح والأهداف.. وما السلطات المتعددة والأجهزة التنفيذية والتشريعية والقضائية المختلفة إلا أدوات تطبيق وتحقيق لهذا الهدف ولتلك الفلسفة التي تمثل فكر الحاكمين..

لكن أجهزة الدول تتفاوت، مع ذلك، في وسائل التطبيق وطرائق تحقيق أهداف الطبقات الحاكمة.. فهناك أساليب خشنة غير متحضرة، تتميز بضيق أفق أصحابها وانحيازهم للعسف والجور طرقاً لتحقيق ما يريدون، وهناك أساليب متحضرة تسمح

بمقادير متفاوتة من العدل بالنسبة للآخرين.. ويزيد وضوح التفاوت بين هذه الأساليب تفاوت أهداف الحكام بتفاوت المواقع الاجتماعية والأهداف الاقتصادية للطبقة التي يمثلها هذا الجهاز، فقد تكون طبقة أقلية مستغلة وشرهة في الاستغلال، وقد تكون مصالحها هي مصالح الجماهير العريضة، فيكون العدل عندها عدلاً لأغلبية الناس..

فجهاز الدولة، إذا، هو جهاز قهر.. ولا يلطف من خشونة هذا القهر ويخفف من ثقله على المحكومين إلا ما يخالطه من عدل يستهدف هذا الجهاز تحقيقه، الأمر الذي يفرض على الوسائل أنواعاً من التحضر والإنسانية في التنفيذ.. ولقد كان هذا هو تشخيص علي مبارك لطبيعة سلطة الدولة، وهوته إلى تلطيف قهرها بالعدل!.. فهو يقول: «إن تفاوت الناس في العقل، وجودة النظر في صلاح الأمة، والقدرة على ضبط القوى الحيوانية الموجبة للبغي والعدوان، أوجب استيلاء بعض الناس على بعض، وسريان القهر بينهم، حتى نشأ من ذلك التمييز باسم الحاكم والمحكوم، والمالك والمملوك. وغاية الأمر أن القهر إذا داخله العدل كان قهر لذيذاً! وضعف الشعور به، ولم تكن النفس شديدة الإباء له، الخفاء الذل فيه!. ولم تكن لشريعة من الشرائع أن تبطل ذلك الأمر وتبعث على إهماله، لما في تركه من الفساد العظيم!..»[1].

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ١١٣.

ثم يتقدم علي مبارك على هذا الدرب، درب نقد الدولة، خطوة أخرى، فينتقد، بطريق يكاد أن يكون مباشراً، السلطة المطلقة للحاكم، والسلطان غير المقيد بقيود القانون والدستور والشورى، وذلك عندما يتحدث عن أنواع الحكومات، فيقسمها إلى: جمهورية، وملكية.. ثم يقسم الملكية إلى: ملكية مقيدة، وملكية مطلقة، فيزكى المقيدة، ويعيب على المطلقة أن الهوى والغرض الذاتي هو الحاكم على الحاكم فيها!.. يقول علي مبارك: «إن الحكومة تنقسم إلى صورتين:

الأولى: **الحكومة الجمهورية، وهي أن يكون الحكم مفوضاً لمجلس مركب من أعضاء تنتخبهم الرعية، لإدارة أمور المملكة، تحت قوانين يلزمهم العمل بها وعدم الخروج عنها.**

الثانية: السلطنة والحكومة الملكية، وهو أن يكون زمام الحكم والتدبير والأمر والنهي بيد شخص واحد، وهو الملك. وهذه أيضاً تنقسم إلى قسمين:

مقيدة..
ومطلقة..

لأنه إما أن يكون الملك مقيداً بقوانين وشرائع لا يستطيع الخروج عنها إلى هوى نفسه، وهي الحكومة الملكية المقيدة، وإما أن يكون غير مقيد بشيء من ذلك، يحكم برأيه، ويتصرف

بهوى نفسه، فيكون رأيه شريعة المملكة، وحكمه قانونها! وهي الحكومة الملكية المطلقة. . »[1].

ولا نعتقد أن انحياز علي مبارك هنا بالأمر الذي يخفي عن قارىء هذه النصوص. . فالمديح للنظام الجمهوري، وللملكية المقيدة بالقوانين والشرائع، والذم منصب على الملكية المطلقة، وحكم الفرد الذي «يحكم برأيه، ويتصرف بهوى نفسه، فيكون رأيه شريعة المملكة، وحكمه قانونها! . . »[2].

كتب علي مبارك هذا الكلام بمصر، في عهد الخديوي سعيد، ونشره بمصر في عصر الخديوي توفيق! . .

وفي عهد الخديوي إسماعيل، كتب في كتابه [نخبة الفكر] ـ وهو الكتاب الذي سبب له أزمة مع جهاز الدولة والخديوي فقد فيها كل مناصبه لفترة من الزمن . كتب عن الأصول الضرورية لتحقيق السعادة في المجتمع، فلخصها في أصلين رئيسيين اثنين، هما: العمل، والعدل المترتب على تقييد:

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٥٩١.

(٢) في المسامرة التاسعة والثلاثين من [علم الدين] (حكاية المصري الغريب) يلتقي بطل الرواية بواحد من المصريين الذين هاجروا من مصر مع جيش حملة بونابرت عليها، فاستوطن مرسيليا، وكان من حزب نابليون ضد الحزب الملكي، ولاقى مع رفاقه الاضطهاد عندما عادت الملكية إلى فرنسا. وفي الرواية نلمس التعاطف مع حزب الحرية، حزب نابليون، ضد الملكية والنظام الملكي.

السلطة الحاكمة بالقانون!.. فبالعمل تتحقق الثروة.. وبالعدل تصل الثروة إلى العاملين، فيتحقق الهدف السامي من وجودها!.. «فسعادة مصر ـ [كما قال] ـ مؤسسة على أصلين مهمين:

الأول: بذل همم أهلها، وطرح أسباب الكسل والفتور عن كواهلهم. فبقدر بذل الهمم منهم فيها تكون ثروتهم.

والثاني: **إتباع القوانين المنتظمة التي لا يتطرق إليها الخلل على حسب الأهواء والأغراض الشخصية**، فإنه بقدر رعايتها يكون الأمن العام، وبحفظ حرمتها يدوم الملك على أحسن نظام، وتتهيأ بذلك أسباب الجمعية، ويصل الخير الخاص والعام لكل من الراعي والرعية، وبذلك تكون ولاية مصر جامعة تعدل دار سلطنة يكون سلطانها سلطان الأرض كلها!..»[1].

وفي الحساب عن مسئولية التخلف والإهمال والإنحطاط الذي يصيب مجتمعاً من المجتمعات ـ والحديث عن المجتمع المصري. يلقي علي مبارك التبعة والمسئولية على **الأمير**، وعلى **الكافل** ـ [القائد المسئول] ـ.. «فاللوم والمعتبة على الكافل الذي ارتفق وسائد الراحة، وقعد به الكسل وهو يرى نجاحه، وعلى الأمير الذي أخمد همته الإغفال، وأخمل ذكر مساعيه الإهمال.

---

(١) [نخبة الفكر] المقدمة [انظره في المجلد الثالث من أعماله الكاملة].

فكل راعٍ عن رعيته مسئول، وكل طالب لمآخذ الخيرات عليها مدلول!....... ومن طالع تواريخ المتقدمين وجد أن جميع الملل في سيرها سائرة بسير مدبر أمورها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر!..»[1].

والحكومات التي أصبحت في تاريخنا منارات تضيء ومفاخر نعتز بها، كانت كذلك لأنها كانت حكومات وضعت مقاليدها وسلطاتها بيد العلماء والمفكرين.. فلما استولى الجهال على السلطة كانت المحنة والتدهور الذي لا زلنا نعالجه حتى هذا التاريخ. فالإسلام، في السياسة، يرى «أن السائس الأعظم لا بد أن يكون عالماً شرعياً، وكذا نوابه وعماله، حتى تتم للمسوسين سعادتهم... فلما رجع الناس القهقري، وتغلب على خطة السياسة أرباب الخشونة والجهل.. قدموا لإدارة الأحكام من على شاكلتهم من الجهال، فوقع المحكومون تحت تصرف الأهواء وتنازع الأغراض، فوقفوا في السير، ثم تقهقروا حتى تدهوروا..!»[2].

ولقد مرت إشارتنا إلى أن كتاب علي مبارك [نخبة الفكر]، الذي ضم الكثير من انتقاداته لسلطة الدولة بعد عهد محمد علي، قد أحدث له أزمة حادة مع الدولة، أفقدته كل مناصبه

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٥٧٥، ٥٤٣.

(٢) [نخبة الفكر] الباب الثالث في أهل القطر. فصل في أصولهم وحقيقة القول في أخلاقهم.

الوزارية. . كما سبقت إشارتنا إلى أن الحزب الذي كان يكيد لعلي مبارك عند الخديوي - بزعامة إسماعيل صديق (المفتش) - كان، في نظر علي مبارك، حزب الجهلاء. . فهو مصري مثلهم، بل واشد سمرة منهم، ولكنه يمتاز عنهم بأنه عالم ومثقف ومفكر[1]! . . فهو مع حكومة العلماء، لأنه واحد منهم، ولأنها سر التقدم الذي أحرزته الدولة في تراثنا وحضارتنا، ولأنها التطبيق لوصايا ديننا السياسية. . وهو ضد حكم الجهلاء! . .

والأمر الذي لا شك فيه، أن تقييد السلطة بالقانون، وتقليد المناصب الحاكمة للعلماء والخبراء، سيفتح باب الحرية في المجتمع واسعاً أمام المواطنين. . وهو الأمر الذي حبذه علي مبارك، بمناسبة حديثه عن الحريات التي تمتعت بها باريس، فأثمرت مجدها العلمي ورفعت صرحها الحضاري عالياً بين الأمم والشعوب، وجعلتها الحمى والملجأ لكل المضطهدين بسبب الحرية، والكعبة لعشاقها. . «فلقد كانت باريز على غاية في التقدم، **وكثر بها المؤلفون، ورحل إليها كثير من أهل أوربا، وخفف فيها شأن العقوبات، فكان كل إنسان يتكلم بحرية، ويكتب ما شاء من أحوال الخلق، سواء كانت خصوصية أو عمومية، سياسية أو دينية، وظهر فيها رجال ذوو أفكار، فألفوا كتباً انتشرت في سائر الأقطار، فانجلت عنهم غياهب الجهل**

(١) [تقويم النيل] المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٤٥٢.

وتميزوا على غيرهم بالعقل! . . .»[1].

كل هذا المجد صنعته الحرية لباريس. . أتاحت للمؤلفين والمفكرين حرية الكلام، وحرية الكتابة والنشر، في كل الموضوعات، دونما تمييز بين خاص وعام، سياسي أو ديني، فصنعت الحرية رجالاً عظاماً، وفكراً غنياً، انعكس على الدنيا كلها، فزال الجهل، وأصبح العقل ميزة يتميز بها ويمتاز أهل باريس! . .

هذا عن الفكر النظري والعام، لعلي مبارك، في الدولة والسلطة والسلطان. . فهو مع الحكومة المقيدة بالقانون والشريعة، وضد السلطة المطلقة والفردية. . وهو فكر نظري صاغه في ظل تجربة سياسية تميزت الدولة فيها بالجنوح الشديد إلى الحكم الفردي، ومن ثم فلا بد وأن يحسب للرجل إسهاماً جريئاً في نقد سلطة الفرد المطلقة، ودعوة إلى تقييد سلطان الحاكم وسلطاته بالقانون! . .

فإذا جئنا إلى التطبيق، ورصيد علي مبارك من النقد المباشر والصريح الذي وجهه إلى الدولة في عصره، وجدناه رصيداً كبيراً، بل وأكبر مما يظن الكثيرون، ومما قدمه الكثيرون من معاصريه. .

ونقد علي مبارك هنا منصب على السياسات التي جعلت مصر

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ٢٠٦.

تتراجع عن التجربة العملاقة والرائدة التي قاد بناءها محمد علي.. فمحمد علي، في نظر علي مبارك، كما هو في نظر كل المنصفين، قد قاد عملية بناء مصر الحديثة، وبذر في الشرق كله بذور عصر جديد.. وعلي مبارك يتحدث عن إنجازاته، مقارناً بينها وبين حكم مصر وحالها في العصور التي سبقته، فيقول:
«... ومن تأمل مصر وما كانت عليه قبل استيلاء المرحوم محمد علي باشا، ونظر إلى حالها الآن وجد أن لا نسبة بين الحالين، ولا مناسبة بين الزمنين..

● ففي الأزمان السابقة كان يندر وجود الإفرنج في بلادنا، وأما الآن فلا أقل من وجود مائة ألف نفس.

● وكذلك كان لا يوجد واحد من أبناء جنسنا يتكلم بلغة أجنبية، وأما الآن فيوجد ألوف يتكلمون بلغات متعددة.

● ولم يعلم قبله أن أحداً من المصريين سافر إلى بلاد أوربا، وأما في زمنه فما من سنة من السنين إلا والمصريون في ذهاب وإياب من مصر إلى أوربا ومن أوربا إلى مصر، لتعلم العلوم النافعة والصنائع المتنوعة.

● وذلك خلاف المكاتب الصغيرة التي تراها فوق الأسبلة، فلم تكن حالتها فيما تقدم من الزمان لحالتها التي هي عليها الآن، حيث ضبط ريعها، وحفظت من الضياع رباعها وضياعها، وتنوعت فيها فنون التعليم، زيادة عما كانت عليه في الزمن

القديم، حتى صارت ملحقة بالمدارس الميرية في الترتيب والمقاصد الخيرية.

● فضلاً عما حدث في هذا العهد من تقدم الزراعة واتساع طرق الفلاحة، وازدياد النباتات، وتسهيل طرق الري في جميع الجهات.

● وكذلك الفنون، تيسرت لطلابها أسبابها.

● والصنائع كثرت بين المصريين أربابها، كالحدادة، والبرادة، والنجارة، حتى صار القطر بأربابها في غنى عمن سواهم.

● وكذا العلماء والأطباء والحكماء الألباء، الذين عم نفعهم البلاد.. وكذا نشأ من أبناء الوطن مهندسون أعمالهم تغني عن صفاتهم.

● هذا إلى من برع في العلوم العسكرية، وعلماء مدرسين في الفنون الحربية.

● وبعد أن كان أمر الملة - [الأمة] - بيد الأغراب، المسلطين عليها بالسلب والنهب وأنواع العذاب، صار الآن موكولاً إلى رأي أبنائها..

كل ذلك، وغيره أكثر منه لم أذكره للاختصار... ما كان ليكون لولا استيلاء محمد علي... ولولا ذلك لكان أهل هذه البقعة - [مصر] - كغيرهم ممن جاورهم، كالبربر وعرب الشام

والحجاز، باقين على ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من العادات الخالية عن المزية، والمعلومات التي تعزى إلى الجاهلية!.. فمن ذلك ثبت أن كل ملة تسير خلف مديريها، وجمهور رجالها ومدبريها!»[1].

فمصر محمد علي قد انتقلت من الجاهلية إلى العصر الحديث، فخالطت الأمم المتحضرة وتفاعلت معها وتعلمت منها، ونهضت نهضة كبيرة في العلوم والصناعة والزراعة والحرف والفنون والهندسة والحرب.. وبنت ذلك بعنصرها الوطني بعد أن كانت مقاليدها بيد الأغراب، يسومونها أنواع العذاب.. و«للمدبر» ورجاله فضل القدوة والقيادة في هذا التحول العظيم..

فلما تغير «المدبر»، وخلف من بعده خلف أضاع الكثير من المكاسب وأصاب التجربة بالعديد من الجراح، وفتح فيها للأعداد ثغرات وثغرات، كان نقد علي مبارك لهذا الخلف مباشراً وشديداً..

● فهو ينتقد تخلف «ملكة الصناعة» عما كانت عليه... «فلقد كنت ترى أهل مصر لما حصلت فيهم تلك الملكة آخذين في تنوع الصنائع» فلما خلف الخلف «أخذت الصنائع الأولية في التلاشي بسبب إهمال دواعيها الزراعية، فضعفت تلك الملكة،

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٥٤٣، ٥٤٤.

وسرى التلاشي إلى سائر الأنواع الصناعية شيئاً فشيئاً، حتى اضمحلت، وكادت تنعدم بالمرة..»[1].

● وكذلك الأمر في الزراعة.. يتأسف علي مبارك «على عدم استمرار خلفاء محمد علي على منواله في الاعتناء بنهاء مشروعاته الزراعية الجليلة..»[2].

وعلي مبارك لا يسوق نقده هذا عاماً، وبلا دليل.. فهو قد درس أحوال مصر في العهدين، من مختلف الزوايا وبكل الميادين، وقدم في نقده الأدلة على التراجع الذي أصاب التجربة في الزراعة والصناعة، وما ترتب على ذلك من تراجع في تجارة البلاد..

● فلقد كانت مصر تستخرج ملح النشادر، والنطرون، لاستخدامه في تبييض نسيج الكتان، وأقامت له ستة عشر مصنعاً، وكانت تصدر منه سنوياً أكثر من ٢٠,٠٠٠ رطل، هي مجموع احتياجات كل أوربا!.. فتدهورت هذه الصناعة، وأغلقت كل مصانعها!..

● وصناعة الحرير، من دود القز.. أقيمت لها على عهد محمد علي مزارع كبرى تديرها الدولة، وزرعت لهذا الدود

(١) [نخبة الفكر] الباب الثاني. فصل فيما أثرته حالة الفلاحة الحالية في التجارة والصناعة.

(٢) المصدر السابق. المقدمة.

أشجار التوت التي زاد عددها عن ٣,٠٠٠,٠٠٠ شجرة!.. ولم يبق الآن من ذلك شيء!..

● وعندما كانت مصر تكثر من تربية الأغنام وزراعة الكتان، كانت تصدر الأقمشة والمنسوجات.. والآن، بعد الإهمال، أصبحت تستورد المنسوجات، الأمر الذي حرمها ميزات كثيرة، ويكلفها الأموال الطائلة.. وهي أموال كانت توظف، في السابق، لتنمية الصناعة الوطنية والتجارة الداخلية..

لقد كانت تزرع بالكتان ٥٧,٣٩٧ فداناً.. تنتج ٢٨٦,٩٨٥ قنطاراً فأصبحت الآن تزرع ٠٤,١٢٨ فداناً.. تنتج ٠٢٠,٦٤٠ قنطاراً

● وفي صناعة النسج (بالأنوال)..

كان لدى مصر ٣٤,٠٠٠ نول نسج.. يعمل عليها ٥٠٠,٠٠٠ عامل - [يضاف إليهم العاملون في أدوات النسج، وفي تجارته] - وكان ثلاثة أرباع (٣/٤) السكان - [٣ مليون] - يلبسون الملابس المصنوعة محلياً، فيوفرون على الدولة ٤,٥٠٠,٠٠٠ جنيه سنوياً فأصبحت البلاد تستورد أقمشة لكساء الأهالي قيمتها ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه سنوياً!

وعلى هذا النحو يمضي علي مبارك في نقده، المدروس، للسلبيات التي صنعتها الدولة وقيادتها في تجربة مصر الحديثة التي وضع أسس ازدهارها محمد علي.. وهو يركز على سلبيات السنوات الخمس التي سبقت نشره لكتابه [نخبة

الفكـر] ـ [سنوات ١٨٧٤ ـ ١٨٧٨ م] ـ وهي سـنوات ازدياد التدخل والنفوذ الأجنبي في البلاد، وفرض سياسات الأبواب المفتوحة أمام الغزو التجاري الأوربي، الأمر الذي ظهرت آثاره على الاقتصاد الوطني للبلاد[1]..

لقد كان علي مبارك رجل دولة... نشأ وتربى وعاش في عصر كانت الدولة فيه هي جهاز التقدم والتطور والتنوير الوحيد في البلاط... ومن خلال جهازها كانت جميع إسهاماته في ميادين الإصلاح... ولكنه مع هذا كله كان ناقداً شجاعاً لما رآه سلبياً في مجتمعه، ولما رآه تراجعاً من الدولة عن مسيرة البناء لمصر الحديثة، ولما رآه استبداداً وتفرداً من الحاكم بالأمر، يعرض التجربة لكل ما يحمله الاستبداد والتفرد من مخاطر وأخطار!..

* * *

وعلى حين كان علي مبارك: مع الدولة.. لكن.. مع النقد لسلبياتها... فلقد كان ضد الثورة.. لأنه لم يؤمن بها سبيلاً من سبل التغيير. كان يرى في نقد الدولة، سبيلاً لتقويمها، كي تكون، كما آمن ووفقاً لقناعاته وممارساته، الأداة المثلى للتغيير.

ولقد شاءت تطورات الأحداث التي مهدت لقيام الثورة

---

(١) المصدر السابق. الباب الثاني. فصل فيما أثرته حالة الفلاحة الحالية في التجارة والصناعة.

العربية، أن يخرج علي مبارك من الوزارة مرتين بسبب هذه الأحداث، واستجابة لطلب العرابيين!..

فوزارة نوبار باشا التي تألفت في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ م، كأول نظارة بالمعنى الحديث في تاريخ مصر، والتي شغل فيها علي مبارك منصبي ناظر الأوقاف وناظر المعارف، استقالت ـ أو قل أجبرت على الاستقالة ـ بفعل أولى مظاهرات العسكريين العرابيين التي حدثت في ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ م (٢٥ صفر سنة ١٢٩٦ هـ) احتجاجاً على تأخير صرف مرتبات العسكريين والمدنيين لأكثر من ثمانية عشر شهراً[1].. استقالت هذه النظارة في ٢٣ فبراير سنة ١٨٧٩ م، أي بعد خمسة أيام من المظاهرة العرابية!..

ووزارة رياض باشا، التي تألفت في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ م، وشغل فيها علي مبارك منصب ناظر الأشغال، أجبرتها مظاهرة عابدين التي قادها عرابي في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م على الاستقالة في اليوم التالي للمظاهرة العرابية!..

هكذا بدأت وبدت علاقة على مبارك بالثوار.. فهو رجل الدولة الذي تسقطه الثورة مع من تسقط عندما تتصاعد بها الأحداث!..

---

(١) [تقويم النيل] المجلد الثالث من الجزء الثالث. ص ١٥٢، ١٥٣.

لكن علي مبارك لم يكن «**معادياً لأهداف**» الثوار.. وإنما كان «**رافضاً لوسائلهم**» التي سلكوها لتحقيق الأهداف التي أجمع عليها كل دعاة الإصلاح.. وهو في هذا الموقف كان واحداً من حزب الوطنيين المعتدلين، الذين آمنوا بالإصلاح من خلال جهاز الدولة، لا من خلال الثورة على هذا الجهاز... على حين كانت الثورة وقادتها هي الامتداد المتصاعد لذلك التيار الشعبي الذي بدأ في التبلور بمصر، تحت قيادة جمال الدين الأفغاني منذ سنة ١٨٧١ م.. ولقد أصبحت لهذا التيار صحفه الأهلية، ومنتدياته الشعبية، بل وحزبه الوطني السري.. وهكذا قام بمصر تياران للإصلاح، أولهما تكون في إطار الدولة وجهازها، أيام لم يكن للإصلاح أداة سواها، وثانيهما تكون خارجها، وفي استقلال عنها، وأحياناً كثيرة في تناقض معها، تصاعد شيئاً فشيئاً حتى أصبح عداءً لها وثورة عليها..

وكمثل على هذه الحقيقة.. فإن الخديوي عندما استشعر ضغط الوزيرين الأجنبيين وتدخلهما الفظ في شئون النظارة، لجأ إلى مجلس الشورى كي يعرقل استبداد الأجانب بتقرير مصير المالية، بل ولجأ إلى العرابيين، يدفعهم أحياناً، وبغض الطرف عن تحركاتهم أحياناً أخرى... وهو قد لجأ إلى وزيرين في الوزارة هما رياض وعلي مبارك كي يستخدما «المناورة» السياسية ضد الوزير الإنجليزي «ريفرز ويلسون».. «فأبلغ رياض وعلي مبارك الوزير الانجليزي بعزمهما على الانسحاب من النظارة... وتأكد المستر «بورج» ـ المسئول عن المخابرات القنصلية البريطانية،

وقتذاك ـ بأن الخديوي وراء هذه الأعمال، كما تأكد أن وراء هذه الحركة هدفين:

١ ـ مساندة المشروع المالي الذي قدمه الخديوي في مواجهة مشروع «ريفرز ويلسون». .

٢ ـ إدخال تعديلات دستورية مستوحاة من الدستور التركي الصادر سنة ١٨٧٧ م. بمسئولية النظار أمام مجلس النواب، وأن لا يتم اتخاذ أي قرار نظاري دون الموافقة عليه من مجلس النواب، مما يضعف كل الفاعلية التي كانت مطلوبة من النظار الأوربيين. .»[١]! . .

كان الخديوي، ومعه علي مبارك ورياض ـ من حزب الدولة ـ يتصدون بهذا الأسلوب للتدخل الأجنبي في شئون البلاد المالية. وكانت الثورة التي تمهد لانفجارها الطريق، تتصدى هي الأخرى لهذا التدخل الأجنبي، ولكن بوسائل ثورية وعنيفة. . فما يحاول الوزراء علاجه «بالمناورة الوزارية»، من داخل النظام وجهاز دولته، تعالجه الثورة بالمظاهرة المسلحة التي تطيح بالوزارة التي رأت فيها من الثغرات والسلبيات ما يتيح الفرص لاستمرار التدخل الأجنبي! . . .

لكن تصاعد العمل الثوري يستلزم، بالحتم، حدوث تغيرات في صفوف الثوار، وإضافات لأهداف الثورة، الأمر الذي أحدث

---

(١) [تاريخ الوزارات المصرية] ص ٦٥.

في المعسكر الآخر، معسكر «حزب الدولة» تمايزاً في المواقف والمواقع، وكذلك في الأفكار والنظرة إلى الثورة والثوار. . فلقد أصبح للثورة خصوم يناصبونها العداء، ويذهبون في عدائهم لها إلى حد خيانتها وخيانة أهدافها والتآمر عليهما معاً. . لكن علي مبارك لم يكن من هؤلاء. . **كان رافضاً لها، وفي ذات الوقت على علاقة مع الكثيرين من قادتها. . يلقاهم، ويجتمع بهم، ويقدم لهم العون إذا اتفقت الأهداف. . وذلك دون أن يكون معهم في ثورتهم، ودون أن يؤمن بوسائلهم الثورية في التغيير. . .**

والأمر الذي يجعلنا أكثر ميلاً إلى هذا التقييم لموقف علي مبارك من الثورة العرابية، أن الرجل لم يهاجم الثورة، فيخطب ضدها أو يقول شعراً في هجائها، كما فعل كثيرون غيره من «حزب الدولة»، لم يفعل ذلك لا قبل هزيمتها، ولا حتى بعد الهزيمة، عندما كثر الهاجون وارتفعت درجة البذاءة في الهجاء!. . بل إن صلات الرجل لم تنقطع مع الثورة والثوار حتى اللحظات التي حسم فيها الاحتلال الإنجليزي الموقف لصالح الخديوي ضد العرابيين.

● فعلي مبارك كان يلقى الثوار ويحضر مجالسهم، وفي منازلهم، بل ويستقبلهم في منزله. . والإمام محمد عبده يحكي أن علي مبارك شهد تواجد العسكريين في منزل محمد سلطان باشا ـ أيام كان سلطان ثائراً، وقبل خيانة الوطن والثورة. . ويحكي كذلك اجتماع سلطان وغيره من زعماء الثورة بمنزل علي

مبارك، وفي حضور محمد عبده، وعندما قال سلطان باشا: «إن مصر - [الثورة] - يمكنها أن تجمع ثلاثمائة ألف عسكري، فتحارب أي دولة كانت!»، رأي علي مبارك في هذا الرأي مبالغة «فأجابه بعدم كفاية المالية».. ولما لم تعجبه ردود سلطان باشا - وكان في المنزل مغنون - قال: «نسمع المغنى أحسن!»[1]... فهو، إذن، كان يرى أن مبالغات سلطان أكبر من القوة الحقيقية للثوار!..

● وعلي مبارك كان من بين الذين «بذلوا أموالهم بسخاء في سبيل الحرب» التي قادتها الثورة وقادها عرابي ضد التدخل الانجليزي.. يذكر هذه الحقيقة الإمام محمد عبده، ويورد اسمه في قائمة الذين أعانوا الثورة في هذه الحرب، ويقول إن الجريدة الرسمية - [الوقائع المصرية] - تشهد على ذلك[2].

وهذه الحقيقة على جانب كبير من الأهمية، فهي تثبت أن علي مبارك، وهو من حزب الدولة، وصاحب الموقف المعتدل، الذي يبتعد بصاحبه عن الثورة ضد الخديوي وجهاز دولته، قد وقف مع الثورة ضد التدخل الأجنبي وضد جيش الاحتلال.. فهو مع الثورة ضد الانجليز، وإن تحفظ ضد ثورتها على الخديوي.. وهي وجهة نظر كثير من رجالات مصر يومئذٍ، وبعد ذلك التاريخ، فحتى مصطفى كامل [١٨٧٤ - ١٩٠٨ م]

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ١ ص ٤٤٩.

(٢) المصدر السابق. جـ ١ ص ٤٦١، ٤٦٢.

والحزب الوطني كان من رأيهم أن الشقاق بين العرابيين والخديوي هو الذي فتح للاحتلال الثغرة التي نفذ منها.. فهي وجهة نظر، قد لا تكون الأدق في التحليل النهائي، ولكنها لم تعدم الأنصار!..

● إن صلات علي مبارك بأحداث تلك الثورة قد اقتصرت على الفترات القليلة والاستثنائية التي كان علي مبارك يحضر فيها من بلدته «برنبال» إلى العاصمة. فالرجل منذ أن خرج من الوزارة في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١ م سافر إلى بلدته، فابتعد عن أحداث الصراعات وأطرافها.. وفي الفترات التي كان يقترب فيها من أطراف الصراع ـ وخاصة الخديوي والعرابيين ـ كان يطلع، بحكم صلاته، على ما يجري خلف الأستار من انقسامات في الجيش يتحول بها ولاء البعض إلى مصلحة الخديوي، الأمر الذي يزيد من حذره، ويدفعه إلى موقف المترقب، ويبتعد به عن الانخراط في موكب الثوار.. فهو قد أنبأ الإمام محمد عبده أن الخديوي قد نجح في استمالة «ألاى الحرس بقيادة علي فهمي.. وكذلك في استمالة الألاى الخامس الذي كان مقيماً في الاسكندرية.. واتفق معهما على القضاء على من يخالف الأوامر من بقية الألايات!».. ويحكي محمد عبده أن الوقائع قد أثبتت صدق ما أخبره به علي مبارك، ويصف تدبير الخديوي هذا بأنه كان «من غرائب التدابير، بل من عجائب الألاعيب!»[1]..

---

(١) المصدر السابق. خاص ٥٥٤.

● وبعد ضرب الأسطول الانجليزي للإسكندرية في «يوليو سنة ١٨٨٢ م وقبل احتلالهم للبلاد في سبتمبر شهدت البلاد وضعاً قلقاً وشاذاً وغريباً . . فالخديوي، بالاسكندرية، دخل في حماية أعداء الوطن، والثورة قضت بخيانته فسعت إلى خلعه، وقررت المضي في الاستعداد للدفاع عن حوزة الوطن ضد الغزو وضد الخديوي الخائن . .

وتصادفت، في تلك الفترة، عودة علي مبارك من بلدته «برنبال» إلى القاهرة «لقضاء مصالح له»، وكانت الثورة قد شكلت [المجلس العرفي] كسلطة شعبية تنظر في حال البلاد، يجتمع في ديوان وزارة الداخلية، والخديوي بالاسكندرية، وعرابي في كفر الدوار . . فدعى علي مبارك لحضور اجتماع [المجلس العرفي] مساء يوم الاثنين ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ م (أول رمضان سنة ١٢٩٩ هـ)، وقد وضحت في الأفق دلائل عزم الانجليز على احتلال البلاد، وإن لم يفقد البعض، خصوصاً من المعتدلين، الأمل في تفادي هذه الكارثة الوطنية ودفعها عن طريق الحلول الوسط! . . وقرر اجتماع المجلس العرفي، الذي حضره أربعمائة عضو(١):

١ ـ الاستمرار في الاستعدادات العسكرية للدفاع عن الوطن . .
٢ ـ وتشكيل وفد سداسي للاتصال بقيادة الثورة في كفر الدوار،

(١) يقول سليم نقاش إن الذين حضروا هذه الجلسه كانوا سبعين فقط. انظر [مصر للمصريين] جـ ٥ ص ١٣٠.

وبالخديوي في الاسكندرية، لإيجاد مخرج من الوضع والخطر الذي وصلت إليه الأمور. وتألف الوفد، بالانتخاب، من اثنين يمثلان «الذوات» [الباشوات]، هما: علي مبارك، ومحمد رؤوف.. واثنين يمثلان التجار، هما: أحمد بك السيوفي، والشيخ سعيد بك الشماخي -[وكيل دولة مراكش بمصر]-، واثنين يمثلان العلماء، وهما: الشيخ علي نايل، والشيخ أحمد كيوه.

وسافر الوفد إلى كفر الدوار، واجتمعوا بعرابي ورفاقه.. ثم سافر علي مبارك وأحمد السيوفي، نيابة عن الوفد، إلى الاسكندرية مساء الأحد ٢٣ يوليو، واجتمعوا بالخديوي صبيحة يوم الأثنين ٢٤ يوليو..

ووضحت المخاطر أكثر فأكثر لعلي مبارك.. فرأى تصميم الخديوي على القطيعة مع عرابي وقادة الثورة، الأمر الذي يتيح للجيش البريطاني تنفيذ أهدافه باحتلال البلاد تحت مظلة شرعية يمثلها رضاء الخديوي وتحبيذه.. فمال الرجل، ومعه أحمد السيوفي إلى حل رآه وسطاً، وهو ابتعاد قيادة الثورة عن مقاليد السلطة[١]، وعقد مجلس يمثل المعسكرين، لإيجاد اتفاق يسد

(١) كانت انجلترا وفرنسا قد قدمتا مذكرة مشتركة في ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ م تطلب سقوط وزارة البارودي، ونفي عرابي للخارج، وتحديد محل إقامة عبد العال حلمي وعلي فهمي الديب بالأرياف.. ورفض العرابيون المذكرة، ولما قبلها الخديوي حدث الانشقاق بينهم وبين القصر.. ويعد اقتراح علي مبارك عودة إلى هذه المذكرة. انظر: الرافعي [الثورة العرابية] ص ٤٣٨. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

الثغرة التي ينتهزها الانجليز لاحتلال البلاد من خلالها..

وفي ٢٨ يوليو سنة ١٨٨٢ م (١٢ رمضان سنة ١٢٩٩ هـ) بعث علي مبارك إلى عرابي رسالة قال فيها:

«بحمد الله تعالى وصلنا إلى الاسكندرية، وأخذنا نسعى في الأشتغال بالأمور المحولة على عهدتنا من قبل المجلس المنعقد بالقاهرة، كما أن ذلك في علم سيادتكم، وانتظرنا حضور باقي الأعضاء، ولغاية اليوم تاريخه لم يحضروا، فالمرجو مساعدتهم حتى يتمكنوا من الحضور.

ثم، في علم سيادتكم أهمية مأموريتنا، وما تحتاجه من المذاكرات، فلأجل الوصول إلى الغاية المقصودة، في الزمن القليل، يلزم أن المخابرات بيننا وبين سعادتكم تكون بواسطة التلغراف، فإن تحسن تأمروا بإعادة خط التلغراف، وبهذه الكيفية تسهل المخاطبات التي ربما ينتج منها فائدة الوطن وحفظه من الغائلات.

وغير ذلك، أعرض على سعادتكم أن تقرر تشكيل قومسيون يكون مركباً منا ومن الذوات يجتمع مع قومسيون مركب ممن تعينونه وتعتمدونه من أمراء العسكرية، ليجتمعوا في محل يصير تعيينه بالاتفاق، للمذاكرة في الأحوال الحاضرة، بأمل الحصول على نتيجة توافق الجميع، وتزيل هذه النازلة عن وطننا العزيز. فإن تحسن فلتعينوا سعادتكم المحل والذوات العسكرية، وتفيدونا بما ترونه. أفندم!»

ويتضح من رسالة علي مبارك هذه أن الرجل لم يعد يتصرف في حدود المأمورية التي كلفه بها [المجلس العرفي]، فهو قد مال إلى إيجاد حل وسط، وليس إلى خلع الخديوي، كما كان الاتجاه الغالب في [المجلس العرفي]، وذلك لوضوح مخاطر الاحتلال الوشيك، ولاعتقاد اعتقده، ورأى على ضوئه أن الحل الوسط، الذي يوحد صفوف الوطن، بعد استبعاد قادة الثورة، يمكن أن يدفع «النازلة عن الوطن العزيز، ويحقق فائدته، ويحفظه من الغائلات!».

ويتضح من هذه الرسالة كذلك أن علي مبارك، رجل الدولة وابنها، أصبح يتكلم كممثل لجانب الخديوي، ويطلب من عرابي تعيين ممثلين لمعسكره، كي يجتمع الفريقان للاتفاق على مخرج من المأزق الذي وضعت فيه البلاد..

ويتضح من هذه الرسالة أيضاً أن علي مبارك لم يكن «صوت سيده»! فالخديوي كان قد عزل عرابي من منصبه في ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢ م، [٤ رمضان سنة ١٢٩٩ هـ][1]، ولكن علي مبارك يطلب منه، كزعيم لمعسكر الثورة وناظر للجهادية وقائد للجيش، اختيار وفد يمثلها للوصول إلى حل وسط.

ولقد رفضت الثورة، على لسان عرابي، الاستجابة لاقتراح علي مبارك، ورد عليه عرابي برسالة جاء فيها: «نحمد الله على

(١) [مصر للمصريين] جـ ٥ ص ١٣٢.

وصول سعادتكم بالسلامة، وبعد. فإني تشرفت بورود إفادة سعادتكم، التي تطلبون مني تعيين قومسيون من العسكرية لانضمامه مع قومسيون يتشكل من سعادتكم ومن بعض الذوات، للمذاكرة في الأحوال الحاضرة. وحيث إن المعلوم لنا هو أنه صار عقد مجلس حافل عمومي بمصر، من ذوات العسكرية والملكية والعلماء والتجار والأعيان والرؤساء الروحانيين، وكنتم، سعادتكم، من ضمن الموجودين به، وما كان عقد هذا المجلس إلا للنظر في الأحوال الحاضرة، واتخاذ التدابير اللازمة في وقاية البلاد. وقد قرر، كما تعلمون سعادتكم، باستمرار التجهيزات الحربية، وبإرسال سعادتكم مع من تعين معكم لمأمورية مخصوصة ومحدودة. ومن هذا يرى لسعادتكم أنه لا يوجد لي أدنى صفة أو حق لتعيين قومسيون من طرفي، لا أدري الغرض منه، بعد قرار المجلس الذي صار عقدة بمصر. على أني لست مستقلاً بعمل أمر ما، بل إني مطيع ومنقاد في أي حال لما تأمر به الأمة، ولهذا فإني متأسف لعدم إمكاني إجابة طلب سعادتكم. وباقي الوفد حضر، حسب سابقة طلبكم، وها هو مرسل لكم. أفندم!»[1].

لقد رأى عرابي، وهو محق، أن علي مبارك قد تعدى حدود «المأمورية المخصوصة والمحددة» التي كلفه بها المجلس العرفي، فرفض الاستجابة لدعوته إلى تكوين مجلس جديد ينظر من جديد

---

(١) المصدر السابق. جـ ٥ ص ١٣٣.

في إيجاد مخرج وحل وسط، هو بالتأكيد سيبعد قادة الثورة عن مواقعهم ومسئولياتهم.. فانقطعت بذلك صلات علي مبارك بالثوار، وبقي إلى جوار الخديوي بالاسكندرية حتى وقعت الواقعة وهزمت الثورة، بالخيانة، في سبتمبر، فعاد علي مبارك إلى القاهرة في صحبة الخديوي بعد هزيمة العرابيين، عاد وزيراً للأشغال في، وزارة شريف باشا التي صدرت أوامر تشكيلها في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ م، أي قبل أقل من شهر من هزيمة العرابيين.

وبعد الهزيمة.. تصاعد العداء للثورة والثوار، وتحولت أنهار الصحف، حتى التي كانت تؤيد الثورة، إلى ذمها وهجاء قادتها بأبشع الكلمات وأخس الصفات!.. بل وشارك في هذه النقيصة عدد من الذين شاركوا في الثورة أو استفادوا منها!.. ولكن علي مبارك كان عف اللسان، عزوفاً عن الدخول في هذا الميدان، وعندما عرض لأحداثها في كتابه [الخطط] بعد ذلك بسنوات لم يزد حديثه عن نحو سطرين سماها فيهما «الفتنة المشئومة»!.. وكانت تلك، في ذلك التاريخ، أخف الأوصاف التي توجه إلى الثورة العرابية والثوار العرابيين!..

وظل علي مبارك وزيراً للأشغال في وزارة شريف، بعد قيام الاحتلال، حتى حدثت أزمة إخلاء السودان، الذي طلبه الانجليز، فرفضته الحكومة، فأنذرها اللورد جوانفيل في ٤ يناير سنة ١٨٨٤ بتبليغ يقول فيه: «لا أرى حاجة إلى أن أوضح لكم

إنه من الواجب، ما دام الاحتلال البريطاني المؤقت قائماً في مصر، أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة إتباع النصائح التي ترى إسداءها للخديوي في المسائل الهامة التي تستهدف فيها إدارة مصر وسلامتها للخطر. ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها إلى أن تصر على اتباع السياسة التي تراها، ومن الضروري أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقاً لهذه السياسة. وإن حكومة جلالة الملكة لواثقة من أنه إذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء، فهناك من المصريين، سواء من شغلوا منصب الوزراء أو شغلوا مناصب أقل درجة، من هم على استعداد لتنفيذ الأوامر التي قد يصدرها إليهم الخديوي بناءً على نصائح حكومة جلالة الملكة؟!».

ولم يكن علي مبارك من هؤلاء الذين يلوح اللورد جوانفيل بالإشارة إليهم، لم يكن من الخاضعين، ولا من المسارعين للحلول محل رافضي الخضوع لسلطة الاحتلال، فاستقال مع الوزارة، وجاء في خطاب الاستقالة، المقدم في ٧ يناير سنة ١٨٤٤ م، عن السودان، موضوع الأزمة: «... إن تلك المديريات التابعة للباب العالي قد وضعها أمانة في أيدينا لنديرها، فإذا أصرت بريطانيا على أن تكون توصياتها نافذة بغير معارضة منا كان هذا العمل مناقضاً مع أحكام الدكريتو الخديوية الصادر في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ م، الذي يشترط أن يحكم الخديوي بواسطة وزرائه، وبالاشتراك معهم. لذلك نقدم استقالتنا، لأنه

قد حيل بيننا وبين أداء مهمتنا وفقاً للدستور!»[1]..

تلك هي قصة علي مبارك مع «الدولة» و«الثورة».. وذلك هو موقفه بين هاتين المؤسستين... لقد نشأ في حضن الدولة، ومارس، الإصلاح والتنوير بواسطتها، مع النقد للسلبيات.. ورفض الثورة، أسلوباً للتغيير، ولكن دون أن يناصبها العداء، ودون أن يحوّل رفضه لها إلى معركة تفقده علاقاته بالثوار، أو تضعه بين الذين أسفوا في الهجوم والهجاء.. وعندما كانت الثورة تواجه الغزو الأجنبي، وقف معها، ودعمها بالمال والرأي، فلما حسم التدخل الأجنبي الكفة لصالح الخديوي، وقف علي مبارك مع الدولة، لأن الثورة، في رأيه، كانت قد طويت صفحتها حتى قبل موقعة أهل الكبير!..

* * *

لكن... يبقى سؤال لا بد من الإجابة عليه، وهو: مع من يتعاطف الكاتب والمؤرخ، وخاصة إذا كان منحازاً إلى صف الثورة كأداة من أدوات التغيير لمجتمعات الجور والفساد؟!.. أمع الثوار العرابيين؟ أم مع المعتدلين من حزب الدولة، مثل علي مبارك؟!..

والجواب، الذي نملكه، يتلخص في أن عواطفنا هي، بلا شك، مع الثورة العرابية، ومع قائدها وابن مصر البار أحمد

(١) [تاريخ الوزارات المصرية] ص ١١٥، ١١٧.

عرابي، مهما تكن لنا أو لغيرنا من ملاحظات أو تحفظات على سير بعض الأحداث وطبيعة بعض الأفكار في تلك الأثناء.. وإذا تخيل الإنسان منا نفسه مواطناً يعيش تلك الأحداث، فسيخيل نفسه كذلك واحداً من جنود الثورة، الذين لا يعيرون كبير التفات إلى حجج المعتدلين، لأن الاعتدال في لحظات الثورة الحاسمة مرفوض من الثوار، ففي لحظات اشتعال النار ليست هناك مواقف وسط، والبحث دائماً إنما يكون عن الحلقة الرئيسية، في الموقف، والتي يحسم الإمساك بها الموقف كله، دونما كبير اعتناء ببقية الحلقات.. في مثل تلك اللحظات تقف الألوان عند اثنين فقط.. إما أبيض؟ وإما أسود؟.. وأنت مع؟ أو ضد؟..

لكن.. ليس هكذا يكون موقف المؤرخ الذي يقيم مثل تلك الأحداث بعد أن أصبحت صفحات من التاريخ... فلا الحماس الزائد للثورة التي هزمت سينصرها.. ولا الانحياز لموقف المعتدلين من حزب الدولة، سيقلل من جلال الثورة وروعة أهداف الثوار.. وإذن فالمطلوب الآن هو إبصار كل المواقف وتبين كل الاتجاهات، وإدراك كل الخلفيات، والتمييز الدقيق والموضوع بين دوافع مختلف الفرقاء ونوايا جميع المعسكرات..

فعلى الذي خان: اللعنة، مهما قدم من حجج وتبريرات..

وللذي اعتدل بين طرفي الصراع الرئيسيين، ورام الإصلاح،

لكن بوسائل غير الثورة، ودونما عداء لها . . له اليوم أجر بمقدار ما كانت لمواقفه من غايات طيبة ونوايا حسنة . . وبمقدار ما تدخل في إطار «الاجتهاد»، حتى ولو كان خاطئاً! . .

وللذين سلكوا طريق الثورة كل الأجر على ما قدموا لوطنهم من عطاء فاق عطاء أي فريق من الفرقاء الذين أخلصوا لوطنهم في ذلك الحين . .

وحتى نزيد أمر موقفنا وتقييمنا هذا إيضاحاً نقول:

من منا لا يمنح ولاءه لفريق علي بن أبي طالب في صراعه ضد معاوية بن أبي سفيان؟! . . فلو عاش الواحد منا أحداث ذلك الصراع لكان جندياً في جيش علي . . ولو ظفر المرء منا بمعاوية لعاداه!! . . فلا موقف وسط . . ولا تردد بين طرفي الصراع . .

أما الآن . . فإننا ونحن ندين مظالم معاوية وبني أمية، وما أحدثوا في نظام الحكم الإسلامي وسنة الراشدين من انقلابات، لا يمكن أن تغفل عين المنصف منا . عن أن بني أمية قد بنوا أمبراطورية عربية، لعبت دورها العالمي ومهدت لبزوغ شمس حضارتنا العقلانية على الدنيا كلها في ظل حكم بني العباس . . فعلى أشلاء الضحايا، ومن خلال المجازر، وبدماء الشهداء، قامت، وكتبت صفحات مجيدة في التاريخ! . . ومن ثم فلا بد أن يكون تقييم المؤرخ للتاريخ متميزاً، بالمرونة، والرؤية الشمولية، وتقدير النوايا والغايات والدوافع، وإعطاء كل ذي حق حقه، على عكس موقف الثائر المنخرط في الحدث الثوري، إذ قلما يبصر

أكثر من معسكرين: معسكر الثوار والثورة، ومعسكر الأعداء!..

وعلى هذا... فقد يكون موقف المعتدلين، من أمثال علي مبارك، قد أضر، على نحو ما بالثورة العرابية، ولكن تجاهل دوافع هذا الفريق، وعدم التمييز بين موقفهم وموقف الذين خانوا الثورة والوطن، أو ناصبوا الثوار العداء.. هو موقف أشد ضرراً في تقييم أحداث التاريخ وكتابة صفحات الرجال الذين لعبوا فيه أدواراً بارزة استهدفوا منها خدمة أمتهم، بصرف النظر عن السبل التي اختارها كل منهم لبلوغ هذه الأهداف..

لقد كان علي مبارك: مع الدولة.. وناقداً لها..
وضد الثورة.. وإن اتفق مع أهلها في الغايات!... رحم الله الجميع!!..

في الوطنية

[... إن المدافعة عن الوطن واجبة على العموم، لا فرق فيها بين مالك ومملوك، وشريف وصعلوك!...

... ولقد صح الحكم بأن مصر كانت ينبوع علوم الدنيا، ومعدن كثير من خيراتها، وأن أهلها هم الذين أوصلوا نوع الإنسان إلى أن تنقاد إليه آثار القدرة الإلهية!...

والمصريون هم أقرب الناس إلى الإصلاح، وأسرعهم تقدماً في سبيل الفلاح، إذا وجدوا حاملاً على ذلك..

وقديماً قيل: من علامات الرشد: أن تكون النفس إلى بلدها تواقة، وإلى مسقط رأسها مشتاقة!...]

علي مبارك

ليست الوطنية عند علي مبارك تعصباً، ضيق الأفق، لإقليم من الأقاليم أو وطن من الأوطان، حتى ولو كان هذا الوطن هو مصر، التي أخلص لها الحب، وقدم لها كل ما ملك من بذل وعطاء.. وإنما الوطنية عنده موقف يصدر صاحبه من عشق للحضارة، فيندفع عاشقاً لموطنها ومهدها، حتى ليعشق كل مواطن الحضارة، للدور الذي مثلته في تهذيب النوع البشري وترقيته وتحضره.. ومن هنا كانت الوطنية عنده، كما تمثلت في حبه لمصر، موقفاً حضارياً، ونزعة لا تعصباً ضيق الأفق لإقليم من الأقاليم.

وأهمية فكر علي مبارك في الوطنية، أنه حلقة في سلسلة مفكري الوطنية في تراثنا الحديث، أولئك الذين كان الطهطاوي رائدهم في إعادة مصطلح «الوطنية»، ثانية، إلى أدبنا السياسي وقاموسنا الفكري، بعد أن أهملته عصورنا الوسطى، وخاصة «المملوكية ـ العثمانية»، عندما قسمت البشر على أسس دينية، وأسقطت حدود الأوطان والقوميات والحضارات، فجاءت هذه

المدرسة المستنيرة الحديثة للتحدث عن «الوطن»، وعن علاقة «المواطنة» التي تجمع أبناء «الأمة» الواحدة، وتؤلف بينهم، بصرف النظر عن المذاهب والأديان التي بها يتمذهبون ولها يدينون. . فكانت طوراً جديداً في الفكر، عكس الطور الجديد الذي دخل فيه إنساننا العربي، طور العصر الحديث. .

والوطنية عند علي مبارك موقف، يعبر عنه ويجسده العطاء، عطاء المواطن لوطنه، مهما اختلفت وتعددت صور هذا العطاء، لأنها قد نبعت من العطاء، عطاء الوطن، غير المحدود، للذين أقلتهم أرضه وأظلتهم سماؤه، للمواطنين!. . فهي علاقة «جدلية. . متبادلة»!. . ومن ثم فإنها، عنده، مرتكزة إلى فلسفة تحكمها، بل وتحكم كل ظواهر هذا الكون الذي نعيش فيه. . فبقدر ما تعطي السماء الأرض، تعطي الأرض السماء. . وعلى قدر هبة الواهب يجب أن يقدم الموهوب له البديل والمقابل والجزاء. . وهكذا وجبت الوطنية، أي استحق الوطن أن يسدد له الأبناء بعض الدين الذي داينهم به منذ المولد، بل وقبل أن تشرق عليهم شمس الميلاد. . إنها تعبير عن قانون الوحدة والتفاعل والتأثير والتأثر في هذا الوجود!. .

عن هذه الفلسفة يحدثنا علي مبارك فيقول: «. . . ومن نظر في هذا العالم، وسير أحواله، وتدبير قوانينه، وجد بين أفراد كل نوع من أنواعه، وبين كل نوع وغيره من العالم، وكل جنس وآخر من أجناسه ارتباطاً تاماً يستدعيه كمال نظامه، كما أنه يجد هذا

الارتباط بين العالم السفلي والعالم العلوي أيضاً، ألا ترى أن الشمس تشرق على الأرض بأنوارها، فتنبث أشعتها في أنحائها وأجزائها، فينفصل بواسطة الحرارة بخار يرتفع، لخفته، على الهواء، فينعقد سحاباً في جو السماء، تثيره الرياح فتسيره إلى حيث شاء الله من الأماكن القاصية والدانية، فيتراكم ويسقط على الأرض ماء تخرج به الأرض أنواع النبات والثمرات رزقاً للعباد، كما قال سبحانه: [وجعلنا سراجاً وهاجاً، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً، لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً][1]؟

ثم يرى أن كل مخلوق حصل على شيء من هذا العالم، أياً كان، مما ينزل من السماء أو يخرج من الأرض، صار ذلك الشيء أشبه بدين في ذمته، مجبور على وفائه، قضت عليه الحكم الأزلية والأحكام العلية بتعويضه وأدائه بعد حين إلى الأرض أو السماء، بواسطة التحليل والتركيب المتبادلين المتعادلين، لاستمرار النظام وبقاء هذا الكون إلى أن يشاء الله.

فإذا علمنا ذلك في الأمور النظرية والأحوال القسرية، ناسب أن نراعيه كذلك في أحوالنا الإرادية وأفعالنا الاختيارية. فكل خير حصلنا عليه في هذه الحياة ألزمنا أنفسنا القيام بتعويضه ومقابلته بالجميل، على قدر الإمكان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

---

(١) النبأ: ١٣ - ١٦.

ومن أعظم ما نرى أنفسنا مدينين له، مطالبين من جهته، مغمورين بحقوقه المقدسة، هذا الوطن الجليل الذي نشأنا به، وعشنا فوق أرضه وتحت سمائه، ونعشنا بهوائه، وروينا بمائه، واغتذينا بنباته وحيوانه، وانتفعنا بسائر أجزائه، وهو في كل آن يمدنا ويفيدنا ويعيطينا ويزيدنا، كما كان صنيعه مع آبائنا وأجدادنا السابقين، وكذلك يكون شأنه مع أبنائنا وأحفادنا اللاحقين، فلزمنا أن نقدره حق قدره، ونأتي على آخر جهدنا واستطاعتنا في منفعته وخيره. ولا شيء أنفع له وأجلب للخير والبركة إليه من تعليم أبنائه وبث المعارف والفنون النافعة فيهم، حتى يعرفوا حقوقه، ويكونوا يداً واحدة في نفعه وخدمته وإيصاله إلى غاية ما يمكن أن يصل إليه من الغبطة والسعادة والرفعة وعلو المكانة، وبذلك تزداد خيراته وبركاته عليهم وعلى نسلهم وعقبهم وخلفهم من بعدهم...»[1].

فالوطنية عطاء، تجعل «الوطني» متسقاً مع القانون الذي يحكم ظواهر الكون وقواه ومكوناته.. أما غيره، فهو الشاذ الناشر. الخارج عن قانون الحياة والأحياء، بل وعن سنة الجمادات والنباتات!..

والحنين إلى الوطن مظهر معبر عن هذه القوة التي تمتلك الإنسان، قوة «الوطنية».. ففي الغربة، يهيم الشيخ «علم

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٣١٧، ٣١٨.

الدين» عندما يتذكر وطنه. . وليس ذلك بالأمر الغريب، «فلقد قيل: من علامات الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة، وإلى مسقط رأسها مشتاقة!»[1].

وحتى الذين أصابت الوطنية عندهم العلل والأمراض، فمالوا إلى الغزاة الفرنسيين عندما قدموا تحت قيادة بونابـرت سنة ١٧٩٨ م «فدخلوا تحت طاعة الفرنسيس، وانضموا إليهم. . . من القبط المصريين ونصارى الشام ومن بقي من المماليك الذين كانوا بمصر قبل دخول الفرنسيس إليها. .». . ثم رحلوا مع الغزاة المنسحبين سنة ١٨٠١ م عندما رأوا «أهل مصر يتوعدون كل من دخل في زمرة الفرنساوية بالقتل وبغيره. .» حتى هؤلاء المرضى، يلتقي الشيخ علم الدين ببعض منهم في رحلته بمرسيليا وباريس، فيشهد ندمهم، وعودة «الوطنية» صحيحة معافة إلى قلوبهم وعقولهم، فيحدثونه كيف «إن حب الوطن لا يبرح من بالنا، وأفكارنا لا تفتر عن ذكر أهلنا. . . ولو كنا نعلم الغيب. .» لما كان الذي كان[2]!

إنها كالدين والتدين، قل أن يبرأ منها القلب أو يخلو من آثارها، اللهم إلا لفترات عارضة، هي أشبه بالغيبوبة تغشى المرء عندما يغفل عن قانون الحياة!. .

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٤٨٣، ٤٨٤.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٩، ١٠.

وإذا كانت الوطنية عطاء يرد به الوطني بعض العطاء الذي نال. وإذا كانت الحضارة والتحضر هي قمة العطاء الذي يقدمه الوطن لأبنائه، فإن مصر، مهد الحضارة وأمها وصانعتها العتيقة العريقة، هي موطن التقدير والإعزاز والعشق من مفكرنا العظيم... «.. فهي ينبوع علوم الدنيا، ومعدن كثير من خيراتها... وأهلها هم الذين أوصلوا نوع الإنسان إلى أن تنقاد إليه آثار القدرة الإلهية!..»[1].

فمنذ الأزل كانت للقدرة الإلهية في الكون آثار وسنن وقوانين.. ولقد ظلت مجهولة، ومن ثم ظل مصدرها مجهولاً، حتى ارتادت مصر ميادين العلوم والفنون وساحات الحضارة، فتعرفت على الآثار والسنن والقوانين، واكتشفت القوة الكامنة من خلفها، وأخذت بيد الإنسانية كلها إلى ارتياد هذه الميادين..

يشهد بذلك علماء جمعية الاستشراق الذين احتفوا بالشيخ «علم الدين» بباريس، عندما يذكرون فضل مصر على الرومان واليونان، ومن ثم فضلها على الحضارة الأوربية الحديثة.. «فإن جميع العلوم النافعة في بلادنا منقولة لنا من مصر بواسطة الرومانيين وغيرهم، والتقدم الذي تفتخر به بلادنا منشأه مصر، فلها علينا الفضل، بل على جميع سكان الكرة!..»[2].

ويشهد بهذا الفضل، أيضا، الرائحون والغادون من حول

(١) [نخبه الفكر المقدمه.. [انظرها في المجلد الثالث من أعماله الكاملة].
(٢) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ٢١١.

الآثار المصرية التي انتقلت فانتصبت في ميادين باريس، فبينما الشيخ علم الدين وصاحبه الانكليزي يتجولان بباريس، ويعبران أحد ميادينها.. «.. وإذا بشيخ كبير انسل من بينهما، وهو يقول: هذا أثر - [مسلة] - من آثار المصريين.. دالّ، بذاته، على عظم قدرتهم، وقوة بأسهم وسطوتهم، وغزارة علومهم، ورزانة عقولهم، وتالله إنا ما علمنا إلا بعض ما علموا، ولا وصلنا إلا لقليل مما وصلوا، فيا أيها الأثر الجليل، أنبئنا عن أحاديث الماضين، وما كانوا عليه في تلك السنين؟!..».

ولا ينسى الشيخ علم الدين أن يذكر لقومه أن الشيخ الفرنسي الذي مدح أسلافهم قد قال: إن المصريين: «قد أخنى عليهم الزمان!»[1].. فهو يستحثهم النهوض ليكونوا حقاً خير خلف لخير سلف.. فليست الوطنية أنشودة تترنم بأمجاد الماضي، فحسب، بل إنها إن صنعت ذلك فإنما تصنعه كي يكون الحاضر أجمل والغد أكثر إشراقاً، وأوسع حرية، وأعظم عدلاً، وأخف في القيود!..

بل حتى هذه «الوطنية» التي تبدو لنا في صورة أنشودة تترنم بالماضي المجيد والبعيد، لا تتناول مصر بمعزل عن جيرانها، مفصولة عن الجسم الذي كانت دائماً قلبه وعقله وقاعدة حركته عبر التاريخ.. فلقد ارتبط مجدها واقترنت قوتها بخروجها من العزلة، التي كانت دائماً القيد الذي اجتهد الأعداء أن يضعوا فيه

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٢٣٧.

عقلها وقدراتها عبر مراحل صراعهم الطويل ضدها وضد بلاد الشرق كلها.. فعندما كانت «حكومتها تمتد إلى السودان... وجبل طارق... وسوريا... وسواحل البحر الأحمر الشرقية والغربية... وباب المندب... وتشق أساطيلها بحر الهند والخليج...» كانت المنطقة تشهد وحدتها، فتملك مصيرها وتصنع قدرها، وتصد عنها الغزاة... ذكر ذلك المؤرخون القدامى... ومنهم «هيرودوت [٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق. م] وديودور الصقلي [الربع الأخير من القرن الأول ق. م] اللذان تحدثا عن قوة مصر العسكرية التي وصلت ستمائة ألف، ما بين فرسان ومشاة[1]!...

وهذا المجد الذي يريد له علي مبارك أن يعود، وتلك الحضارة التي يذكر قومه بعظمتها كي ييمموا وجوههم شطر مجتمعاتها الأوربية كي يتعلموا، ويسيروا على الدرب، درب أسلافهم وتلامذتهم الأوربيين.. **كل ذلك لا سبيل إليه إذا لم نكن أحراراً مستقلين... فالذين يرون التبعية لأوربا الاستعمارية ثمناً مقبولاً للتحضر، مرفوضون وفكرهم مرفوض... والأوربيون الذين يربطون تحضر الشرق بحلولهم فيه وإمساكهم بمقاليد أمره، هم مستعمرون لا يبغون لبلادنا تقدماً ولا تحضراً...**

ولقد كانت هناك دعاوي كثيرة حول مثل هذه الأفكار،

---

(١) [نخبة الفكر] الباب الثالث في أهل القطر. فصل في تعداد أهل القطر المصري.

وخاصة حول «الأثر التمديني» للحملة الفرنسية، لو استمرت ولم تجبرها المقاومة المصرية والثورات الشعبية على الرحيل! . .

ولهذه الدعاوي تصدى علي مبارك بالدراسة والنقد والتفنيد . .

فلقد زعموا أن الفرنسيين لم يكونوا أعداء للعنصر الوطني، وإنما كانوا فقط أعداء للمماليك، الظلمة الطغاة المتخلفين، وأن المقاومة التي أجبرتهم على الرحيل كان مردها ومحركها هم المماليك. . .

لكن علي مبارك يرى في ذلك تزييفاً للواقع الذي حدث أيام الحملة الفرنسية. . فيحكي الشيخ «علم الدين» كيف رأى ـ وهو صغير ـ والده، رغم شجاعته وتجلده في قريته، قد اضطرب «لعموم البلوى» ـ والبلوى هنا كانت الاحتلال الفرنسي الذي يقتل ويسلب، والمماليك التي تظلم، والأعراب التي تنهب. . . فالكل ضد العنصر الوطني، وهم جميعاً أعداؤه الحقيقيون، لأنه هو البقرة الحلوب التي على لبنها يتنازعون! . . فوالد علم الدين يدخل على والدته ويخرج، وهو يقول لها: «ماذا ترين في هذا الحرج؟! . . العرب في البادية، تنهب. . والمماليك تفسد وتخرب. . والفرنج في الطريق تقتل وتسلب! . . فمن فر من قوم وقع في يد آخرين!»[1]

وما زعمه بونابرت من صداقة للسلطان، واحترام للإسلام ـ

(١) [علم الدين] المسامرة الثالثة والتسعون (الفرنسيس في مصر).

بل اعتناق لعقيدته ـ وما تظاهر به من ود للعرب والمسلمين، لم يكن، عند علي مبارك، إلا دسيسة استهدف من ورائها تمهيد السبل للغزو والاستيلاء.. فالفرنسيون وهم في طريقهم لغزو مصر، عرجوا على جزيرة مالطة، وكان بها عدد من الأسرى العرب الذين أسرهم القراصنة الأوروبيون في صراعاتهم ضد التجار العرب والتجارة العربية في البحر المتوسط.. فأطلق الفرنسيون سراح هؤلاء الأسرى، وأرسلوهم إلى ذويهم، وخاصة في مصر قبيل مجيء جيش الاحتلال، كي يمهدوا الأرض فيستقبل أهلها الجيش الذي فك أسر أساري المسلمين!.. لكن الحقيقة تقول إن هؤلاء العائدين كان أغلبهم جواسيس يتكلمون العربية بلهجة مغربية!. وأنهم جاءوا عيوناً على مقاومة الشعب للغزاة!.. يفضح علي مبارك تلك المحاولة، فيقول: «... ومن يتأمل فيما كان يصدر من الفرنسيس، مما ظاهره العدل والإصلاح، يجد أنه لا يخلو من دسيسة ومكيدة لتحصيل أغراضهم. مثلاً: إطلاقهم لأساري المسلمين الذين وجدوهم بمالطة، فإنما هي مكيدة من مكائد الحرب. وذلك أنهم حين وصلوا إلى ثغر الاسكندرية كتبوا كتباً وأرسلوها إلى البلاد التي هم قادمون عليها، تطميناً لهم، لئلا يتنبهوا أو يحاربوهم. فأوهموهم أنهم قادمون من قبل السلطان، وأرسلوا هذه الكتب مع هؤلاء الأسارى، **وأرسلوا بصحبتهم جواسيس من مالطة يعرفون اللغة العربية، ويتكلمون بلغة المغاربة، فلم يمتازوا عن أسارى المسلمين**، فلما وصلوا إلى مصر صار الجواسيس الذين أرسلوهم

يوسوسون للناس ويثبطونهم ويحلون عزائمهم عن القتال، فكانت هذه أيضاً مكيدة من مكائد الحرب. فلما قامت الحرب بين المسلمين والفرنسيس خفي أكثر الأسرى، ولم يدر أين ذهبوا؟ وما ذهبوا، في الحقيقة، إلا إلى جيش الفرنسيس ليخبروهم بما سمعوه وما شاهدوه من المسلمين!»[1].

و«حكاية» العدل الفرنسي في مصر يفضحها، هي الأخرى، علي مبارك، عندما يتحدث عن بشاعة العقوبات الاقتصادية التي فرضها بونابرت على المصريين عقوبة لهم على طموح ثوارهم إلى الحرية، التي كان يرفع أعلامها ويكتب اسمها على الطيالس والرايات! . . وكيف استعان بشذاذ الآفاق، وبنفر من أراذل القبط في إنزال هذه العقوبات بعامة الناس . . فعقب ثورة القاهرة ضد الاحتلال احتجب بونابرت عن لقاء الناس «وامتنع من مقابلة المسلمين، وكذلك قلده عظماؤهم . . . وعينوا لجمع الأموال ـ [المفروضة كعقوبات] ـ رجلاً قبطياً يسمى شكر الله، فنزل بالناس منه بلاء شديد. فكان يمشي وصحبته عسكر من الفرنسيس، وجماعة من الفعلة، بأيديهم آلة الهدم، فإذا دخل داراً ولم يدفع له صاحبها ما عليه، أمرهم بهدمها! . وأقبح شيء ما فعله بأهل «بولاق»، فإنه كان يحبس الرجال مع النساء، ويدخن عليهم بالقطن والكتان! . ثم فعل بأهل مصر ـ [الفسطاط ـ مصر القديمة] ـ كذلك! . كل ذلك في شهر واحد،

---

(1) المصدر السابق. نفس المسامرة.

وفي آخره قاموا دفعة واحدة على جميع الخانات والوكائل فختموا عليها، ثم صاروا يفتحونها واحداً واحداً، ويأخذون ما فيها فيقومونه بأبخس الأثمان، فإن بقي لهم شيء من الغرامة، أخذوه من جاره، وإن زاد شيء أحالوا صاحبه على جاره!. وهكذا حتى أخلوا جميع الخانات والوكائل من البضائع، وأخذوها وأربابها ينظرون، . . وكانوا إذا فتحوا خاناً أو دكاناً ووجدوا به أشياء ثمينة أو صرة فيها دراهم أو دنانير أخذها أمناؤهم ووكلاؤهم بحضرة صاحبها. . . وفي ذلك الشهر بعينه حرروا دفاتر العشور - [الضريبة على الأرض]. . . واستملوا أسماء البلاد والكفور من القبط فأملوها عليهم، حتى الكفور التي خربت من مدة سنين، فربما أملوا أسماء من غير مسميات. . . ثم أمروا بتوزيع مليون - [١٨٦,٠٠٠ ريال فرنسي] - على أرباب الصناعات والحرف!. . .»[1].

تلك قصة «العدل» الفرنسي المتحضر بمصر، كما كشف عنها وكشفها علي مبارك!. .

ومن ثم. . فلم يكن غريباً ولا شاذاً أن يثور المصريون، رفضاً للجور ودفعاله، وأيضاً، وبالدرجة الأولى، استجابة للنزعة الوطنية التي ترفض سيطرة الأغراب!. . فهذه الثورة وتلك المقاومة لم يكن مرجعها فقط تحريض المماليك، كما زعم الفرنسي

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ٢٩٧، ٢٩٨.

الذي لقي الشيخ «علم الدين» بباريس، وكان ممن حضر الغزوة مع بونابرت.. لقد قال الفرنسي لعلم الدين:

- إن أصل العداء من المماليك، الذين جعلوا مصر غنيمة لهم... ولم يكن للفرنج غرض إلا إصلاح الحال... ولو قدر وبقينا بأرض مصر إلى الآن لكان خيراً للمصريين!..

فأجابه علم الدين:

- كلا... فأن المدافعة عن الوطن، في ذلك الوقت، كانت واجبة على العموم، لا فرق فيها بين مالك ومملوك، وشريف وصعلوك!. وعلى فرض أن الأهالي إنما قاموا تبعاً لحكامهم، الذين هم أمراؤهم، فهل فعلوا غير ما يلزمهم؟!... إن ميل الانسان إلى أهل ملته - [أمته] - وديانته أمر فطري... فلا لوم على المصريين في امتناعهم من الخضوع للفرنساوية والدخول تحت طاعتهم، بحسب الميل الطبيعي من عدم الرضى بحكم من خالفهم في الدين والجنس!...[1]»

هكذا قادت النزعة الوطنية عند علي مبارك قلمه كي يفند الدعاوى التي حاول أصحابها ربط الغزو الفرنسي لمصر بنوايا «التمدين والتنوير» التي زعم الفرنسيون وعملاؤهم أنهم ما أتوا إلا لإشاعته في البلاد... بل لقد قادته هذه النزعة إلى كشف

---

(1) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٣٠٤.

ذلك الوهم عن الدور الذي يلعبه الاستعمار الأوروبي، عموماً، في إفريقياً. . . لقد أقام الغزاة بالقارة السوداء المستعمرات ومراكز التجارة وموانيها ومحطات جمع الرقيق ونقله والتجارة فيه وفي المواد الأولية للقارة البكر. . . وتحدث عن «التمدين والتنوير» للهمج البدائيين المتوحشين. . . ولكنه حارب الذين قاوموا، على حين هادن وسالم عادات التوحش وطقوس التخلف وتقاليد البدائيين! . . فيسأل علي مبارك: «كيف يحدث ذلك، مع وجود الانكليز والفرنسيس وباقي الأوروباويين بسواحل تلك القارة؟!» ثم يجيب: «... **إن المقيمين في تلك الجهات من الأمم الأوروبية لا يعنيهم تغيير شيء من ذلك، إذ المقصود لهم من الاقامة في تلك الجهات إنما هو التكسب بالتجارة فيها يستخرج من أرضها من المعادن وسائر مواد التجارة، و إرسال ذلك إلى الممالك الأوروبية. . . فلا يشتغلون إلا بتوسيع دائرة هذه التجارة، لا بتغيير العادات والمعتقدات!** . . .»[1]

هكذا بوضوح. . فالاستعمار استعمار. . . والاستعمار استغلال. . دونما زيف أو دعاوي هدفها التمويه والخداع! . .

* * *

ونزعة الوطنية هذه، التي جعلت علي مبارك عاشقاً لمصر، متعبداً في محراب حضارتها. . لم تجعله يغض الطرف عن عيوب المصريين وسلبيات الشخصية المصرية. . . فمن الدارسين لهذه

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ١٤٤.

الشخصية من قال إن فيها: جبناً وضعفاً في القلب. . . ونفاقاً. . وسعاية. . . وميلاً إلى الشهوات. . . وتهاوناً في الحقوق. . . . وكثرة أوهام!!!. . .

وعلي مبارك لا يتجاهل نتائج تلك الدراسات. . ولكنه يتناول موضوعها ـ أي الشخصية المصرية ـ على نحو يندر أن نراه عند أحد من معاصريه، فهو يسلك سبيل المنهج العلمي، والدراسة على ضوء الواقع التاريخي، ليعطي الرأي النهائي في الشخصية المصرية، وفيما وجه إليها من اتهامات، على وجه التحديد. . وهو في هذا المجال أيضاً لا يغفل معيار «الاستقلال الوطني» الذي أعلى من قدره في تفسيره لما مر بهذا الوطن من تطورات. . . **فبلاد امتلكت من الميزات ما جعلها، تاريخياً، مطمح الغزاة والفاتحين، لا بد أن نبحث عن مكونات شخصيتها، وخاصة السلبي منها، فيما حل بساحتها من سلبيات!. . . بل لا بد أن ندقق البحث، فقد نجد هذا الشعب متسلحاً ببعض هذه السلبيات في مقاومته لأعدائه عندما عز عليه التسلح بالايجابيات!!**. ألم تقاوم الجزائر العربية المسلمة سحق شخصيتها العربية، من قبل المستعمرين الفرنسيين، عندما فرضوا التعليم بالفرنسية وحدها، عن طريق الاعتصام بالتعليم في الكتاب فقط ـ وهو بسيط ومتخلف ـ فكان التخلف سلاحاً تسلحت به. . . بل وكانت الأمية سلاح أغلبية الشعب الجزائري، اعتصمت به من السحق القومي الذي أراده المستعمرون؟!. . .

إذن، فنحن أمام محاولة علمية عميقة يكشف بها علي مبارك

عن سر وجود ما في الشخصية المصرية من سلبيات. . ومن ثم أمام إشارات، ضمنية، تشخص علاج هذه السلبيات». .

فالغزو قد جلب إلى هذه الأرض سيئآت الغزاة. . . وعندما بلغ القهر حداً عجزت الجماهير عن مقاومته، نافقت الظالمين. . والنفاق سلاح، أحياناً، لأنه نوع من الرفض الباطن، رفض الضعيف، فهو قريب جداً مما نسميه «أضعف الايمان!».

ثم. . . إن هذه الصفات، بهذا الفهم، ليست «طبيعية» في الشخصية المصرية، لأنها مسببات لأسباب قاهرة، ومن هنا فعلاجها واضح ومعروف. . تحرير هذه الشخصية من القهر، خارجياً كان أو داخلياً. . والدليل على ذلك أنها لم تكن لازمة من لوازم هذه الشخصية عبر كل العصور. . . كما أنها لم تكن خاصية لهذه الشخصية دون غيرها من الأمم والشعوب. . .

وعلاج هذه النقائص يتلخص في: **القدوة والقيادة العادلة، المقيدة بالقانون**. . . فبها سيأتم الناس في هذا الطريق. . ودوام الالتزام هذا، من قبل الكل، زمناً طويلاً يجعل الايجابيات عادة وسنة تحل محل السلبيات. . .

يحدثنا علي مبارك عن هذه القضية، القديمة الجديدة، في مواطن عدة من آثاره، ونحن نستأذن القارىء فنورد هنا نصاً من نصوصه ـ وإن يكن طويلاً إلا أن تشخيصه للقضية يتطلب إيراده في هذا المقام ـ يقول:

«. . . إننا لو سلمنا للبعض ما قال من أن للمصريين أخلاقاً

توجد فيهم، كالجبن وضعف القلب، والسعاية والنفاق، والميل إلى الشهوات، والتهاون بالحقوق، وفيهم كثرة الأوهام، وما يتلو ذلك من الصفات.. فهل يصح لنا التسليم بأن هذه الأوصاف طبيعية، جلبوا عليها بمقتضى الفطرة؟ ويستحيل تحويلها إلى أضدادها؟!

كلا... وهل يمكننا أن نذهب إلى أن مثل هذه الملكات من خواصهم، التي امتازوا بها عن سائر أجيال الناس؟ وليس في الأمم التي تحسب الآن فاضلة من كانوا على شاكلتهم؟ أو أنه ليس في الأمم التي كانت في سابق الزمان بلغت ذروة التمدن والآداب من صاروا الآن على شاكلة المصريين، ومثل أخلاقهم؟!

أظن أنه لا يتأتى لنا التصديق بذلك.. فإن كثيراً من أصناف الناس كانوا في درجة لا ترتفع عن البهيمية إلا بما لا يحسن، وكانوا في غاية من فساد الأخلاق والجهل واختلال الإدراك، كالأمم الشمالية الغربية من الانكليز والفرنساويين والجرمانيين، وها هي الآن يشار إليها بأطراف البنان في الخواص الانسانية. وأن بعض الأمم الشرقية التي كان لها المجد الذي لا يسامى في المزايا البشرية، أصبحت معارفها أوهاماً، وآدابها أخلاقاً في غاية الفساد!..

وجميع الأخلاق التي كانت تنتقل عن المصريين من زمن مديد تراها ثابتة لها بلا تفاوت. وإن البقعة المصرية لا تقتضي،

بطبعها، شيئاً من هذه الأخلاق المخلة بنظام الهيئة الاجتماعية أصلاً، ولا يقوم لأحد على ذلك دليل، وإنما هي الحوادث الدهرية قد وجهت سهامها نحو هذه الديار، فتوالت عليها غارات المتغلبين في الأزمان البربرية، إذ كان الغالب يعامل المغلوب معاملة الأسد للفريسة، ولم ينقطع ذلك عنها. . وأعملت فيها عوامل القسوة أو الشدة حتى ضاق نطاق القدرة من الأهالي عن المقاومة والأخذ بالحقوق، فعولوا، بالاضطرار، إلى طرق تمكنهم من إرضاء قاهريهم، فلم تكن إلا طرقاً غير قانونية، فسلكوها، كالكذب يتخلص به من شر يقع فيه، والنفاق يرطب به قلب المتسلط، والخيانة ينال رزقاً أو جاهاً لم يكن يناله غيرها!! وهكذا. .

ولما فلت من أيديهم زمام الإرادة والاختيار خمدت نفوسهم، وتعطلت أفكارهم، وصاروا كالآلة الصماء في أيدي حكامهم ونشأ من ذلك التحاشد والتباغض والسعاية عند الحكام، وما شابه من الأخلاق الفاسدة.

فهي أمور طارئة مكتسبة من اختلاط الأمم التي كانت ترد إلى هذه الأقطار حاملة عاداتها وأخلاقها لتلقي ثقلها على كواهل أبناء البلاد فلا يستطيعون حملها ولا نبذها بالكلية، فيخرفون في سيرهم عن المجرى الطبيعي، وتتولد فيهم الأخلاق الرديئة التابعة في وجودها لسير حكوماتهم. فمتى كانت هيئة الحكومة هيئة فاضلة وأعضاؤها من ذوي المعرفة والاستقامة، وسنت

قوانينها التي لا تتخطى حدود الواجب الملائم لأحوال الأهالي على وجه الدقة التامة، ثم قام أولئك الأعضاء بحفظ تلك القوانين حتى لا يشذ عمل من الأعمال عنها، وساعدها على ذلك علماء الحق واليقين، فلا ريب أنه يتأدب الناس بآدابها، وتزول تلك الأخلاق بالمرة، ويخلفها ما هو الكمال، وذلك من وجيهن:

الأول: إن أنظار الصغراء دائماً ترقب حركات الكبراء ليسيروا على مثل سيرتهم، ويميلوا، بالطبع، إلى تقليدهم في الأعمال والتشبه بهم في الأحوال، فلو تأدب السائسون بالآداب القانونية، وحافظوا عليها لرأيت المسوسيين يحذونهم قدماً بقدم.

والثاني: إن الإلزام بالوقوف عند الحدود الحقة، إذا استديم، يولد في الطباع عادة تؤلف للنفس ويعسر التحويل عنها، فمتى حافظ أعضاء الحكومة على إنفاذ القوانين نشأ من ذلك في الناس ملكات تطابق مقتضى الشريعة والقانون، وهو عين الآداب، وذلك غير خاف.

فالحق، إن أهالي الديار المصرية، كغيرهم من سكان القارة ـ [اليابسة ـ الأرض] ـ القابـلين للاعتدال والاعتلال، فإن سارت فيهم الحوادث سير الاستقامة، وساقت إليهم حكومة عادلة ورجالاً عرفـاء أمناء عـلى الحق والآداب تعدلت أخـلاقهم واستقامت أمورهم وبلغوا ما يبلغ غيرهم، وإلا انحرفوا عن

الطريق على قدر انحراف القوى الحاكمة فيهم، كما هو الشأن في غيرهم من الأمم.

بل أقول قولاً ربما أصادف فيه، نكيراً: إن المصريين هم أقرب الناس إلى الاصلاح، وأسرعهم تقدماً في سبيل الفلاح، إذا وجدوا حاملاً على ذلك، فإن من طباعهم الفطرية: لين العريكة، وسهولة الأخلاق، وجودة الفطنة، والصبر، والرضا بالقليل، وحسن القناعة. وهـذه أخلاق قضت بهـا طبيعة بقعتهم، وسهولة المعيشة فيها، ولم يأت عليها من الحوادث ما يغيرها، بل هي ثابتة لهم في جميع الأحوال والأزمان، على ما ينبئنا به تاريخهم القديم والحادث، ويثبته لنا العيان والمشاهدة، فمتى قادهم قائد إلى أمر من الأمور تبعوه سراعاً لا يتوقفون، ولا تأخذهم في ذلك عزة، ولا يقعدهم عناد ولا لجاج، وإن كلفوا بأي عمل من الأعمال، سواء كان شاقاً أو غير شاق، وتحققت لهم منه آمال صادقة ثبتوا فيه وداموا عليه آناء الليل وأطراف النهار، وإذا طولبوا بأداء الكثير واستبقـاء القليل لأنفسهم، مع راحة الأبدان والأمن على الحقوق والأرواح، فإنهم يبذلونه عن طيب نفس ورضا قلب. . فمتى وجهت الهمم إلى إصلاحهم فلا يحتاجون إلى كثير عمل ولا طويل زمن حتى يبلغوا الغاية المقصودة. فإن قهروا على غير حق، وكلفوا عملاً بغير غاية تعود عليهم، رأيتهم يتقاعدون، ويستعملون الصبر والثبات، الذي هو من طباعهم، في مقاومة القاسر، فلا يجيبون له طلباً، ولكنهم يراوغونه ويداجونه حتى يـعجزوه، ويجعلون

القناعة درعاً يقون به أنفسهم من الأتعاب التي لا تأتي بطائل، فيكتفون بأقل الضروريات تفادياً من عمل قهرهم عليه من لا يرعى مصلحتهم، ويسهل عليهم الفقر والفاقة حتى يقع فيها هذا القاهر ويستولي على دولته الاضمحلال، وينتهي بالزوال!. وهذا هو الحرب الحقيقي الذي يفوق في تأثيره حرب السيف والسنان!.. ولا يستطيع الخروج من ذلك الا بمراعاة حقوقهم والعدل فيهم والسلوك في طرق راحتهم، فيحيى فيهم الأمل، وتكون تلك الأوصاف الجليلة حاملاً قوياً على سرعة التقدم إلى الغاية المطلوبة!...»

تلك سطور علي مبارك، تسجل، في رأينا، واحدة من أكثر المحاولات عمقاً في دراسة الشخصية المصرية.. عرضت للقسمات السلبية في هذه الشخصية، وكشفت مصادرها الأجنبية القاهرة، وأبصرت أنها عارضة، غير طبيعية، واكتشفت كيف أن طول القهر وثقل المعاناة قد حول هذه القسمات إلى أسلحة تصدت بها هذه الشخصية لمصارعة قاهريها وظالميها، في حرب حقيقي فاق في تأثيره حرب السيف والسنان!.. وكيف أن العدل والحكومة العادلة والقدوة الحسنة والالتزام بالقانون الذي يتساوى أمامه الجميع هي الطرق، الآمنة والقصيرة والوحيدة، لتحول هذه السلبيات إلى إيجابيات، ولتدفق عطاء هذه الشخصية، التي هي من أقرب الشخصيات إلى الاصلاح، وأسرعها تقدماً في سبيل الفلاح!..

ولقد كان التاريخ الحضاري لمصر هو الاطار الذي درس من خلاله علي مبارك شخصية المصريين، ورأى على ضوئه واقعهم، لأن حبه لهم، ونقده لسلبياتهم، وعشقه للوطن، وتغنيه بالوطنية، كل ذلك قد ارتبط بالحضارة والتحضر، لا بالتعصب الأعمى والضيق الأفق لمساحة من الأرض وعدد من المدن وإقليم من الأقاليم!..

مع العمل... وضد الأرستقراطية

[... لقد قيل: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان!..

ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل!... فأس المملكة وأركانها، وثبات أحوال الأمة وبنيانها: العدل والإنصاف، سواء كانت الدولة إسلامية أو غير إسلامية!...

... فبغير العدل لا يتم صلاح. ولولاه ما قدر مُصَلٍّ على صلاته، ولا عالم على نشر علمه، ولا تاجر على سفره.. وهو صفة في الذات تقتضي المساواة، وهذه الصفة أكمل الفضائل، لشمول أثرها، وعموم نفعها، وإليها الاشارة بقول الرسول، عليه الصلاة والسلام: «بالعدل قامت السماوات والأرض»!.. ولم يخلق الله أحلى مذاقاً من العدل، ولا أمر من الجور!...]

علي مبارك

المجتمع الفاضل، عند علي مبارك، هـو مجتمع: العلم والعدل! . . لأن حياة الانسان الروحية، من حيث التدين، مندرجة ـ وخاصة إذا كان مستنيراً بريئاً من الخرافة ـ في إطار العلم. . . فبـالعلم يحقق الانسان، كجنس، ثـراء الـدنيـا والآخرة. . أما العدل فإنه الضمان كي يكون هذا الثراء، في الدنيا، عائداً إلى مستحقيه وصناعه، كما هو الحال مع ثراء الآخرة الذي يحكم فيه المولى سبحانه بالقسطاط المستقيم. .

والعدل عند مفكرنا الكبير نسبي، وهو في ذلك متفق مع كل المفكرين والباحثين. . . وهو أيضاً عدل المرحلة التاريخية التي عاشها، والمجتمع الذي ألقى بثقله كي تعيشه مصر والشرق في ذلك الحين. . مرحلة التحول من إقطاع العصور الوسطى وتخلفها وظلماتها إلى المجتمع البورجوازي الحديث والمستنير، بكل ما كانت تبشر به الطبقة الوسطى من صور مجتمعها البورجوازي الجديد المنشود. . . فلقد كانت تلك هي أحلام المستنيرين ودعاة التقدم، في مجتمع لم يكن الفكر الاشتراكي، أو

تطبيقاته، قد أصبحت فيه بعد قضية مطروحة على الناس والحياة..

ولقد تصور علي مبارك، المفكر، هذا المجتمع المنشود في صورة حديثة لمجتمع [المدينة الفاضلة] الذي كتب عنه أبو نصر الفارابي [٢٦٠ - ٣٣٩ هـ ٨٧٤ - ٩٥٠ م] ومن نحا نحوه من المفكرين القدماء..

فالسياسة فيه أقسامها أربعة:

١ - **سياسة الانسان نفسه**: وهو ما سماه أسلافنا الفلاسفة بعلم الأخلاق، وما سماه آخرون منهم بالتصوف الظاهر..

٢ - **وسياسة الأسرة لمنزلها**: من حيث نظامه وتنظيمه وتدبير السير فيه وفي موارده ومصارفه، وتربية ناشئيه..

٣ - **وسياسة المدينة**: باعتبارها المنزل العام للأسر القاطنة فيها، والصورة المصغرة للدولة والأمة..

٤ - **وسياسة القطر**: أي الدولة والأمة، وهي السياسة العامة والكبرى في هذه الأقسام..

ولا بد للسياسة في هذا المجتمع من قانون يضبطها ويحكم جوانبها ويحدد الاختصاصات فيها ويوزع الأدوار على القائمين بالشئون... وهذا القانون إن خرج عن دائرة الفكر والتفكير والتعقل والصنعة الانسانية، سمي وحياً وديناً.. أما إن جاء ثمرة «لإجالة الفكر، وتدقيق النظر، ومقارنة الأحوال وموازنة

العواقب» فإنه يسمى «بالحكمة العملية» ـ في مقابلة «الحكمة العلمية» ـ لأن أهله ـ الحكماء ـ يتخيرون من نصوصه ومواده وقواعده «ما كان أسهل مسلكاً، وأعلى غاية، وأبعد من شوائب الفساد، وأقرب إلى الضبط، وأجمع للخير.. وما تطابقت عليه الآراء...»

وسواء أكان القانون وحياً وديناً، أو كان حكمة عملية وضعها وتخيرها الحكماء، فلا بد له من علل تحكم ترجيح الأخذ به وتقديمه على سواه، كما لا بد له من أصول مستحسنة لدى الجماعة التي يسن لها هذا القانون «... فالقوانين العامة التي يراد بقاؤها على مرور الزمان يجب أن تكون ملحوظة الأصول والفروع بلواحظ الاستحسان، وأن تكون مربوطة بعلل صحيحة وأغراض حميدة يفهمها كل أحد، ويرى أن لا سداد لأعماله وحسن حاله ومآله إلا بالركون إليها والتعويل عليها...»

والمحور الأكبر الذي يميز صلاح القوانين من فسادها هو مدى تحقيقها للغاية الأولى والأساسية والكبرى في هذا الوجود، وهي حفظ حياة الانسان، بكل ما تتطلبه من فروع وتفصيلات، ذلك «أن مدار أمر الحي على ما يحفظ به حياته، أصلاً وتوابع. فكل أمر له دخل في ذلك فهو محبوب مطلوب، وكل أمر أوجب فيه نوعاً من الفساد فهو مبغوض!»

والعالم، عند علي مبارك، كما هو عند أصحاب [المدينة الفاضلة] «شخص واحد، ذو أعضاء!».. وفي هذا العالم

مصالح خاصة ومصالح عامة.. ولا بد من تقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة، عند التعارض، خصوصاً وأن المصالح العامة، إذا دققنا النظر وأنصفنا، تتضمن في داخلها المصالح الخاصة!... **وعلى الموقف من هذه القضية، قضية العلاقة بين المصالح العامة والمصالح الخاصة، وتغليب أي منهما على الأخرى، يتوقف الصلاح والفساد في هذا العالم.. «فإذا نظر في أحكام المصالح العامة وتأييدها وتمتين قواها كانت المصالح الخاصة تابعة لها، جارية على منهاجها، ومتى كان النظر مقصوراً على المصالح الخاصة نجم الفساد واستحكم، ولم يتم أمر مصلحة، لما يكون في الاستئثار من المباغضة والمشاحنة!»**[1]

وحتى يتحقق هذا المجتمع «القانوني» الملتزم بالقانون، فلا بد أن يكون الحاكم والمحكوم أمام هذا القانون سواء، بل وأن يكون خضوع الحاكم للقانون مقدماً على طلب الخضوع له من المحكوم، فالقدوة أولاً!.. «فالواجب على ولاة الأمور أن لا يقطعوا في حكم إلا من القانون، لأنهم متصرفون في الملك وفق الشريعة... ولهذا لا يصلح لولاية الأمر إلا من قطع عن الطمع أمله، ووافق قوله عمله، وكذلك عماله ونوابه.. وإلا كان كما قيل:

ومن يربط الكلب العقور ببابه
فعقر جميع الناس من رابط الكلب!»

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني ص ٢٤٥.

ولا يكفي أن يحكم المجتمع قانون.. إذ لا بد أن يكون هذا القانون عادلاً «لأنه بغير العدل لا يتم صلاح.. ولوه ما قدر مصل على صلاته، ولا عالم على نشر علمه، ولا تاجر على سفره، وهو صفة في الذات تقتضي المساواة، وهذه الصفة أكمل الفضائل، لشمول أثرها، وعموم نفعها، وإليها الاشارة بقوله ﷺ: «بالعدل قامت السماوات والأرض».. ولم يخلق الله تعالى أحلى مذاقاً من العدل، ولا أمر من الجور...»[1]

لكننا ونحن ننظر في هذا الفكر الاجتماعي لعلي مبارك، الذي تتكرر فيه مصطلحات: «العدل» و«المساواة» يجب أن نحذر فهم هذه المصطلحات على ضوء المفاهيم السائدة في عصرنا نحن ومجتمعنا، بل يجب رد معانيها ومضامينها كي تتحدد في إطار نصوصه كلها، وعلى هدى من تجربة مجتمعه وأهداف الجيل المستنير الذي كان أحد مفكريه ومصلحيه.. فهي من مصطلحات الفكر البورجوازي، الذي كان متقدماً وتقدمياً وثورياً في تلك المرحلة التاريخية، وليست، على وجه القطع والتحديد، من مصطلحات الفكر الاشتراكي، ولا تمثل أوعية لمضامينها في فكرنا الاشتراكي الحديث..

فالاشتراكية تسعى إلى مجتمع غير طبقي، يكون التمايز، المحدود، فيه بناء على معيار العمل وحده، ويقوم هذا التمايز في إطار المجتمع كله كطبقة واحدة، بعد أن ينتهي التعدد

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٢٧٦، ٢٧٧.

والتناقض، ومن باب أولى، الصراع بين الطبقات.. على حين لا نجد في نصوص علي مبارك ما يشير، من قريب أو بعيد، إلى تبني مثل هذه الفلسفات والمفاهيم..

وفي النصوص التي تحدث فيها علي مبارك عن الفكر الاجتماعي، وتطوره التاريخي، نجد أنفسنا حيال صياغات تقدم عدداً من الأفكار.. فالطبقات قد ظهرت كثمرة لاختلاف نوع العمل، فهناك عمل ذهني، وآخر يدوي، ومن هنا نشأ التفاوت في الثروات، وكانت نشأة الطبقات..

... وما تسميه الاشتراكية صراعاً طبقياً، مشروعاً، بل وواجباً على الاشتراكيين والثوار تغذيته، نجد اسمه في هذه النصوص «تحاسداً وتباغضاً وعداء!».. ومن ثم فإن الدولة، كجهاز قمع وقهر، ضرورية لحراسة هذا التفاوت وكبح جماح الحاسدين!.. وإذا لم يكف جهاز الدولة، ولم تنهض القوانين بتلك المهمة على النحو الأمثل، فلا بد من الاستعانة بالوعاظ والداعين إلى الزهد والقناعة كي يسهموا في تخفيف الحسد والبغض والعداء الذي يوجهه الأدنون إلى الأعلين!!.. إنه مجتمع يقر الطبقية، ويكرسها، ويبحث عن الوسائل لحمايتها من الساعين إلى إلغائها؟!..

تقول هذه النصوص: «إن إدارة الأعمال الدنيوية محتاجة إلى عملين، عمل بالأبدان، وعمل بالأرواح. وقد فاوت الصنع الرباني بين الناس، فجعل بعضهم أذكياء، والبعض أغبياء،

وكفل بعضهم بعضاً، فكان اشتغال أذكياء الناس بالفكر في مصالحهم وتدبير ما تحسن به أحوالهم، فلزم في مقابلة هذه الخدمة الروحانية أن يخدمهم بقية الناس بأبدانهم، ويريحوهم من تجشم الكلف في تحصيل مؤنهم، فظهر الفقر والغناء، وبموجب ذلك نجم بينهم التحاسد والتباغض والتعادي. . . فعند ذلك وجب وضع القوانين وتجنيد الجنود ووضع القلاع والحصون وتصوير آلات القتل لتحاجز الناس بعضهم عن بعض، ولزوم كل عمله الذي استعد له. . . ولم تكن القوانين الحكمية - [الوضعية] - كافية في حسن صحابة بعضهم بعضاً، لكونها تتعلق بظواهر الأحوال ومشاهداتها، فيتعين لذلك وجود طائفة من الناس يتكلمون بمثالب الدنيا وعيوبها ويزهدون فيها وينهون عن شدة التزاحم عليها، ليثبت أهل القلة فيها على أشغالهم الشاقة التي لأجلها خلقوا، ولا يبذلوا قواهم في معارضة المكثرين ومضاربتهم. فتبين من ذلك أن أعمال الناس وظائف خدمة مقسمة على طوائفهم، لا يصح أن يفاضل بين أهل وظيفة وغيرها، وإنما المفاضلة بين أشخاص كل وظيفة، فمن قام بوظيفته حق القيام بها، مقتصداً دون إفراط وتفريط، كان محموداً، ومن مال إلى أحد الطرفين كان مذموماً بقدر ميله! . . .»

فنحن هنا أمام نص:

١ - يقسم العمل إلى: فكري، ويدوي. . ويرى في ذلك

المنشأ للتفاوت الطبقي. . ويسمى الطبقة: «وظيفة»!. .

٢ ـ يدعو إلى أن تكون المفاضلة، والتقدم والتأخر، بناء على العمل، وفي داخل إطار «الوظيفة»، أي الطبقة. . ولا يصح أن يمد أهل طبقة عيونهم إلى ما تمتع به أهل طبقة أخرى!. .

٣ ـ والحارس لذلك هو جهاز الدولة وقوانينها الوضعية. . ولما لم تكف في كبح جماح التحاسد والتباغض والتعادي، جاءت القوانين الدينية، ووعاظها والداعون إلى الزهد وذم الدنيا، فكرسوا جهودهم «ليثبت أهل القلة على أشغالهم الشاقة. . ويكفوا عن معارضة المكثرين ومضاربتهم!»

لكن علي مبارك لا يرى في هذا المجتمع ـ الذي يصوره هذا النص ـ العدل الذي تحدث عنه ودعا إليه. . لأنه يرى أن وجود جهاز الدولة، بمؤسساته القمعية القهرية، ويرى في استعانة هذا الجهاز بمؤسسات الوعظ والزهد وذم الدنيا، الدليل على افتقاد العدل والانصاف، فيحدثنا ـ في نفس النص ـ عن أن الناس لو انحازوا إلى العدل وحققوا الانصاف لما احتاجوا إلى أجهزة القمع هذه. . يقول: «. . . ولو سلك الناس سبيل الانصاف لم يحتاجوا إلى شيء من ذلك، كما قيل:

لو أنصف الناس استراح القاضي
وبات كل عن أخيه راضي!»[1]

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٧٨، ٧٩.

فهل نحن أمام تناقض؟!.. وما التفسير؟!..

في رأينا أن علي مبارك، في هذا النص قد قدم وصفاً وتفسيراً للواقع الاجتماعي التاريخي الذي قسم المجتمع إلى طبقات، والذي أفرز جهاز الدولة ومؤسسات الوعظ لتكريس مظالم ذلك الواقع.. فهو هنا يصف ويفسر واقعاً تاريخياً.. ثم ينبه على أن في العدل الغناء عن أجهزة القمع والقهر والوعظ والارشاد!..

لكن الرجل يظل في إطار الفكر البورجوازي، ومع المجتمع الطبقي، شريطة أن يكون عادلاً، أي أن يكون التفاوت فيه بناء على «العمل»، وليس راجعاً إلى امتيازات نظام الاقطاع وقيم العصور الوسطى.. ومن هنا كان ما سبق حديثنا عنه من تقديمه علوم التجارة والصناعة كي تأخذ مكانها بين العلوم الشريفة، على حين قصر الاقطاع وعصوره الوسطى الشرف فقط على علوم الدين.. ومن هنا أيضاً كان حديثه عن التجارة والصناعة، كمهنة وحرفة، باعتبارهما من المهن والحرف الشريفة، وتفضيله للعرب والمسلمين على اليونان، لأن العرب لم يأنفوا الصناعات، بينما رأى اليونان فيها مهناً لا تليق إلا بالأرقاء.. فنحن «إذا تتبعنا أحوال متقدمي الاسلام ومشاهير أمرائه والحكام لم نجد أحداً منهم إلا وله حرفة يتقوت منها أو صنعة لا يستغني في معيشته عنها، علمية كانت أو عملية... وحيث كان القرآن حاثاً على العمل والسعي في طلب الرزق، حتى كاد يعد فرضاً، خصوصاً وقد مدح التجارة والصناعة، ولم يبق عند العرب أوهام بالنسبة

لا تضاع الصنعة وشرفها، فلم يكن أحد منهم يرى أنه أشرف من غيره، ولا أنه قروي وذاك مدني، ولا أنه فقير وذاك غني... فكانت الصنائع تشرف بهم لا أنهم يشرفون بها!...»[1]

فكل الصنائع شريفة، ولا فضل للمدينة وأهلها على الريف وأهله.. وتلك قيمة جديدة من قيم مجتمع جديد، وقسمة جديدة في فكر اجتماعي جديد..

وفي هذا المجتمع كان المصلحون يتطلعون إلى التقدم، وإلى إسهام أصحاب رؤس الأموال والمدخرات في تكوين الشركات المساهمة لتصنع في اقتصادنا ما صنعت مثيلاتها في أوروبا البورجوازية... والشيخ «علم الدين» عندما أبصر في ميناء «مرسيليا» أثر تلك الشركات، دون ملاحظاته، وبعث بها إلى زوجته، وتمنى أن يحدث ذلك في بلاده.. يحدث زوجته عن مشاهداته على أرصفة ميناء مرسيليا فيقول: «.. ورأيت على الأرصفة مخازن.. قد بناها، بإذن الحكومة، جماعة من مشاهير القوم وأغنيائهم، اجتمعوا وعقدوا بينهم جمعية اشتراك على رأس مال قرروه للصرف على إنشائها، يدفع منه في كل سنة جزء على التدريج، إلى تمام تسع وتسعين سنة.. ومعظم أعمالهم الجسيمة تتم بهذه الكيفية.. وأصل مال الشركة المذكورة عشرون مليوناً من الفرنكات، تعدل ٨٠٠,٠٠٠ جنيه انكليزي من النقود

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٥٥٠.

المصرية، قسموه على أربعين ألفاً منهم، فخص كلاً منهم خمسمائة فرنك[1]! . .»

وتلك قسمة، تطبيقية، من قسمات ذلك المجتمع الجديد، تضع يدنا على نوع فكره الاجتماعي الجديد. . .

بل لقد دعا علي مبارك إلى أن تسلك مصر ذلك الطريق، ومارس، عملياً، وضع هذه الأفكار في التطبيق عندما تولى نظارة الاشغال، وعند الحديث عن دوره في حقل الري والزراعة، وفي إقامة المنشآت الجديدة بالمدن، سبقت إشاراتنا إلى تطبيقاته هذه في تلك الميادين. .

وأيضاً. . فإن الرجل وهو يختار هذا الموقف الاجتماعي، ويدعو إلى مجتمع بورجوازي جديد، يعلي من قيمة العمل، وينشد قدراً من العدل النسبي، في إطار طبقات تتخذ من العمل والحرف والصناعات مجالاً لتنافسها. . قد:

١ ـ وجه نقده إلى فكرة «الاشتراك العام في الثروة والأموال»، على نحو ما يدعو إليه الاشتراكيون. . وذلك عندما عرض بالنقد والاتهام «لمزدك والمزدكية». .

٢ ـ ووجه نيران هجومه لكل قيم المجتمع الاقطاعي وبقايا أفكار طبقاته وأصحابه ومفكريه، على نحو يقطع بعدائه الشديد له. .

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٦٧٣.

فهو إذن، مع مصلحي عصره، والجيل المستنير الذي بدأ برفاعة الطهطاوي، قد رأوا في المجتمع البورجوازي المستنير، المهمة التي يجب الكفاح من أجل الانتقال بالبلاد إليها، لأن النجاح فيها يعني التخلص من بقايا العصور الوسطى، وتحقيق النموذج الأوروبي، سواء في التنمية الاقتصادية أو الاجتماعية أو في الاستنارة والتنوير، دونما تعارض مع المواريث والموروثات الثابتة وغير الدخيلة في تراثنا الفكري والديني...

وهم في موقفهم هذا كانوا طلائع التقدم في ذلك التاريخ.. على الرغم من تصورهم غير السليم للاشتراكية، وحديثهم الناقد، في ظلم، لأساس الفلسفة الجماعية عند الاشتراكيين[1]...

أما نقد علي مبارك لمزدك والمزدكية، فيقول فيه: «إنه في زمن الملك قباذ - [٥٣١م] - والد كسرى أنو شروان - [٥٣١ - ٥٧٩م] - حدثت فتنة.. وكان سببها أن ظهر في أيامه رجل زنديق يقال له مزدك.. أحدث مقالات في إباحة الفروج والأموال، وقال: إن الناس في ذلك سواء، لأنهم جميعاً أولاد آدم وحواء. وحرم سفك الدم، وأكل اللحم، فاتبعه خلق كثير.. وكان الملك قباذ ممن تبعه... فلما مات قباذ، وقعد ابنه كسرى أنو شروان على التخت - [العرش] - مكانه، جمع جميع خواصه ليعاهدهم، فكان

(١) انظر الفصل الذي كتبناه عن الفكر الاجتماعي لرفاعة الطهطاوي. ص ١٧٥ - ١٩٩ من الجزء الأول من [أعماله الكاملة].

مما قاله لهم: إني أشهدكم على أني لا أدع أحداً من المزدكية إلا قتلته، لأنهم أباحوا نساء الناس وأموالهم وجعلوها مشتركة بينهم.. حتى اختلط أسافل الناس بعناصر الكرماء[1]!...»

أما هجوم علي مبارك علي قيم المجتمع الإقطاعي وأفكار العصور الوسطى، فإننا نجدها في أغلب ما كتب من فصول وصفحات، وفي كل موطن بشرفيه بقيم العصر الحديث والمجتمع الجديد.. فهو:

١ - **ينتقد الأرستقراطية الجاهلية**: وكانت تتألف أغلبيتها، بمصر، يومئذ من الشراكسة والأتراك.. ويتحدث عن ترحيبها بمصاهرة الجهال، إذا كانوا أثرياء، وأنفتها من مصاهرة العلماء إذا كانوا، في المال، فقراء.. وما ذلك إلا لجهلها بقيمة العلم ومكانته، ومن ثم عدائها له ولأهله «لأن الانسان عدو ما جهله، ومن جهل شيئاً عاداه!»[2]

كما يتحدث عن مظهر عام من مظاهر سفه هذه الأرستقراطية، وسمة من سمات جهلها، يتجليان في الاسراف وكثرة البذخ وزيادة الاستهلاك.. فهي تظن أن زيادة الاستهلاك في المجتمع دليل ثرائه!.. وعلي مبارك يدين تلك الأفكار الجاهلة، وينكر أن يكون الاستهلاك الكثير عنوان ثراء

(١) [الأعمال الكاملة لعلي مبارك] المجلد الثاني. ص ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٣٣٨.

للمجتمع، لأنه استهلاك قلة من المجتمع وليس استهلاك المجتمع كله، فهو صفة لهذه الطبقة أو الشريحة الاجتماعية لا يصح تعميمها على بقية الطبقات.. ثم يقدم لنا المعيار الذي يراه صادقاً في الدلالة على مدى ثراء المجتمع، **وهو كثرة العاملين المنتجين، لا كثرة الاستهلاك!..** بل إن كثرة العاملين المنتجين، عند علي مبارك، هي مقياس الكثرة العددية للأمة، فالأمة الأكثر عدداً في العاملين المنتجين هي الأكثر عدداً حتى ولو قل عدد سكانها عن نظيرتها التي تعج بالسكان الكثيرين وتفتقر إلى العاملين المنتجين!.. يقول علي مبارك: «.. وقد توهم بعضهم أن كثرة الأمة وقلتها تابع لما يستهلك، قلة وكثرة، أعني أنه كلما كثر المستهلك كثرت الأمة وكلما قل قلت، وهذا التوهم لا يسلم به إلا لو اقتصر على ما لا بد منه - [أي على استهلاك الضروريات] -، والواقع غير ذلك. **فإنا نرى القليل من الأمة يصرف أضعاف ما يصرفه الكثير منها، فإذا تأملنا ذلك وجدنا معيار الثروة وعدمها تابع لكثرة المشتغلين بالزراعة - [وكانت عصب كل الاقتصاد يومئذ] - وقلتهم، فكلما كثروا أخصبوا، وكلما قلوا أجدبوا، فأي قوم لم يشتغلوا بأمر الزراعة وتوابعها كانوا وبالا على الأمة عموماً وعلى المشتغلين بها خصوصاً، فحينئذ يجب على ولاة الأمر التنبه لذلك، وحمل أهل البطالة على العمل[1]!..»**

فهو ضد الارستقراطية الجاهلة، التي تزيد، ببطالتها

---

(1) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٢٧٤.

وبذخها، المجتمع فقراً، على حين تحسب أن فـقرها هذا هو عين الثراء!.

٢ ـ **ويهاجم الالتزام في الزراعة:** وكان أبرز أساليب العلاقات الاقطاعية في الانتاج الزراعي قبل أن يدخل محمد علي بمصر إلى رحاب العصر الحديث، يوم ألغى الالتزام وأحرق عقود الملتزمين!.. وعلي مبارك يحدثنا كيف أصبح استغلال الملتزمين أشد من استغلال الحكومة، وكيف أضحت مكاسب خزائنهم من عرق الفلاح وإنتاجه أكثر تضخماً من مكاسب خزائن السلاطين.. فالمقررات على القرى في سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) كانت تتضاعف، رغم أن «حق السلطان ومصاريف الناحية لم يزد فيها شيء، بل الزيادة كانت في رسوم الملتزمين، ولو رجعنا إلى مكان يخص الملتزم من ذلك لرأيناه قريباً من أربعة أمثال ما كان يدخل خزينة السلطنة، ومجموع الغرامات خمسة أمثال المخصص للسلطنة؟!»[١]

كما يهاجم السخرة في الأعمال الفلاحية ومشاريع ضبط النيل، ويدعو إلى إلغائها، لأسباب انسانية، بل ولأسباب اقتصادية تمثل فكراً بورجوازياً مستنيراً فيما يتعلق باقتصاديات العماله.. فعائد الأعمال التي ينجزها الفلاحون بالسخرة لا يوازي نقص إنتاجية أرضهم نتيجة تركهم لها، قسراً، إلى مواطن العمل الذي يسخرون فيه، ومن ثم إن انجاز هذه الأعمال

---

(١) [نخبة الفكر] المقدمة. [انظره في المجلد الثالث من أعماله الكاملة]

بواسطة الشركات، والعمل الذي تحفز الأجور أصحابه هو أكثر فائدة وفعاليـة وإنسانيـة، وأيضاً أكـثر اقتصاداً..!.. ولقد كانت أغلب أعمال السخرة في مشاريع الري تتم في فصل الشتاء «.. وهؤلاء العمال أكثرهم فقراء، ليس لهم ما يقيهم المطر والبرد، فتحملهم الشدة على الهرب واستعمال أنواع من الحيل تخلصاً من هذه الشدة، خصوصاً وهم ليسوا بمؤجرين ولا مختارين، بل هم مساقون إلى العمل مجاناً واضطراراً، فإذا هربوا جلبوهم، أو غيرهم، مرة أخرى بـالضرب والأذى، فينقادون حفاة عراة جياعاً، فيعانون من الأهوال ما يعانون، وتفوتهم أشغالهم الخصوصية والأشغال المنوطة بهم، فما كأنهم إلا قوماً استوجبوا عليهم العقـاب، فهم يساقـون إلى العذب الأليم! على أننا، بعد معاناة هذه المصاعب ومقاساة تلك المشاق، لا نجد الغاية المقصودة من جمعهم قد تحصلت[1]؟!..»

٣ ـ ويدافع عن الفلاحة والفلاحين: فلا يمل هذا الدفاع!.. لأن الدفاع عن الفلاحة هو دفاع عن «قيمة العمل»، يعلي من شأنها، وهجوم على «قيمة التبطل» التي كانت من مميزات عصر الاقطاع.. فعنده «أن ثواب أعمال الانسان على قدر ما ينتج للخلق من الفائدة، خصوصاً في فن الفلاحة.. وما جاء الفساد إلا من إهمال فن الفلاحة، وميل الكثير إلى الزهو والتعلق به،

(١) المصدر السابق. الباب الأول. فصل فيما يتعلق بالنيل وفروعه من تطهير وإنشاء قناطر وجرف جسور ونحو ذلك.

وكثرة ما يستهلك ويصرف على القليل من الناس! . . إن كل ما يستهلك في أمر الزهو مضاد لمنفعة الأمة، فليزم مدبر أمر الأمة أن يصرف جميع همته في توجيه أفكارها نحو البساطة والقناعة. . . وأقوى أسباب تأخير الزراعة احتقار أهل الفلاحة، وعدم الالتفات إليهم، وترك التبصر في أحوالهم، وارتكاب ما تضيع به ثمرات الفلاحة، من تسخير أهلها بالعسف والقهر، والتعدي عليهم بما يقهقر حالهم ويفسد عليهم أعمالهم، والتغالي في الزينة والزهو والإكيان على اللعب واللهو، خلافاً لما يزعمه أخساء العقول من أن ذلك من لوازم الثروة، فضرر حب الزهو والفخر كضرر المحاربه، بل أضر، لأن المحاربة وإن كانت تضر بأرض الزراعة، لا تضر بالأمة، وإن أضرت فضررها وقتي! . . . إن ولي الأمر الذي يظلم أهل الفلاحة يكون كمن هدم أساس بيته بفأسه! . . .»[1].

فهو يدافع عن مجتمع المنتجين، ويدين مجتمع الأرستقراطية الاقطاعية وقيمها. . وهو يشدد من دفاعه عن أهل الفلاحة، لأن أهل الفلاحة والفلاحين كانوا هم المصريون. . فلقد كانت كلمه: فلاح تعني: مصري، لأن المصري كان هو العامل المنتج، على حين كانت الارستقراطية الشركسية التركية الكردية الارنئودية. . الخ. . الخ. . تمارس دور الاقطاعي الجاهل،

---

[1] [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ٢٦٩ - ٢٧٥.

المغالي في الزينة والزهو، والمكب على اللهو واللعب بالثروة وبمقدرات البلاد!..

٤ ـ **ويدعو إلى تنظيم المصارف**: على النحو الذي رآه في باريس، حتى تتخلص البلاد من الاستغلال الربوي الفاحش الذي فاق كل التصورات، والذي كان يمارسه «صيارفة حارة اليهود!»... فلقد كان سعر الفائدة ـ ويسميه الفرط!.. يصل إلى ٤٪ أي ٤٨٪ سنوياً.. فإذا جاء المزارع واقترض مائة جنيه، كتب عليه صك الدين بمائة، وتسلم نصف المبلغ تقريباً!.. وكانت أغلب القروض لقاء رهن أو ضمانة.. وعندما يعجز عن السداد تتحول إلى دين جديد «بفرط» جديد وشديد!.. حتى ينتهي الأمر ببيعه لرهنه، ونزع ملكيته عما يملك!!...

دعا علي مبارك إلى قيام المصارف التي تفك، ضائقة المزارعين دون أن تصل بهم إلى ما وصلوا إليه مع صيارفة حارة اليهود بالقاهرة.. وحتى لا يضطرون إلى بيع محاصيلهم، قبل نضجها، بأبخس الأثمان[١]!

٥ ـ **ويسفه من أحلام المجتمع الاقطاعي**: ويسخر من قيمه التي تمجد الرضا بالدون، والقناعة بالتافة، وتزهد الناس في التنافس على تحصيل المعالي وبلوغ درجات الترقي، وتنظر للعلم نظرة ضيقة الأفق وقفت به عند «الحكاكات والمماحكات» التي

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٣٨٨، ٣٨٩.

برع فيها الأزهريون وتجمد عندها الأزهر، وتحتقر الفلاحين وتهرب من العيش بينهم تاركة الجهل يفتك بهم. . . يهاجم علي مبارك كل هذه القيم والمثل الاقطاعية، ويقدم، بديلاً لها، «قيمة العمل المنتج والعلم النافع» سبيلاً لتحصيل الثراء والغنى والتمتع بالنصيب المعتدل والمشروع من طيبات هذه الحياة. .

وفي رواية [علم الدين] نجد الشيخ قد تزوج وأنجب أولاداً أربعة، وأضيفوا إلى إخوته الثلاثة، فغدت العائلة تسعة. . . وهو يلازم «عموداً» بالجامع الأزهر يعلم الطلاب عنده، ولا يعلّم إلا عنده!. . . ومصدر رزق الأسرة: جرايته من الأزهر، ونفحات أهل الخير له لقاء قراءة القرآن. . . لكن كثرة عدد أفراد الأسرة، وقلة الدخل، جعلتهم يعيشون ضائقة مالية شديدة. . فالزوجة تبكي إذا انفردت بنفسها. . والزوج «علم الدين» يرى ثراء الجهال وبذخ العاطلين، فيحزن، ويتساءل. . . ويتمرد عقله على المسلمات. . حتى ليخشى «الاعتراض» على السنة السائدة فيسرع مفوضاً أمره إلى مولاه!. .

لكن الألم والحزن تظهر آثارهما على كل من «علم الدين» وزوجه. . ويتفجر الموقف، وتتم المصارحة من خلال حوار تقود فيه الزوجة حملة إدانة لقيم المجتمع القديم، مبشرة بقيم المجتمع الجديد. . حوار بدأته الزوجة فقالت:

ـ إن البكاء الذي عراني، والنحول الذي اعتراني ليس لك فيه سبب.

ـ وكيف؟!

ـ نظرت لفقر حالنا، وكثرة عيالنا، فأسفت من ضيق عيشهم في حياتنا، وخفت من سوء حالهم بعد مماتنا، وذهلت عن قول الله تعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾[1]!. فهذا الذي أجرى عبرتي، وأضرم لوعتي، وأرجوك أن لا تؤاخذني في ذلك، فإنك تعلم أن النساء أكثر من الرجال شفقة، وأعظم منهم رأفة ورقة!.

ـ إن الذي قام بفكرك قد أوقعني الشيطان فيه من قبلك!. فأجدني لا أدخل ولا أخرج إلا حوقلت، ولا أرى سوقاً ولا بيتاً مزخرفاً إلا استرجعت، لما أراه من ضيق دويرتنا وشدة عيلتنا، وأرى الكثير من المنعمين في الدنيا وشهواتها مجردين عن العلوم الشريفة وأدواتها، وغالب أهل العلم والكمال في معزل عن السعة والمال، فأجد العلم مقروناً بالفقر، والجهل ملازماً للسعادة!. وأعتقد أن الصواب ما ورد في الكتاب من قوله تعالى: ﴿ وبشر الصابرين ﴾[2]، وأمثال ذلك، لكن الحواس لا ترى إلا ظواهر الأشياء، والعقل إن لم تدرك صاحبه ألطاف ربه يحكم بما شاهدته وشهدت به!. فهذا الذي كان يعتريني، فكنت أجتهد في إخفائه عنك، وأسأل الله دواء لهذا الداء، فإنه وهن عظمى، وأوهى

---

(١) هود: ٦.

(٢) البقرة: ١٥٥.

جسمي، وشغل فكري، وحيرتي في أمري!.

- إن أكابر الفضلاء والمتقدمين من الحكماء قد أطالوا القول في مدح العلم وأهله، وربما جعلوه باباً للرزق وأصله... ولقد قيل في الأمثال: «الجاهل عدو نفسه».. ومن كان عدو نفسه كان عدو ربه.. لكن هناك إشكال!.

- وما هو؟!.

- إذا كان العالم حبيب نفسه وحبيب ربه، والجاهل عدو نفسه وربه، كما قلنا، ورأينا الغنى والسعة عند أهل الجهل، والفقر والقلة مع أهل العلم والفضل، كما تقول، فما الحكمة في ذلك ؟!.. وكيف يكون الحبيب محروماً من نعم حبيبه، المتقلب فيها عدوه؟!.

- هذا قضاء الله، السابق في مكنون علمه، وهو الفعال لما يريد... وإنما علينا الصبر والرضا!.

- مهلاً! فهذا شيء عرفناه قديماً، وفرغنا منه تعلّماً وتعليماً... إن الله لا تخلو أفعاله عن أسرار عليه، وحكم خفية أو جلية، فإن الانسان، من خلقه، إذا آتاه حظاً عظيماً من العقل وقدراً وافراً من الحكمة، نجده ترفعت نفسه عن الباطل، وتنزهت أفعاله عن العبث، حتى لا يكاد يخلو حال من أحواله وشيء من أقواله وأفعاله عن حكمة... فما ظنك بالصانع القدير؟!.. فلا يحسن بنا إذا لم يظهر لنا السر

من أفعاله باديء بدء أن نقطع الأمل من معرفته، بل نطلب الحكمة على قدر الاستطاعة، بإشغال الفكر وإعمال البصيرة... وقد تقرر أن اليسير من فكر الجنان أفضل من كثير من عمل الأركان!.

- أما ما سألت عنه فللناس فيه أقوال كثيرة، منها أن الله لما رزق العلماء ما رزقهم من كمال العقل والمعرفة والفضل جعل للجهلاء في مقابلة ذلك ما منحهم من رغد العيش وسعة المال وكثرة الغنى.. لتعتدل القسمة!.

- هذه وجوه خطابية!.. لا تطّرد في جميع الأحوال.. فكم رأى الناس من عالم غني وفقير غبي!.. والذي يخطر بالبال أن العلم ليس من أسباب الفقر، ولا الجهل من أسباب الغنى، ولا ملازمة بين هذه الأمور، بل أقضية على العكس!، والعلم أحد موجبات الغنى والسعة، والجهل أحد أسباب الفقر والضعة، لولا عوارض وأسباب أخر، غير العلم وغير الجهل، وذلك أن الله سبحانه لما جعل هذه الدار موضع الكسب والسعي والاختيار ربط الأمور فيها بأسباب عادية تحصل عندها وتوجد معها، كحصول الشبع والري بالأكل والشرب، وأمثال ذلك مما أجرى به العادة في خلقه، ومن ثم أمرنا بالسعي والعمل، لا بالبطالة والكسل، كما قال تعالى: ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾[1]..

---

(١) الملك: ١٥.

إن أهل العلم، ممن لا مال لهم، لما قصروا جل أفكارهم على العلم، أفيض عليهم، كما أن من لا علم عندهم، من أهل الغنى، لما سعوا في تحصيل المال، أفيض عليهم. . نعم. قد يرزق القاعد، ويحرم الساعي، لأسباب قد تعلم وقد لا تعلم. . إلا أن كلامنا في العموميات والكليات، لا في الخصوصيات والجزئيات. . . فحق كل فريق من هذين الفريقين، إذا أسف على حرمانه مما عند الآخر، ألا يوجه اللوم إلا على نفسه، ويرحم الله من يقول:

وعــاجــز الــرأي مضيــاع لفــرصتــه
حتى إذا فــــات أمــر عـــاتب القــدرا

ـ أراك قد سقت الكلام إلى حد أردت به توجيه الملامة علي، واتهامي بالتقصير في الطلب، وإن ما نحن فيه من قلة المال وضيق الحال إنما هو من تقصيري في الأخذ بالأسباب!.

ـ ينبغي أن لا يكون في ذلك ارتياب!. . وها أنت قد حصلت من العلم ما تعلقت به آمالك، ووصلت فيه ما لم يصل أمثالك، وأنت الآن في صحة من جسمك، وقوة من عقلك. . فماذا عليك لو أخذت لنا فيما يكون فيه حسن الحال وراحة البال من الرزق الحلال؟!. . فتتخلص أنت وعيالك من ضيق المعيشة. . . وإقامتك في الأرياف، على أي حال، أحسن، لأن النفقة هناك أقل، والمؤنة أيسر، والهواء أنقى وأحسن، والصحة أكمل. ومع ذلك ينتفع

منك أهل البلد بتعليمك لهم أمر دينهم، وتنتفع منهم أنت بما تستعين به على أمور المعيشه..

- أنا لم أترك تعليم العلم من حين وجدت في نفسي القدرة على ذلك!، فإني مواظب على التدريس في الجامع الأزهر لطلبة العلم!.

- إن احتياج أهل الريف للتعليم أكثر، وليس فيهم مثلك يعلمهم، وأما طلبة العلم في الأزهر فإنهم يجدون كثيراً من العلماء يعلمونهم.. فأهل الريف أحوج إليك وأولى بك.

- لو علمت حال أهل الأرياف، وما هم عليه من الظلم والأجحاف، لما رغبت فيه، ولا رضيت به!.. والعلم يزيد بالممارسة، وينقص بعدمها، فمع من تكون الممارسة؟!.

- إن ما ذكرته من سوء حال أهل الريف هو حجة لي عليك، لا لك عليّ!. فهم إذا أحوج إلى مثلك، يقوم بتعليمهم وتفهيمهم، إن تعليمك المحتاجين أكثر ثواباً مما أراك تقضي فيه عمرك وتشغل به أوقاتك، من البحث والجدل! والقيل والقال! والجواب والسؤال، والحل والإشكال! واعترض! وأجيب! وفيه نظر! ويرد عليه! وقد يقال! ولا يقال! ونحو ذلك مما أنت عاكف عليه ومنهمك فيه ومقتصر على تعليمه لجماعة من الناس في موضع معين من الجامع الأزهر لا تتجاوزه ولا تتخطاه إلى غيره، كانما جاء التنزيل والنص القاطع بأن العلم لا يتجاوز ذلك الموضع من ذلك الجامع؟!.. إنك ترى كثيراً من جيراننا جهلاء بكثير من

الأمور الضرورية لهم في دينهم.. ولا نجد من يعلمهم.. وتراهم على هذه الحال ولا تبالي بأمرهم، وهم جيرانك وإخوانك، وأنت تعلم أنه لو قصد أحدهم الأزهر، على الفرض والتقدير، ووقف على دروس العلماء فيه، فإنه لا يعقل ما يقولون، ولا ينتفع بما يقررون، فإنهم يتكلمون بما لا يفهمه من الألفاظ الاصطلاحية..!.. لقد سأل عيسى رجلاً: ما تصنع؟ قال: أتعبد... قال: من يعولك؟ قال: أخي.. قال: أخوك أعبد منك!.. وقال عمر: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة!.. وكان الصحابة يتجرون في البر والبحر، ويغرسون ويعملون في نخيلهم.. فما هذا التقاعد والتقاعس عن الكسب والسعي في طلب الرزق؟!.. ومالك لا توسع على عيالك؟!.. ومالي أراك تصرف جميع أوقاتك في المطالعة والبطالة؟!.. وهلا قسمت وقتك قسمين، قسم تصرفه في العلم والعبادة والقسم الآخر في طلب الرزق ؟!... إن الدنيا دار تعب، فكيف ترجو الراحة فيها؟!.. والغنى نعمة من الله.. ولن يكون سبباً لذم صاحبه وصرف النظر عنه.. والبطالة هي المؤدية إلى الفقر، الموجبة للذلة والمسكنة طول العمر... إن الغني، وإن كان قد يؤدي إلى بعض المضرات، لكن نفعه أكثر من ضرره!![1]».

* * *

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٣٤٥ - ٣٦٤.

هكذا... وعلى هذا النحو أدار علي مبارك حواراً بين «علم الدين» وبين «زوجته» في الرواية.. فكان «علم الدين» نموذجاً لفكر المجتمع الاقطاعي وقيم العصور الوسطى، على حين كانت «زوجته» الصورة الجديدة لفكر المجتمع الحديث.. فانتصرت لقيمة «العمل» وفضيلة «السعي» في سبيل الغنى المشروع، وأبرزت ميزة العلم النافع، وغضت من شأن «الحكاكات والمماحكات» اللفظية التي وقف عندها شيوخ الأزهر تحت أعمدة مسجده العتيق!...

وكان علي مبارك، بذلك، ينتصر للقيم الاجتماعية الجديدة لمجتمع ما بعد مجتمع الاقطاع!...

موقف متردد من تحرير المرأة

[● إن تربية المرأة أقوى في صونها من الحجاب... فحسن التربية يرشدها لما يجب عليها من الفروض، ويكسوها حلل المروءة اللائقة بها وبزوجها وأقاربها. وكما لا يكتفي بمجرد العلم مع الحرية، كذلك لا يكتفي بمجرد العزلة مع الجهل، بل لا بد، في كلا الحالين، من حسن التربية في الابتداء..

...والحجاب عادة أخذها العرب عن الأعاجم والأتراك الغزاة.. وهي خاصة ببعض مدن الشرق، ولا أثر لها في الريف أو البادية ولا عند عرب المغرب وسواحل الشام وأرض الحجاز...

● وهل حرية النساء إلا أن يبلغن حقوقهم على أزواجهن، حسبما تقتضيه المروءة وصيانة النساء عن الدخول فيما ليس لهن من خصائص الرجال؟!... إن عادات الشرقيين في احتجاب النساء عند الرجال أصح وأصلح!... ولا يلزم المرأة، في بيت زوجها، الا تسليم نفسها له!!...]

علي مبارك

سبق رفاعة الطهطاوي كتاب الشرق جميعاً إلى الحديث عن قضية المرأة، تعليماً وعملاً.. فهو منذ التاريخ الذي كتب فيه [تخليص الابريز] - سنة ١٨٣٠م - قد اتخذ موقفاً مناصراً لتحريرها من أسر العصور الوسطى، وخاصة عندما عرض صورة المرأة الفرنسية، وبدد أوهام عصره ومجتمعه الشرقي حول اقتران التحرر والاختلاط بالانحلال و«اللخبطة!»..

وجاء علي مبارك، فكانت روايته [علم الدين] المكان الذي عرض فيه فكره من قضية المرأة، وهي الرواية التي كتبت في نهاية خمسينيات القرن التاسع عشر...

ونحن نستطيع أن نقول إن علي مبارك قد انحاز إلى صف تحرير المرأة الشرقية وتطويرها في بعض القضايا، ووقف متردداً أمام بعض القضايا الأخرى.. وفي القضايا التي انتصر للمرأة فيها كان واضحاً وصريحاً.. أما مواقفه المترددة فلقد اختار لتغليف التردد، أو لتفادي الحرج وإيثار السلامة، أن يسوق آراء

الفرقاء، المتصارعين حول الصواب في هذه القضايا، على ألسنة أبطاله في [علم الدين]! . . .

فهو قد وقف إلى جوار حق المرأة في التعليم، بل كان أول ناظر للمعارف ينهض بافتتاح المدارس الحكومية التي تتعلم فيها الفتيات علوم المنهج العام، بعد أن اقتصر تعليمهن على «الولادة» منذ عصر محمد علي. . والشيخ «علم الدين»، بطل روايته، قد تزوج فتاة فقيرة غير متعلمة، فعلمها القراءة والكتابة حتى غدت ندا له في القراءة وتحصيل المعلومات! .

وفي الموقف من كفاءة المرأة العقلية، وقدرتها على منافسة الرجل في الجدل والنظر العقلي، كان المجتمع الشرقي يعمم معنى الحديث الذي رواه الرواة عن الرسول ﷺ، والقائل عن النساء. إنهن «ناقصات عقل ودين»[1]، دون تخصيص له بمناسبة قوله،

---

(١) نص الحديث - وهو مروي عن ابن عمر - : «يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار، لكثرة اللعن وكفر العشير. ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن! . قالت - [أي زينب امرأة عبد الله بن مسعود] - : وما نقصان العقل والدين؟ . قال: أما نقصان العقل والدين، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ولا تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين». والحديث ورد في صحيح مسلم، وسنن الدارمي، وابن ماجه، ومسند أحمد بن حنبل.

وأنا أعتقد أن هذا الحديث لا يعني ما شاع له من معنى يؤكد ويعمم ويؤبد نقصان عقل المرأة ودينها. . فقد يكون خاصاً بمن قيل فيهن. . أو بمن يكثرن اللعن ويكفرن بالعشير - كما حدد الحديث - ثم هو يتحدث عن تميز النساء

ومن قيل فيهن، ودون وعي لما تحرر المرأة بتعليمها وتجربة الحياة العملية إن هي مارستها من قدرات عقلية تخرجها من إطار اللاتي عناهن هذا الحديث الشريف... كان ذلك موقف المجتمع الشرقي ودوائر الفكر المحافظة والمسيطرة فيه... ولكن علي مبارك يعقد لنا في روايته مسامرة كاملة ـ [المسامرة الخامسة ـ المحاوره] ـ يدير فيها حواراً بين الشيخ علم الدين وبين زوجته، **فإذا الآراء الأكثر دقة والأدخل في الصواب تأتي جميعها على لسان الزوجة، لا الزوج!...** ولا بد أن نلحظ دلالة هذا الموقف على تقدير علي مبارك لعقل المرأة الناضج وكفاءتها إذا هي حصلت الأدوات وأخذت منها ما يأخذ الرجال.. **فليست النساء، كجنس وبحكم الطبيعة، ناقصات عقل ودين، وليس الرجال، كجنس وبحكم الخلقة، كاملين في العقل والدين، وإنما المعول في النقص والكمال هنا على امتلاك المؤهلات والتمرس في استخدام المقدمات. وغلبة النقص أو الكمال على جنس من الأجناس إنما مرجعها الوضع التاريخي**

= بسلاح يغلبن به ذوي الألباب، وهو ـ في رأينا ـ سلاحهن كإناث... ونقصان شهادتهن عن شهادة الرجال ليست حالة أبدية، لأنها ثمرة تخلف وضع المرأة الفكري والتجريبي، تتغير بتبدل هذه الأوضاع.. أما الفطر في الصوم وترك الصلاة للحيض، فليس نقصاً في الدين تعاقب عليه المرأة، بل هو تمام الدين، وهي ستعاقب إن هي صامت أو صلت في المحيض، فلها هنا ثواب.. فالحديث ـ وهو من أحاديث الآحاد ـ لا بد وأن تكون له ملابسات تخصص معانيه، ومن ثم فلا بد من التفكير ملياً قبل تعميم وتأبيد شاع من معناه على كل النساء وفي كل العصور!.

وظروف التطور ونظرة المجتمع ومكان هذا الجنس من العلوم والتجارب العلمية في الحياة.. يغلب عليه النقص إذا افتقد مؤهلات الكمال، ويقترب من الكمال بقدر ابتعاده عن عوامل النقص في العقل والدين!..

في هاتين القضيتين، من قضايا تحرير المرأة، التعليم، والقدرات العقلية والفكرية، وقف علي مبارك مع التيار التقدمي والثوري والمستنير.. على حين تراه قد وقف موقف المتردد في قضيتي: تعدد الزوجات، ورفع الحجاب والاختلاط..

ففي قضية: التعدد؟ أو وحدانية الزوجة الواحدة للزوج الواحد؟.. اكتفى علي مبارك بعرض وجهات نظر الفريقين دون أن يحسم النزاع الناشب بينهما.. فدعاة الوحدانية في الزواج تأتي حججهم على لسان «المستشرق الانجليزي».. وأنصار التعدد يعبر عن وجهة نظرهم الشيخ «علم الدين».. ومن خلال الحوار حول هذه القضية يطلعنا علي مبارك على بعض آرائه في هذه القضية، سواء في وضعها التاريخي، أو في واقعها الذي كان يجري على ضوئه النقاش..

١ - فهو يرى أن تعدد الزوجات ليس خاصية اختص بها الشرق ولا أمراً انفرد بها الاسلام والمسلمون «بل هو عام... ولم يمنعه إلا النصارى فقط.. حتى أن من قبلهم كانوا يجوزون التعدد أيضاً»

٢ - وفيها يتعلق بالأسباب التي أدت، تاريخيا، إلى تعدد

الزوجات، يقدم عدداً من الأسباب الواقعية والصادقة.. فكثرة عدد النساء عن عدد الرجال، بسبب الحروب، كانت سبباً من الأسباب.. والشهوات الجنسية لدى بعض الرجال كانت سبباً آخر، يتحدث عنه فيقول: «ولعل الحكمة في إباحة تعدد الزوجات، عندنا وعند من كان على رأينا، أن التدبير الإلهي لما ميز الرجل بقوة البنية وطول زمن التناسل، بالنسبة للمرأة، وسلامته من الاعذار المعتادة للنساء في أوقات معينة، كالحيض والنفاس، راعى الشرع جانبه لذلك!»[1]

٣ ـ وفيما يتعلق بالموقف الاسلامي من هذه القضية القديمة، فإن علي مبارك يرى أن الاسلام قد التزم فيها موقفه المتميز: الموقف الوسط.. ففي الشريعة الموسوية كان التعدد مباحاً بلا حدود.. وفي الشريعة العيسوية كانت وحدانية الاقتران.. فجاء الاسلام بإباحته إلى أربع، كموقف وسط بين التقيد بالواحدة وبين الاباحة دون حدود!.. وهو يعلل وقوف الاسلام مع التعدد بالرغبة في الكثرة والتكاثر السكاني «والتعدد أعون على هذا الغرض وأنجح». وبالقصد إلى علاج حالات زيادة عدد النساء عن عدد الرجال وليست الشهوة الجنسية، التي استدعت التعدد قبل الاسلام، بسبب مرعى في ذلك التشريع عند المسلمين «إذ لا نظر في الدين لمجرد الشهوات.. ولو نظرنا لوجدنا المرأة الواحدة تعجز كثيراً من الرجال!..»

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٥٦٤، ٥٦٥.

٤ ـ ولكن علي مبارك يعترف بأن «الواقع» الراهن للمجتمعات الاسلامية قد خرج بهذا الامر عن حدود النفع والصواب، وأن التعدد قد غدا مصدراً لفساد اجتماعي تعاني من آثاره هذه المجتمعات، ذلك «أن استحكام الجهالة، والغاء مدارسة الديانة، وترك بناء الأعمال على أحكامها، وانقطاع المواعظ الحسنة النافعة المفيدة بين الرجال والنساء، تولد منه العود إلى مقتضيات الطبائع، من الغيرة والمحاسدة وحب الاستئثار والاسترسال مع الشهوات والدخول في الأمور من غير تقدير للحاجة ونظر للعاقبة، فاختل قانون الازدواج ولحقه الفساد، وقامت المشاقة!». . أي أن واقع تعدد الزوجات في المجتمعات الاسلامية قد أدى إلى اختلال قانون الزواج والاقتران بين الرجل والمرأة، فأصاب الفساد هذا القانون ـ قانون المودة وحفظ النوع وإثراء الحياة ـ وحلت المشاقة والمواكسة محل العلاقات السامية التي استهدفها الشارع من وراء هذه العلاقة. . وهنا يفتح علي مبارك بعض الباب لاحتمالات إدخال تعديلات في التشريع، فيقول: «. . . فخلاصة القول: إن جميع الأشياء، حسنها وقبحها، ومدحها وذمها، تابعة لكيفياتها ونتائجها، فما طابت كيفيته وعظمت نتيجته لم يختلف أحد على حسنه[1]».

أي أن التعدد، الذي رضى به الاسلام، عندما حسنت كيفيته، ودعت الحاجة إلى ثمراته، وطابت نتائجه، من الممكن

---

[1] المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٢٤٦.

أن نعيد النظر فيه، ما دامت كيفيته ونتائجه قد لحق بها الفساد، فاختل بسببه «قانون الازدواج»!..

أما فيما يتعلق برفع الحجاب عن المرأة وإباحة اختلاطها بغير المحارم، فإن تردّد علي مبارك يبدو أكثر وضوحاً! فهو يبدي إعجاباً شديداً بالمرأة الأوروبية، سواء في باريس، أو في أحد الخانات - [اللوكاندات] - بالاسكندرية، عندما التقى بها «علم الدين» وهو على وشك السفر إلى باريس... ويبلغ «برهان الدين» - ابن «علم الدين» - في إعجابه بالمرأة الأوروبية المتحررة حدالعشق والغرام، الذي تتحدث عنه الرواية دون نكير أو إنكار!... ولكن الشيخ يعود فيفكر في هذا الذي حاز إعجابه، فيعرضه على مواريث الشرق في الحجاب ومن أن المرأة للمنزل، بل وللفراش فقط في هذا المنزل!.. وسرعان ما ينحاز إلى مواريث الشرق في الحجاب وتحديد مهمة الزوجة في تسليم نفسها للزوج عندما يريد!.. فنحن هنا أمام النموذجين المعبرين عن وجهتي النظر في تلك القضية.. صورة المرأة الأوروبية المتعلمة المتحررة، وحجج المستشرق الانجليزي.. من خلالها ترى الدعوة لتحرر المرأة من قيود الحجاب، ولانخراطها في المجتمع جنباً إلى جنب مع الرجل... واختيارات الشيخ «علم الدين» وآراؤه عن الحجاب الذي يعصم المرأة والرجل من الشهوات، ويقيد المرأة إلى الفراش... ترى من خلالها منطق التيار المحافظ على واقع القرون الوسطى وقيم عصر الاقطاع... عرض علي مبارك النموذجين، في [علم الدين]، دون أن يحسم الموقف، أو

ينحاز لأي منهما. . . ولكن الحقيقة تفرض علينا أن نقول: إن صورة المرأة الأوروبية المتحررة، كما عرضها، كانت مشرقة، بقدر ما كانت «حجج» الشيخ «علم الدين» باعثة على النفور! . .

١ ـ فعندما صحب الشيخ علم الدين صاحبه الانكليزي إلى الاسكندرية، كي يبحرا منها إلى مرسيليا، أقام في «لوكاندة» يغلب على نزلائها الانتماء للجاليات الاجنبيه في مصر. . وفيها جلس الشيخ إلى المائدة يتناول طعامه مع جمع من النزلاء **«وكان ممن حضر على المائدة، بالقرب منه، شابة طليانية، تعرف اللغة العربية وغيرها، فكانت تارة تتكلم بها وتارة تتكلم بلغتها أو غيرها من اللغات الأجنبية، على حسب لغات الحاضرين! وكانت بديعة الجمال، نادرة المثال، ظريفة الشمائل، ثابتة الجأش، فصيحة اللسان، لا تقتصر في كلامها على الألفاظ العادية، بل تأتي بمحاسن الألفاظ اللطيفة والنكات الظريفة، وتدخل مع الرجال في المباحث العلمية والسياسية، مع صغر سنها! . فتعجب الشيخ من ذلك، واستغرب حالها، لكونه لم يعهد في نساء بلاده المشرقية أمثالها، فإنه يراهن دائماً عن الرجال بمعزل ولا شيء عليهن سوى خدمة المنزل، ولا يتكلمن إلا مع أزواجهن وذوي قرابتهن، وإذا تكلمن مع الرجال يتكلمن بخجل واستحياء. بخلاف ما رآه في الطليانية ومن معها من النساء، إذ لم يجد بينهن وبين الرجال فرقاً في المخاطبة والمجاوبة والمحاورة والمسامرة! . وكان يرى الخادم يبدأ في تقديم الطعام بهن قبل الرجال أو إذا طلبن شيئاً بادر بتقديمه إليهن من كان**

قريباً منهن، لا فرق بين صديق وغريب، وأجنبي وقريب!. فالكل محتفل بإكرامهن كل الاحتفال، ولا يأتي بما يسرهن من الأقوال والأفعال!..»

يعرض علي مبارك هذه الصورة المشرقة للمرأة الجديدة، التي ازدانت بالحرية والعلم والشجاعة، وهي صورة، ولا شك، تغري قارئه بالميل إلى هذا الطريق الجديد الذي بدأت المرأة السير فيه!....

ثم يعود ليعرض فكر خصوم هذا الطريق الجديد.. فالشيخ قد عاد إلى مواريثه **«فأمعن في ذلك النظر، وأجال فيه قداح الفكر، وقارنه في نفسه بعوائد نساء المشرقيين، لينظر أيهما أفضل؟.. فرأى أن عوائد المشرقيين أجمل وأكمل، لأنها أعون على حفظ الشرف، وأصون للعرض من أسباب التلف!»**[1]

وعندما يدور الحوار بين «علم الدين» وصاحبه الانكليزي، حول هذه القضية: الحجاب؟ أم الاختلاط؟.. نجد علي مبارك يعرض، على لسان المستشرق، حجج المحدثين الراعين لتحرير المرأة، فيقول: إن التربية هي العاصم للمرأة من الزلل، وهي حصن الشرف، وليس الحجاب في المنزل، إذ الحجاب لن يعصم النساء من الرذيلة، لأن صلاتهن بالعالم وأهل الرذائل فيه لن تقطعها جدران البيوت، وليس سوى التربية الحسنة عاصماً

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٤٥٨، ٤٥٩.

وحصناً للمحجبات. . . فعزلة المرأة لن تحميها من المحذورات «لأن كل امرأة يمكنها أن تعلم كل شيء وهي في منزلها! . . فليس هذا أقوى في الصيانة من التربية. . فإن حسن التربية يرشدها لما يجب عليها من الفروض، ويكسوها حلل المروءة اللائقة بها وبزوجها وأقاربها، فكما لا يكتفي بمجرد العلم مع الحرية، كذلك لا يكتفي بمجرد العزلة مع الجهل، بل لا بد في كلا الحالين من حسن التربية في الابتداء، لأن حسن التربية يهذب عقل الانسان ويصفي طباعه ويعوده على الفضائل ويبعده عن الرذائل، فهو زمام ذلك كله، والقاطع لعرق الشبهة من أصله!»

وعندما ينسب الشيخ «علم الدين» الحجاب إلى تراث الشرائع والأديان، الذي وافق عليه واتفق العقلاء والنبلاء وأكابر الحكماء - يرد عليه المستشرق بأن الحجاب «عادة»، وهي عادة طارئة على المجتمعات الاسلامية، جاءت إليها مع الأعاجم والترك عندما غزوا تلك المجتمعات «فنشأ من عظمتهم وكبرهم احتقارهم غيرهم، وأكثروا للخدمة من الجواري وللفرش من السراري، ولما أكثروا منهم خافوا عدم رضاهن بهم، فمنعوا حرمهم من الدخول والخروج والاختلاط بالرجال، وألزموهن البيوت والعزلة عن سائر الأجانب». . . ويستدل على ذلك بأن عادة العرب لم تكن كذلك، ففي البادية، كما في الريف، وعند بلاد العرب وأهل المغرب وسواحل الشام وأرض الحجاز، لا مكان للحجاب، فالمرأة تعمل، وتلقي الرجال، وتنهض بإكرام ضيوف زوجها. . ولا مكان لهذه «العادة» الدخيلة إلا «في بعض

مدن البلاد المشرقية!، وأختصاصها بهذه المدن القليلة يدل على أنها بدعة حدثت لأسباب طارئة!..»[1]

٢ ـ وفي باريس يلتقي «برهان الدين»، ابن «علم الدين»، بالفتاة الفرنسية، ويعرض علي مبارك صورتها المشرقة، التي تزينها الحرية والثقافة والعمل والاشتراك مع الرجل في المحافل والمنتديات، بل ويعرض في حفاوة ورونق ما نشأ بين «برهان الدين» وبعض الفتيات من حب ومطارحات في ميدان الغرام!..

فعلى إحدى موائد الطعام جلس برهان الدين «... فأكل بالشوكة والسكين، مع غاية اللطافة والكمال، بسهولة!.. وكان إلى جانبه فتاة أفرنكية بارعة الجمال، قد كساها الحسن والدلال ما تفتتن به الرجال، تسقى السقيم بكلامها فاترة الطرف، لينة العطف، كحيلة العين، حمراء الوجنتين:

بيضاء فيها إذا استقبلتها دعج
كأنها فضة قد شابها ذهب[2]!

فمال إليها «برهان الدين»، وأخذت بلبه، واستولت على مجامع قلبه، فكان نظره إليها يتردد، ولون خديها من الحياء يكاد يتوقد، وكذلك هي! كانت تسارق برهان الدين النظر، فهما وإن لم يتكلما لكن في الاشارة ما يغنى عن الكلم، فكان بين قلبيهما

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٤٦١ ـ ٤٦٤.

(٢) العين الدعجاء: السوداء الواسعة.

مسامرات خفية نمّت بها بين الحاضرين وجنات الخدود، ونطقت بها من قرائن الحال الشهود!... وكان برهان الدين متوجهاً بكليته لحسن صفاتها وشمائلها، ويتمنى أن لا يفارقها، لكن انقضى وقت الطعام، فقامت وقام، فكانت عند نهوضها تعتدل وتميل، كأنها المعنية بما قيل:

وتميس بين مزعفر ومعصفر
ومعنبر وممسك ومصندل
هيفاء إن قال الشباب لها انهضي
قالت روادفها اقعدي وتمهلي!

فما زال يتبعها ببصره حتى غابت عن عينه، وفي قلبه من فراقها حسرة، لكنه تحايل على إخفاء هذا الأمر، واقتدى بقول من وجد سبيلاً إلى الصبر:

ولقد قنعت من اللقاء بساعة
إذ لم يكن لي للدوام تطرق
قد ينعش العطشان بلة ريقه
ويغص بالماء الكثير ويشرق!»

هكذا، وعلى هذا النحو، يعرض علي مبارك هذا المشهد من مشاهد «برهان الدين» في ميدان العشق للفتاة المتحررة في باريس!

٣ ـ وعندما يذهب برهان الدين، في زيه الشرقي، إلى المسرح

- [التياتر] - بباريس، ليشاهد إحدى رواياته المسرحية، ويجلس وبيده «نظارته المكبرة»، يجد نفسه محط أنظار الحسناوات! . . فلا يتحرج من النظر إليهن، والتمتع بمحاسنهن! ويعرض علي مبارك ذلك المشهد، أيضاً، عندما يحكيه برهان الدين فيقول: «. . . وفي أثناء الفصول كانت تتجه نحوى من جميع جهات التياتر أبصار الحاضرين، من النساء والرجال، والكثير كان يستعمل النظارة، وتكرر ذلك منهن مراراً، وكنت أنا كذلك أنظر إليهن بنظارتي، فأرى انهن بالقرب مني، وأرى المرأة مكشوفة الكتفين والصدر والرأس والذراعين، وأرى نصف نهديها من الأعلى، فلم أتمالك أن نظرت إليهن، ونزهت طرفي في حسنهن! وتذكرت قول من قال:

يا دمية شرعها ضرب النواقيس
ما بين قرب مزاري والنوي قيسي
هذى سناياك قد لاحت بوارقها؟
أم أشرقت في الدجى أنوار برجيس؟
أم ثغر كأس الطلا يفتر عن حَبَبٍ؟
أم ذا ضياء نبي الله جرجيس؟!

وعذرت من هام بحب الغواني، وأباح التمتع برؤية الوجوه الحسان، وتمثلت بقول من قال:

أيها العاشق المعذب صبرا
فخطايا أخي الهوى مغفورة

زفــرة في الهــوى أحط لــذنــب

مــن غــزاة وحــجــة مــبــرورة!»

وفجأة أبصر برهان الدين فتاته التي عشقها على مائدة الطعام!

«ولهـا سـرائـر في الضمير طـويتها

نـسـى الـضـمـير بـأنها في طـيـه!

فتشاغلت عنها بما في التياتر من الغواني والمغنيات واختلاف الصور، لكن لما وقع بصري عليها، ووجدتها موجهة نظارتها نحوى لم أتمالك أن وجهت نظارتي نحوها، فكنت كما قيل:

لم يكن المجنـون في حـالـة إلا وقـد كنت كـما كـانـا

لكنـه بـاح بسـر الهـوى وأنني قـد ذبت كتمـانـاً!

فاشتغل فكري بها، وقصرت نظري عليها، وتوجهت بكليتي إليها، وقام بي من الشوق ما لا أقدر على دفعه، ولا حيلة لي في رفعه، فهاجت ضمائري، واضطربت سرائري، واشتغلت بها عن رؤية حوادث التياتر وغيرها، حيث وجدتها تفوق الجميع حسناً ودلالاً، وظرفاً ولطفاً وكمالاً، وكان يظهر لي أنها تهتف باسمي، وتشير بطرفها إلى رسمي، وكثيراً ما رأيتها تشير إلي بالبنان، إشارة مقيم بالحب ولهان، فكان بصري مراقباً جميع حركاتها، وقلبي مشغولاً بجميع صفاتها، وغرقت في بحار الأفكار، لكني كتمت عن الحاضرين تلك الأسرار، وخشيت هتك الأستار، وهمت من حبها وجداً، ولا هيام ليلى وسعدى، فما راعني إلا سرعة قيامها، والتفاتها إلي بحسن قوامها، وكأنها تقول:

بنا فوق ما تشكو فصبرا لعلنا
نرى فرجاً يشفى السقام قريباً

فغشيني من الهم ما غشى فرعون في اليم، فما نظرت إلى نظرة إلا أورثت قلبي ألف حسرة، فذهبت وذهب قلبي معها، وكدت مما بي أقوم كي أودعها، وصرت أردد في نفسي عندما غاب شخصها الجميل عني:

يا رائحاً بعدما سباني حسبك رب السماء تعالى

واجتهدت في صرف صورتها عن وهمي فما أستطعت، وأمرني آمر الورع والتقوى بسلوانها فما أطعت!

وقد كنت من قبل الهوى أتقى الهوى
زماناً ولكن الهوى غلب التقوى!

فبقي خيالها نصب ناظري، وجمالها قيد خاطري، حتى انصرفت بعدما تم اللعب وانقضى، وبقلبي من فراقها جمر الغضا[1]! . .»

* * *

هكذا عرض علي مبارك لقضية المرأة. . . وهكذا وقف من معركة تحررها وتحريرها. . .

ففي التعليم. . كان نصيراً ورائداً في إنشاء مدارسها. .

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٦١٦ ـ ٦٢٢.

وفي الكفاءة... وضع ثقته في قدرتها على امتلاك العقل الراجح إن هي حصلت أسبابه وأدواته..

وفي تعدد الزوجات.. والحجاب.. عرض آراء الفرقاء المختصمين!.. وإن يكن قد عرض صورة المرأة الأوروبية المثقفة والمتحررة على نحو يزكي عند القارىء، هذا الطريق الذي اختارته وقطعت فيه الخطوات وللخطوات..

كما عرض لنا غرام برهان الدين في باريس... فهل تخيل، حتى يمتعنا بصوره الأدبية، وتعبيره عن مشاعر النفس الانسانية العاشقة، ويعرض علينا شواهد شعر القدماء في الحب والغرام؟... أم كانت لعلي مبارك بباريس وقائع في هذا الميدان؟!..

فقط.. نتساءل.. والله أعلم!..

بين الدين والفلسفة

[... بالعقل يتميز الإنسان عن الحيوان، فهو يسعى في تحصيل مقتضيات طبعه تبعاً للأحكام العقلية...

... ويستحيل وجود شيء أو عدمه لا عن علة توجب ذلك.. ولا بد لذلك من سبب.. ونحن مأمورون بالتعرف والاستكشاف لحقائق الأشياء وأسبابها وعللها، وموجبات صلاحها وفسادها، وإجراء السنن الإلهية في مجاريها..

... ولقد أدى اضطهاد الفلسفة والفلاسفة، واتهامهم بالكفر، في بعض العصور، إلى أن عطل المسلمون عقولهم عن استعمالها فيما يمكن للإنسان علمه!... ولن يقدر كتاب الله حق قدره إلا من أطال البحث، بالنظر، في أسرار مخلوقاته.. فلقد جعل الله الكلام في بعض الحشرات قرآناً يتلى ويدرس!...]

علي مبارك

لم يتعلم علي مبارك في الأزهر، فهو، من حيث المؤسسات التي تعلم بها: «ابن مدارس»!.. ولقد ضمت آثاره الفكرية الكثير من النقد الموضوعي والصائب والمر لنهج الدراسة الأزهرية ومضامين كتبها في عصره...

ولقد كان الرجل مسلماً سنياً، يجل أولياء الله، ويدافع عن «البيوت» التي توارثت «نقابة الأشراف»!.. واحتوت آثاره وكتبه دفاعاً مجيداً عن الفكر الإسلامي، وتمجيداً لدور الإسلام في تحضر العالم وتمدنه، حتى لقد خصص لذلك واحداً من آثاره الفكرية...

ولقد أثمر هذا المزيج في عقل الرجل وقلبه ثمرة جعلت منه واحداً من أقل مفكري عصره وقوعاً تحت سلطان الخرافة فبدا في كثير من صفحات آثاره الفكرية عقلاً علمياً، وعالماً عقلانياً، تآخت عنده الفلسفة مع الدين، فتزاملا وتعاونا لتعبيد الطريق أمام الإنسان كي يكتشف المزيد والمزيد من أسرار هذا الوجود..

فعلي مبارك، المهندس، والمتخصص في الرياضيات، والمؤمن

بأن أصحاب المنطق الرياضي قادرون على النظر في كل شيء والعطاء في كل ميدان، قد زانته ثقافته، العلمية، واحترامه للحضارة كحضارة، بزينة التسامح، فرفض التعصب الديني، واحترم مواريث الأمم في العقائد، حتى ولو خالفت هذه المواريث ما بشرت به الديانات السماوية الجديدة! . . فرأيناه وهو يتحدث عن مصر المسيحية، زمن الرومان، ينتقد تعصب الرهبان ضد تراث مصر القديمة ومعابدها وتماثيلها . . فهؤلاء الرهبان، الذين عانى كثير منهم من الاضطهاد في بلادهم الأصلية، قبل أن يفروا ويحتموا بمصر وينزلوا بأديرتها، هؤلاء الرهبان لم يحترموا حرية عقائد الآخرين بل دفعهم «بغضهم لدين من تقدم من المصريين إلى أن هدموا مبانيهم القديمة، وهياكلهم الجسيمة، وخربوا الكثير من البلاد، وهدروا دم من كان بها من العباد! . .» حتى لقد فاق دمارهم هذا ما صنعه الغزاة الفرس بمصر في تلك الأزمان[١]! . .

وقساوسة المسيحية الكاثوليك، في باريس، تزعموا حملات الاضطهاد للفكر والمفكرين، وناصبوا حرية الفكر العداء، وخاصة منذ إنشاء أول مطبعة في باريس سنة ١٤٦٦ م، فساقوا إلى ساحة الإعدام كل من رأوا في فكره شبهة خروج عن نهجهم المتخلف والخرافي في الإيمان، زاعمين أنه قد ألحق الإهانة بالمسيح عليه السلام، واقتادوا العامة والدهماء وراءهم في هذا الطريق،

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٦٦٦.

حتى «صارت الديانة في اضطراب، وأدخل فيها بعض القسس الأكاذيب من كل باب، ونسبوها إلى المسيح، وادعوا أنها من الكتب المقدسة، وتمادى بهم الحال إلى أن اشتبه الصواب **بالمحال!...»** الأمر الذي أدى إلى انقسام المسيحية، وثورة البروتستانت ضد الكثلكة والكاثوليك «وصارت كل فرقة تبيح دم الأخرى!..»[1].

وبالرغم من أن الإسلام ينكر وجود سلطة دينية لبشر تتناول الحكم على عقائد الناس، إلا أن التقليد الأعمى الذي حذر منه الرسول، عليه الصلاة والسلام، أمته عندما قال: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا حجر ضب حزب لدخلتموه!».. هذا التقليد جعل طائفة «تزيت بزي أهل الإسلام» تنتحل لها سلطاناً على عقائد من يخالفها في الرأي ولا يتفق معها في المشرب والاتجاه!..

وعندما وقفت العصور المظلمة بالتعليم عند أعمدة الأزهر الشريف، ووقف شيوخه بالعلم عند آثار العصور المملوكية التي خلت من الخلق والعقلانية والإبداع، تحول نفر من هؤلاء الشيوخ إلى أداة إرهاب للفكر الجديد، وإلى عقبة كأداء تعمل ضد تيار التقدم والانطلاق من أغلال تلك العصور..

وعلي مبارك عندما يفكر في الآفاق الجديدة والنظريات الحديثة والمعطيات المبتكرة التي تقدمها الحضارة الحديثة لوطنه وقومه،

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٢٠٠.

ويلمح في الأفق ثمارها المنتظرة، تدفعه الهمة إلى جمع ما تعلم في كتاب ينشره، كي يبشر قومه بالمبتكر والجديد، ولكنه يتذكر ما سيثيره أهل الجمود ضده وضد الفكر الجديد من اتهامات.. فيكتب يقول: «... ولو أردت جمع ما علمت ضمن كتاب، لكان هدية لأولي الألباب، الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، قائلين بلسان الاعتبار: [ربنا ما خلقت هذا باطلاً][1]. إنما هناك قوم كالسوقة، إن عرضت لهم بذلك قدحوا في عقيدتي، ورموني بما لست فيه، فهم أناس دأبهم العناد، لا يميلون للمعارف، ولا يحسنون من الأشياء غير الزخارف، حظ أحدهم أن يأكل وينام، ويتزيا بزيِّ أهل الإسلام، أذا سمع وصف البحار والجبال قال: ذلك لا يثبت إلا بمحض الخيال! وكل ما ليس في كتاب الله ضلال! والاشتغال به بئس الاشتغال!.. غافلاً عن قول رب العالمين: [وفي الأرض آيات للموقنين][2]. وفيهم من يخشى من صولته، ويرهب من هيبته، فربما كان [وجود هؤلاء القوم] داعية للكتمان، وسبباً من أسباب الحرمان!..»

يعرض علي مبارك هذا الموقف المتردد الخائف، الميال لإيثار السلامة من أذى أهل الجمود ـ يعرضه على لسان أحد أبطال روايته [علم الدين]، ولكنه يعود، على الفور، على لسان بطل

---

(١) آل عمران: ١٩١.

(٢) الذاريات: ٢٠.

آخر ليزكي الموقف النضالي والمناضل ضد أهل الجمود هؤلاء، فلا بد من التصدي لهم والتبشير بالجديد، حتى لو قل اتباعه وعز أنصاره وندر عارفوه، لأن الحين سيحين يوماً فإذا به ثمراً ناضجاً يتذوقه وينعم به الأكثرون.. فالجديد ضد القديم، والجاهلون لأهل العلم أعداء، وصراع الفريقين أزلى أبدى، حتى لقد غدا سنة من سنن التطور والكون والحياة، ولا بد من اقتحام الميدان دونما رهبة للعواقب أو خشية من العقبات.. فلا يصح «أن يتأخر **محب العلم عن تعلمه وتعليمه ونشره، لنفع أهل وطنه وغيرهم، لخوف مضادة بعض أفراد، أو عدم اتباعهم لرأيه، ومتى كانت الحقائق ثابتة بالبرهان العقلي أو النقلي عن أساتذة أفاضل فلا عليه من إنكار المنكرين وذم الجاهلين، فلا يمنعه ذلك عن إرشاد أهل وطنه، بل الواجب عليه الإفصاح به وإشهاره، فإنه وإن لم يصدقه الكل فقد يصدقه البعض فيكون معضداً له، فتحصل به المساعدة في نشر معلوماته، وعلى تداول الأيام تكثر طائفة أهل العلم وتعلو على طائفة أهل الجهل، وتتقدم الملة شيئاً فشيئاً، وتتسع ثروة أهلها باتساع دائرة العلم بين علمائها وساسة أمورها، وتكون كغيرها من الملل المتمدنة!..»**[1].

ويضرب علي مبارك الأمثال، من التاريخ الفكري للحضارة العربية الإسلامية، على صدق هذه المقولة، وعدم تخلف هذا القانون الذي يحكم ظاهرة نشأة الجديد، وصراعه ضد القديم،

---

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٥٣٧. ٥٣٨.

والضحايا والتضحيات، ثم تفكك القيود الغليظة شيئاً فشيئاً ليشتد عود الفكر الجديد. .

فلقد أتى على الحياة الفكرية الإسلامية حين من الدهر ركب فيه موجتها نفر من الفقهاء الذين وقفوا عند دلالات ظواهر النصوص، فزعموا، لقصور مداركهم، أن الفلسفة والحكمة تتعارض مع الدين، وشغلوا أنفسهم وشغلوا الناس معهم بتأليف الكتب التي تثبت حدوث العالم وغيره من القضايا التي عارضوا بها مقولات الحكماء، وازداد نفوذهم حتى دانت الدولة لأفكارهم فجعلت الفلسفة من المحرمات «**حتى صارت كتب الفلسفة منكرة، والمشتغلون بقراءتها كفرة، حتى كان يكتب في عهود تولية المحتسبين أمرهم والتشديد عليهم التفتيش عن تلك الكتب، والهجوم على بيوت من يعلم أن عنده شيئاً منها، وكان ذلك سبباً لتعطيل المسلمين عقولهم عن استعمالها فيما يمكن للإنسان علمه!**. .»

لكن هذا الحال لم يخلد على الدهر. . فجاء مثلاً حجة الإسلام الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م] فتفلسف بعض التفلسف، وميز بين ما هو مقبول من الفلسفة وما هو مرفوض، وأنكر الجمود، وقرر أن «هذا النوع من نصر الدين أضر عليه من طعن الملحدين!». . ثم جاء من بعده من نصر الفلسفة أكثر من نصره، وأباح من مقولاتها ما لم يبحه، مثل جلال الدين الدواني [٩٢٨ هـ ١٥٢٢م] الذي أثبت «صحة أشياء كثيرة مما أبطله

الغزالي!». . وهكذا أخذت في الأزدياد والاتساع، شيئاً فشيئاً، فرص الفوز والانتصار للعلماء المبشرين بالحق ضد أهل التخلف والجمود[1]. .

وعلي مبارك يدرك، وهو يؤرخ لمدينة باريس، أن الجمود في الفكر الديني كان دائماً حليف السلطة الرجعية، فحزب الملك في فرنسا كان يضم الأشراف والنبلاء، ولقد استعان هذا الحزب على تكريس أفكاره لدى العامة برجال الدين الذين جعلوا الديانة تقليداً محضاً ونقلاً بحتاً «سواء كان المنقول صحيحاً أو غير صحيح، ومعقولاً أو مخالفاً للعقل!. .»[2].

وإذا كان تخطيط الأمة لمستقبلها، في الاقتصاد والسياسة ومختلف فروع الإنتاج وميادينه، هو من ألزم لوازم بناء المجتمع الحديث، فإن أهل الجمود يرون في ذلك حديثاً عن المغيبات وتنبؤاً بها، وتجاوزاً من الإنسان لحدوده، واعتداء على النطاق الذي اختص به المولى سبحانه وتعالى!. .

لكن علي مبارك يميز بين القدر الذي اختص الله به ذاته، وبين القدر المقدور للإنسان، فكل ما يقع في نطاق الفعل الإنساني، من لوازم حياته وعدد مستقبله، يستطيع الإنسان أن يحدده سلفاً ومستقبلاً، وأن يقدره، حتى يحدد رزقه قبل حلول موعد

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ٥٠٧.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ١٩٤.

حصاده! . ومن ثم أن يخطط لإنتاجه واستهلاكه ويستعد لذلك، وهو في هذا لا يتجاوز حدوده، بل هو بذلك صانع قدره، الذي يعينه العلم على صنعه، رإن كره الجامدون. . «. . فمطالب الناس منحصرة في أربعة أشياء: الأغذية، والأدوية، والأكسية، والأخبية. . لحفظ الحياة، والحصول على لذاتها، والتصون عن آلامها. . ولذلك توزع الناس الأشغال في هذه المجالات. . . فلو فرضنا أن صناع النعال، مثلاً، عرفوا المقدار الذي يحتاجه أهل بلدهم في السنة، ولا بد لهم من أخذه وإتلافه في تلك المدة واستعواضه بعدها، فهم لا شك جازمون بأنه يطلب منهم في وقت الضرورة إليه، ويأخذون مقابل أعمالهم فيه، فهم واثقون بحصول رزقهم في وقته. أمر قضت به طبيعة الخلقة وفرغ منه القدر! . على هذا جميع الأعمال. غاية الأمر أن جهالة الرزق إنما هي في زرع يزرع أو حيوان يربى فتصيبه آفة سماوية قبل بدو صلاحه وإبان أخذ ثمراته، هذا هو موضع جهالة الرزق. على إن الناس ربما بحثوا عن أسباب تلك الآفات فتحرزوا عن كثير منها. ونحن مأمورون بالتعرف والاستكشاف لحقائق الأشياء وأسبابها وعللها، وموجبات صلاحها وفسادها، وإجراء السنن الإلهية في مجاريها! . . »[1].

فتلك ثمرة جديدة أثمرها منهج علمي جديد، حكم عقل مفكرنا الكبير. .

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٧٦.

وعلى حين عرفت أوربا قروناً تميزت بصراع الدين ضد العلم وعداء الفلسفة للاهوت، فلقد تميز تاريخنا الفكري والحضاري بخفوت الأصوات التي شابهت أصوات الكهانة الأوربية في تلك الميادين، حتى لا يكاد المرء يجد صدى حقيقياً لمثل تلك المعارك في تراثنا، اللهم إلا من جانب الفقهاء الذين تصوروا الإسلام محدوداً بقدرتهم المحدودة والعاجزة عن التفلسف والنظر والاعتبار والتدبر والتجريد، ومن جانب الحكام والساسة الذين رأوا في الجمود الفكري قيوداً تعينهم على تأبيد سلطان الاستبداد!..

بل لقد برزت في تراثنا، منذ وقت بعيد، محاولات جادة للتوفيق ـ لا التلفيق ـ بين الدين والفلسفة، وبين الحكمة والشريعة، وقدم روادها أنماطاً فكرية امتازت بالتماسك والقدرة على الصمود إلى حد كبير.. ولقد ساعد على أن نتميز ونمتاز بهذه الميزة عن أوربا، عقلانية الإسلام، الذي جاء ختاماً للرسالات، فناسب احترامه للعقل بلوغ الإنسانية سن الرشد ومرحلة النضوج، حتى لقد جعل معجزته الكبرى كتاباً لا سبيل لسبر غوره وفقه كنهه إلا بالعقل، وحتى لقد قرر أن السبيل الأوحد للبرهنة على وجود الفاعل الأول في الكون ـ [الألوهية] ـ هو العقل!... وساعد على ذلك أيضاً ما تميزت به الشخصية الحضارية لهذه الأمة من رفض الشطط، ومن الانحياز إلى العدل، الذي هو وسط بين موقفين خاطئين، وموازنتها، من ثم، بين عوامل المادة وقوى الروح، على نحو لا نكاد نبصر له مثيلاً في كثير من الحضارات العالمية الأخرى..

ولهذه الميزة في حضارتنا، ومنذ نشأة تيار المعتزلة ـ أهل العدل والتوحيد ـ العقلاني، في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، نجد قطاعاً عريضاً وعميقاً في فكرنا وتراثنا قد تدينت الفلسفة عند أهله وتفلسف الدين عند مفكريه! . .

ولقد ظلت هذه الميزة مستكنة في تراثنا الحضاري، حتى إذا ما كشفت اليقظة الحديثة عن هذا التراث غطاء العصور المظلمة وغبار عصر «المماليك ـ العثمانيين»، وجدنا كوكبة مفكرينا الذين صنعوا عصر اليقظة هذا، ومنهم علي مبارك، لا يتبنون موقف مفكري اوروبا الذين يفصلون ميدان «العلم» عن ميدان «الدين»، ويجعلون لكل منهاجاً وحدوداً، يدعون إلى حذر الخلط بينهما، ساخرين من محاولات التعايش بينهما، ناهيك عن التفكير في التوفيق! . .

وهذا هو السر في أن مفكري عصر نهضتنا الحديثة قد عادوا، دائماً وباستمرار، يبعثون من تراثنا الأدلة على انتصار الدين للعلم وإخاء الحكمة للشريعة، وانتفاء العداء بين هذين النمطين من أنماط التفكير ومناهجه . .

وفي رواية [علم الدين] نجد المستشرق الانكليزي يؤكد على ضرورة ترك كل طائفة ـ من أهل الدين وأهل العلم ـ الحكم على علوم الطائفة الأخرى، إذ «ليس لطائفة أن تنكر على طائفة أفكارها وأعمالها . .» فلكل ميدانه، ولا صلة تربط بين

الميدانين، ولا علاقة تجمع بين المنهجين، ومن ثم فالتعايش، على البعد، هو المطلوب...

على حين نرى الشيخ «علم الدين» ينهج نهج التوفيق بين العلم والدين، بل ويقتحم أصعب الميادين وأكثر الطرق وعورة في هذا المقام.. ففي اللاهوت، كما عرفته الكنيسة الأوربية، لا مجال للتوفيق بين «الطبائعيين»، القائلين بحدوث المسببات من أسبابها الطبيعية، وبين تصورهم اللاهوتي للخلق والإيجاد في هذا الكون.. أما الشيخ «علم الدين» فإنه يمضي ليوفق بين نتائج فلسفة «الطبائعين» وبين الإسلام، وهو ينطلق إلى هذه المهمة من المقدمة القائلة: إن الطبائع، التي ينسب «الطبائعيون» لها هذا التأثير، هي أيضاً مخلوقة لله سبحانه، فلا بأس من الاعتراف لها بدور السبب والفاعل، إذ لن يقدح ذلك في الدور الأول للفاعل الأول، سبحانه، في هذا الوجود..

يفعل الشيخ «علم الدين» ذلك عندما يسترجع أدلة الفخر الرازي [٥٤٣ - ٦٠٦ هـ ١١٤٩ - ١٢١٠ م] التي تقرر تلك الحقيقة عند تفسيره لقول الله سبحانه: [ألم تر أن الله يزجي سحاباً، ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاماً، فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء][1]... فوجود الفعل، ونسبة التأثير

---

(١) النور: ٤٣.

لأية ظاهرة من هذه الظواهر الطبيعية لن يلغي سلطان الفاعل الأول[1]. .

وفي «مسامرة» أخرى يحكي لنا الشيخ عن ذلك الكتاب الذي قرأه، من كتب التراث ـ الذي جهله الخلف أو تجاهلوه ـ فوجد فيه صورة العالم والكون على هيئة قوى طبيعية تتولد الواحدة فيها من الأخرى، على نحو ما صور الفلاسفة الطبائعيون، فيقول: «وقع في يدي كتاب قد مسحته يد الزمان، وألحقته في النسخ بخبر كان!، فتصفحته فوجدت فيه. . : أن الله لما خلق الكون جعل الأفلاك العلوية والكواكب السماوية بمنزلة الآباء، وجعل الأركان الأربعة، وهي: التراب، والماء، والنار، والهواء، بمنزلة الأمهات، فإذا اتصلت أشعة الكواكب، التي هي بمنزلة الآباء، بالأركان الأربعة، التي هي بمنزلة الأمهات، حدثت المواليد الثلاثة، التي هي: المعدن، والحيوان، والنبات. فما وجدت المواليد الثلاثة إلا بحركة اتصال الآباء بالأمهات. وهذه الأركان الأربعة، وإن كانت كالأمهات بالنسبة للمواليد الثلاثة، إلا أنها متولدة عن غيرها أيضاً، لأنهم يقولون: إن الحرارة اتصلت باليبوسة فأنتجتا ركن النار، ثم اتصلت بالرطوبة فأنتجتا ركن الهواء، ثم اتصلت البرودة بالرطوبة فأنتجتا ركن الماء، ثم اتصلت باليبوسة فأنتجتا ركن التراب، فحصل في الأبناء حقائق الآباء والأمهات، فكانت النار حارة يابسة، فحرارتها من جهة

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الأول. ص ٥٠٨.

الأب، ويبوستها من جهة الأم، وهكذا. فانظر كيف جعل المولى كل صفة من صفات الأشياء مكتسبة وراجعة إلى أصلها!!»[1].

فما يراه الفقهاء وأهل الجمود افتئاتاً على اختصاص الصانع الأوحد، يراه مفكرنا الكبير سنة من سنن هذا الصانع وقانوناً طبيعياً جعل تولد العناصر من الآباء بواسطة الأمهات، وهكذا في كل مجالات الخلق والنمو والتكوين..

كما نجد لدى علي مبارك في [علم الدين] آثاراً واضحة للقراءة في (التاريخ الطبيعي)، ومظاهر عديدة لتبنيه لنظرية التطور والنشوء والإرتقاء، التي بلورها ـ بعد ذلك ـ تشارلـز داروين [١٨٠٩ ـ ١٨٨٢ م].. فهو يعرض لتطور الكائنات الحية من شكل إلى آخر، ولتطور خصائصها وعاداتها واحتياجاتها، على هدى من حقائق هذه النظرية.. (فالجعران) ـ الذي عرفه، وعظمه قدماء المصريين ـ «أصله من دودة تدب في بطن الأرض، لا نسبة بينه وبينها بوجه من الوجوه!»... و (أبو دقيق) «يتغير ثلاث مرات، ينقلب فيها إلى ثلاث حالات. فالدودة في أصل خلقتها مشتملة على جميع ما يلزم للصور التي تتحول لها وتنقلب إليها، فكأنما هي في ثلاثة أثواب مختلفة الهيئآت، بعضها فوق بعض، فتشق الواحدة منها وتخرج منه، فتظهر بهيئة ما تحته، فتبقى فيه ما شاء الله ثم تخرج منه، وهكذا حتى تظهر في الهيئة

---

(١) المصدر السابق. المسامرة الثامنة والتسعون (البركة في الحركة) المجلد الثاني. ص ٣٥٣.

الأخيرة فتبقى عليها إلى أن تموت بها..»[1].

فهنا، كما لا يخفى، آثار واضحة لنظرية النشوء والارتقاء، وتطور الأنواع. وكانت في ذلك الحين شغل الدوائر الفكرية والمنتديات العلمية، وموضع السخط والغضب والتسفيه من دوائر التخلف والمحافظة والجمود!..

والظواهر الطبيعية التي تفسرها بعض المواريث، المحسوبة على الدين، تفسيرات خرافية، ينهض علي مبارك كي يقدم لقارئه التفسيرات العلمية لها، ليزيل ركام الخرافة الذي أصبح من عقائد العامة ومسلمات الجماهير، بل ومن دوافع هذه الجماهير إلى التدين وإحكام روابطها بالإيمان!.. ففي الليلة الثانية عشرة من الشهر القبطي «بؤنة» ـ وهي ليلة (النقطة) ـ تسقط على الأرض قطرات الندى... تلك ظاهرة من ظواهر الطبيعة، لكن مواريث الكنيسة القبطية بمصر قد ألقت في روع المؤمنين بها أن قطرات الندى هذه هي بعض من بركات «السيد ميكائيل!»، وأن السيد ميكائيل هذا إنما يلقي على الأرض قطرات الندى كي يمنع بها الطاعون ويخمر العجين؟!.. بل وإلى هذه القطرات

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٤٦، ٤٧ [وجدير بالذكر أن كتاب [أصل الأنواع] لداروين قد صدر في نفس التاريخ الذي ألف فيه علي مبارك روايته.. لكن عناصر النظرية كانت موضع جدل، بل وبعض هذه العناصر قديم تبلور في التراث العلمي العربي. ودور داروين الأساسي هوبلورتها والبرهنة العلمية والتجريبية على صدقها]

يرجع هذا الاعتقاد أمر ماء النيل في الفيضان، قلة وكثرة.. إلى آخر بركات السيد ميكائيل، والقصص الذي نسجوه من حوله!..

ولنقص هذا البناء الخرافي من أساسه يفسر علي مبارك هذه الظاهرة الطبيعية التفسير العلمي، فيقول: إن السبب فيها هو «أن الشمس في شهري فبراير (أمشير) ومارس (برمهات) تقرب من سمت الرأس في أغلب بلاد مصر، ولشدة حرارتها تشتد التحاريق وتفسد مياه الصهاريج وتضيع عناصر جودة ماء النيل وتميل إلى التعفن والفساد بدل التبخر والصعود. فإذا كان يوم النقطة جاءت المياه الجديدة فتختلط بالقديمة الساخنة فتلطف حرارتها وترققها فيسهل تبخرها بفعل الشمس، لكن بسبب تحملها للمواد العفنة المستقرة في مجرى النيل يبقى المتبخر قريباً من سطح الأرض، فإذا جاء الليل برد، فيقع على الجدران وغيرها ندى، غزيراً أو خفيفاً!»[1] هكذا الأمر.. وهذا هو التفسير لظاهرة «الندى».. ولا دخل في ذلك، على الإطلاق، للسيد ميكائيل!..

وعلي مبارك يتبنى وجهة النظر التي تقول بقدم الدين، سواء من حيث العقائد الأصلية، أو الوصايا الأخلاقية أو ما شابهها من التعاليم، حتى وإن زعم خلاف ذلك أحبار دين من الأديان..

---

(١) [نخبة الفكر] الباب الأول. فصل في زيادة النيل ونقصه.

وهو يحدثنا عن ذلك حديث الذي استفاد بدراسات عربية وأخرى أوربية في هذا الموضوع . .

وبمقاييس الإسلام، فوجهة النظر هذه هي الصحيحة، لأن الدين واحد عند كل الرسل وجميع الأنبياء، لم تتبدل أصوله، وهي : الألوهية، والنبوة، والعمل الصالح، وإن اختلفت الشرائع لارتباطها بتطور المجتمعات وتغيرها . . والقرآن قد جاء، في أصول الدين، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل . . على حين جاءت شريعة محمد، عليه الصلاة والسلام، ناسخة لما سبقها من شرائع أوقف صلاحها تغير المجتمع الذي ظهر فيه الإسلام . .

وعلي مبارك يقول لنا إن المؤرخ العربي ابن الوردي [٧٤٩ هـ ١٣٤٨ م] قد كتب عن الديانات القديمة، بل وحفظ لنا صحيفتين من صحائف أقدم ديانة سجلها تاريخ الإنسان، وهي ديانة «الصابئة»، التي سبقت عصر الطوفان، وسادت في مصر القديمة، ثم استمرت منها تعاليم ووصايا في عديد من الرسالات والديانات التي تلت تلك العصور . إذن فكما أن المعارف الإنسانية قديمة، ومتصلة عبر الطوفان، فكذلك المعرفة في ميدان الدين . . وليس ذلك بالأمر المستغرب، فهما لونان من ألوان الفكر الذي حكم نظرة الإنسان للكون وتصوره لما وراء ماديات هذه الحياة . .

وإلى الصابئة وديانتها تعود النشأة الأولى للمعابد والهياكل التي

ذكرت في تاريخ العبادات: «مصلينا» بباب الرقة بمدينة حران ـ الذي يقال إنه هيكل «آذر» أبو إبراهيم، عليه السلام. . والهيكل المدور، ذي الأبواب السبعة، والقبة العالية المسبعة الأركان، في الصين، والذي ازدانت قبته بحجر يشبه الجوهرة الكبيرة، يبعث الضوء في كل الهيكل، استعصى انتزاعه على عدد من الملوك!. . وعلي مبارك يقول عنه: كأنه «نوع من الأحجار المغناطيسية»!. .

وكذلك هيكل بظاهر حران. . وهيكل السنبلة. . والصورة. . والنفس. . وزحل. . والمشترى. . والمريخ. . والشمس. . وعطارد. . والقمر. . كلها تعود في النشأة إلى هذه الديانة القديمة، وإن اختلفت في أشكال المعمار. . بل ويذكر علي مبارك نقلاً عن ابن الوردي أن «بيت مكة» هو واحد من الهياكل التي عظمها الصائبة القدماء[1]؟!. .

ويعمم علي مبارك هذا القول، فيتبنى وجهة النظر التي ترجع بعدد كبير من عقائد المسيحية ووصاياها إلى عصور سبقت ظهور المسيح. . «فالتعميد»: لم يصنعه المسيح، ولقد عرفه الهنود وقدماء المصريين. و«الاعتراف»: لم يصنعه المسيح، وعرفه اليهود، والمصريون القدماء في عهد إيزيس. . وعقائد «القضاء والقدر والجنة والنار»: ليس صحيحاً أنها ابتكارات مسيحية، لأنها قد عرفت منذ سقراط [٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق. م]، وتبعه فيها

(١) [الأعمال الكاملة] المجلد الثاني. ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢.

أفلاطون [٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق. م]، الذي «قسم الأرواح إلى طاهرة وغير طاهرة، وقسم غير الطاهرة إلى ما يمكن تطهيرها بالنار وما لا يمكن تطهيرها أصلاً».. و «التثليث»: جاء إلى المسيحية من كلام أفلاطون، وهو قد تبع فيه تيمة أحد علماء لوتريس، ثم انتقل إلى اليهود، الذين لقنوه للنصارى.. ومثل ذلك زي رجال الدين المسيحيين، وعادة الجثى على الركب، ووضع القسس أيديهم على رؤوس الناس وقراءة كلمات التبرك... كل ذلك موجود في ديانة المصريين القدماء!..

ولقد سبق سقراط، وكونفوشيوس [٥٥١ ـ ٤٧٩ ق. م]، وأنطونين، وزرادشت [حوالي القرن السابع والسادس ق. م]، وأرسطو [٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق. م]، ويوسيد، وفيثاغورس [٥٨٢ ـ ٥٠٧ ق. م] وزينون [٤٩٠ ـ ٤٣٠ ق. م]، وغيرهم، سبقوا أحبار المسيحية إلى الحديث عن كثير من الوصايا التي يظن البعض إنها لم تعرف قبل المسيح... ومنها الحديث في الحكمة، وعقوبة الزنا، وجزاء المخطىء، والعفو عن المسيء، وحب الأعداء الذي يحولهم إلى أحباء... «فأذا علمنا ذلك ظهر لنا أن النصرانية لم تأت بشيء كان معدوماً عند من قبلها!»...

ويتعجب علي مبارك من اعتقاد الأوربيين ببعض العقائد الدينية التي لا تتناسب مع قوم عقلانيين مستنيرين متحضرين، مثل عقيدة «الحلول» التي كونت عقيدة «التثليث»!.. ويفسر تلك الظاهرة، التي جمعت النقائض، تفسيراً سياسياً، فهم، رغم

عدم تدينهم، إلا أنهم يستخدمون الدين لأهـداف سياسية، فيقول: «ومن الغريب تقدم الأوروباويين في كثير من الفنون والصنائع مع بقائهم على اعتقاد الحلول، الفاسد!. فعلل المانع لهم من رفضه ما يسمونه بالبوليتيقة - [السياسة] - فلولاها لم يبق له عندهم أثر بالكلية!»..

كما يعيب عليهم ما يوجهه بعضهم من هجوم على الإسلام وعقائده، مع الجهل بأصول هذه العقائد، «ولو تأملوا الإشارات القرآنية، وما ورد من الآثار النبوية، لعثروا بالتمدن... واهتدوا إلى ميزان العدل!...»

وهو يفسر هذا الموقف المعادي للإسلام، أيضاً، تفسيراً سياسياً «فلعل الحامل عليه رغبتهم في بقاء البابوية، التي معناها السلطنة على جميع أهل الأرض، لأنهم يزعمون أن البابا نائب عن الإله... فأين هذا من دين الإسلام، المبني على أن الله واحد، في ذاته وفي صفاته، وفي أفعاله، واحد لا من قلّة، وموجود لا من علة، ولا يحيط به مكان، ولا يشتمل عليه زمان، ليس منفصلاً عن شيء، ولا ينفصل عنه شيء، ولا يحل في شيء، وليس كمثله شيء، وهو الخالق لكل شيء، الغني عن كل شيء!»[1].



(١) المصدر السابق. المجلد الثاني ص ٣١٢ - ٣١٥

هكذا نظر علي مبارك في الفكر الديني، إسلاماً أو غيره أو كان واحداً من أكثر مفكري عصره وجيله ومجتمعه قرباً من النهج العقلاني، وتخففاً من الشعوذة والخرافات!..

وليس ذلك على الله ببعيد، ولا على العلم ومنهجه بغريب!....

لقد تحول علي مبارك، بالعلم والعقل، من فلاح صغير فقير، تقتل جهالة الريف ملكاته الفطرية، وتطحن مظالم القرية طموحاته، إلى ذلك النجم الذي لمع في سماء مصر والشرق، فأضاء للعلم دروباً يسلكها الراغبون، وأقام للتعليم مؤسسات يؤمها أبناء الشعب، وهندس للزراعة والصناعة والتجارة والعمارة كأشهر أعلام هذه الميادين في عصرنا العربي الحديث.. كما أهدى إلى المكتبة العربية الحديثة أسفاراً ستظل خالدة، دائمة العطاء، شاهدة على أن الشجرة الطيبة تظل دائماً وأبداً أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتى أكلها، للراغبين، في كل حين، رغم مرور السنين وتوالي القرون!..

* * *

ذلكم هو علي مبارك: الحياة.... والفكر.... والإنجازات.

عظيم ظلمه الذين جهلوه أو تجاهلوه.... فلعل هذه الدراسة أن ترفع ذلك الظلم العظيم عن هذا الإنسان العظيم؟!....

المصادر

ابن منظور: [لسان العرب] طبعة القاهرة.
أحمد أحمد سيد أحمد (دكتور): [رفاعة رافع الطهطاوي في السودان]. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م.
أحمد أمين: [زعماء الاصلاح في العصر الحديث]. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩م.
أحمد الحسيني (بك): [نهجة المشتاق في بيان حكم زكاة أموال الأوراق] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ.
أحمد شمس الدين الحجاجي (دكتور): [العرب وفن المسرح] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.
أمين سامي (باشا): [تقويم النيل] طبعة القاهرة سنة ١٩١٦ ـ سنة ١٩٣٦م.
[التعليم في مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩١٧م.
ا. م. فورستر: [أركان القصة] ترجمة: كمال عياد جاد. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠م.
بروكلمان (كارل): [تاريخ الشعوب الاسلامية] ترجمة: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي. طبعة بيروت سنة ١٩٦٨م.
الجبرتي (عبد الرحمن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م.

[مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.
جرجي زيدان: [تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر] طبعة القاهر سنة ١٩٢٢م.
خلف الله (محمد أحمد) (دكتور): [علي مبارك وآثاره] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧م.
الدميري (كمال الدين محمد بن موسى): [حياة الحيوان الكبرى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.
الرافعي (عبد الرحمن): [مصطفى كامل] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢م.
:[عصر محمد علي] طبعة القاهرة سنة ١٩٥١م.
:[عصر اسماعيل] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨م.
:[الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.
الزركلي (خير الدين): [الأعلام] طبعة بيروت، الثالثة.
السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن): [تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧م.
سركيس (يوسف إليان): [معجم المطبوعات العربية والمعربة] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.
سليم نقاش: [مصر للمصريين] طبعة الاسكندرية سنة ١٩٨٤م.
الطهطاوي (رفاعة رافع): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.
عايدة ابراهيم نصير: [الكتب العربية التي نشرت في الجمهورية العربية المتحدة بين سنة ١٩٢٦م وسنة ١٩٤٠ م] طبعة الجامعة الامريكية ـ القاهرة ـ سنة ١٩٦٩م.
علي الراعي (دكتور): [دراسات في الرواية المصرية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.

علي مبارك (باشا): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.
عمر طوسون (الأمير): [البعثات العلمية في عهد محمد علي، وعباس الأول وسعيد] طبعة الاسكندرية سنة ١٩٣٤م.
فيليب حتى: [تاريخ العرب] - «مطول» - طبعة بيروت سنة ١٩٥٣م.
قاسم أمين (بك): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٦م.
كحالة (محمد رضا): [معجم المؤلفين] طبعة دمشق سنة ١٩٥٧م.
لوتسكي (فلاد يمير يوريسوفيتش): [تاريخ الأقطار العربية الحديث] طبعة موسكو سنة ١٩٧١م.
محمد دري الحكيم (دكتور - بك): [تاريخ حياة المغفور له علي مبارك باشا] طبعة القاهرة سنة ١٨٩٤م.
محمد رمزي: [القاموس الجغرافي للبلاد المصرية] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ - سنة ١٩٥٥م.
محمد عبد الغنى حسن، وعبد العزيز الدسوقي (دكتور): [روضة المدارس] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.
محمد عبده (الاستاذ الامام): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: الدكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.
محمد عمارة (دكتور): [العروبة في العصر الحديث] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.
محمد فؤاد عبد الباقي: [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة القاهرة سنة ١٣٧٨ هـ.
محمد فريد (بك): [تاريخ الدولة العلية العثمانية] الطبعة الأولى.
محمد مختار المصري (باشا): [التوفيقات الالهامية] دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٨٠م.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): [الخطط] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ - سنة ١٩٦٨م.
المويلحي (محمد): [حديث عيسى بن هشام] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٣م.
نجيب العقيقي: [المستشرقون] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.
يونان لبيب رزق (دكتور): [تاريخ الوزارات المصرية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

الفهرس

رقم الإيداع : ٨٨/١٧٤٨
الترقيم الدولى . ٤ ـ ١٨٩ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا : شروق ـ تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE